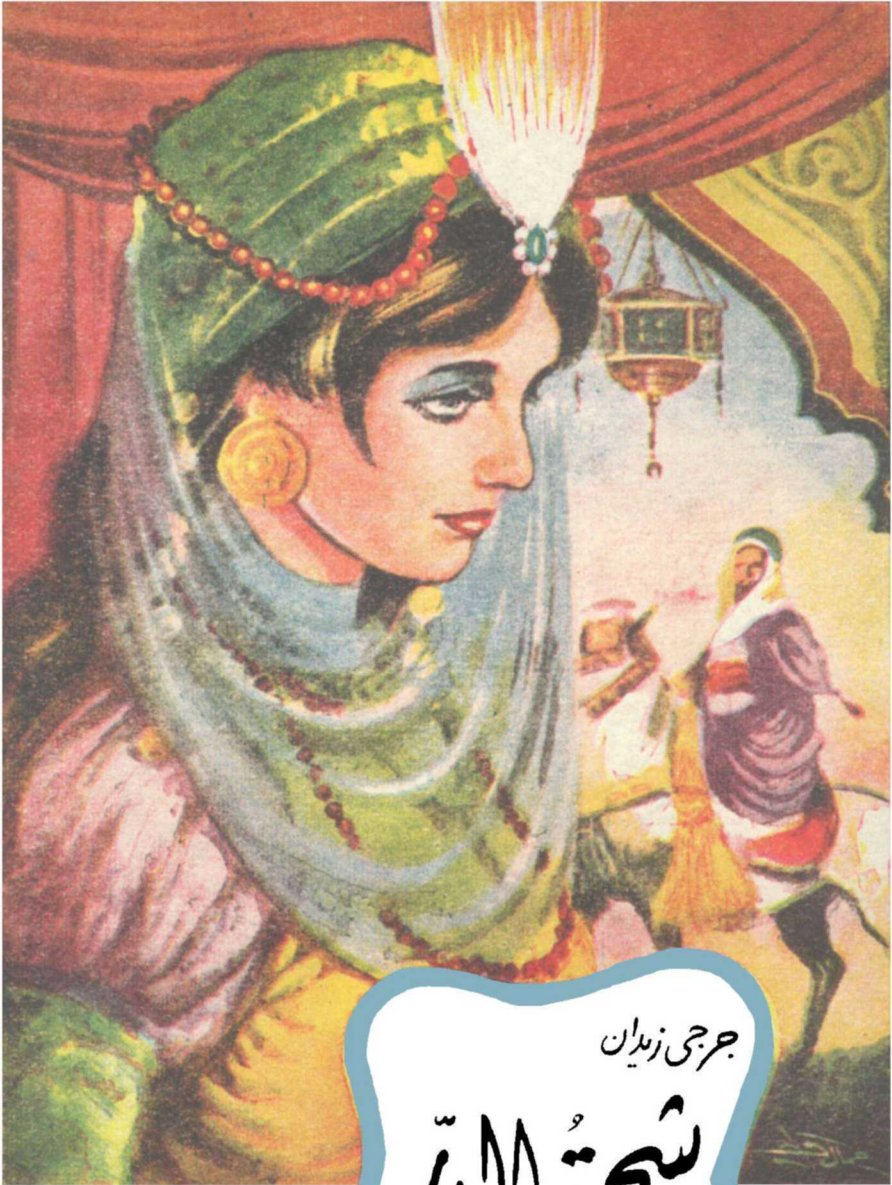


روايات تاريخ الاسلام



جرجى زيدان

سجرة الدر

دار الهلال







# شجرة الدر

رواية تاريخية

تتضمن مبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح ، وسيرة الأمير  
ركن الدين بيبرس الملقب بالملك الظاهر ، وحالة الخلافة العباسية  
في أيامها الأخيرة وانتقالها من بغداد إلى مصر على أثر افتتاح  
البتتر عاصمة الخلافة بقيادة هولانكو وقتلهم الخليفة

---

تأليف

جرجي زيدان

---

دار الفلّان

## أبطال الرواية

- \* شجرة الدر : زوجة الملك الصالح  
\* شوكار : جارية شجرة الدر  
\* عز الدين أيبك التركمانى : قائد الجيش  
\* ركن الدين بيبرس : أحد أمراء الجيش  
\* سلافة التركية : جارية الملك الصالح  
\* سحبان : تاجر أقمشة من بغداد  
\* المستعصم بالله : آخر الخلفاء العباسيين  
\* هولكو التترى : حفيد جاتكيزخان  
\* مؤيد الدين بن العلقمى : وزير المستعصم بالله

### مراجع هذه الرواية

- هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :
- |                        |                          |
|------------------------|--------------------------|
| * حسن المحاضرة للسجوطى | * سيرة الملوك            |
| * تاريخ ابن اياس       | * معجم ياقوت             |
| * الهلال مجلد ١٩       | * تاريخ ابن جبير         |
| * تاريخ الفخرى         | * تاريخ مصر الحديث ايجرى |
|                        | * زيدان                  |

## الدولة الأيوبية

فرغنا من رواية « صلاح الدين » وقد دخلت مصر في حوزته .. ثم توارثها السلاطين من أولاده واخوته وأولادهم وأحفادهم . وبنى صلاح الدين قلعة القاهرة ، وجعلها مقر ملكه بمصر . واقتسم الأيوبيون الملك في مصر والشام .. وأفضت السلطنة بمصر سنة ٦٣٧ هـ ، الى السلطان الملك الصالح بن الكامل ، فأكثر من اقتناء المماليك الاتراك وجمع منهم نحو ألف مملوك ، بنى لهم قلعة في جزيرة الروضة .. جعلهم يقيمون فيها ، كما جعل تلك القلعة المركز الرئيسى لملكه .. ونقل اليها أهله وحاشيته فضلا عن مماليكه ، بدلا من قلعة القاهرة ..

وفي أيامه حمل الصليبيون على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والملك الصالح مريض . وأمر بالتجنيد للاستعداد للحرب ، لكن الصليبيين ظفروا بدمياط بخيانة بعض أهلها ، وفرار بعض أمرائها . وتوفى الملك الصالح على أثر ذلك ، وخلفه ابنه غياث الدين طوران شاه ، وسموه الملك المعظم . وكان النفوذ لشجرة الدر ، احدى جوارى الملك الصالح ، وهى التى دبرت أمور الدولة بعده وكنتمت خبر موته ، حتى جاءوا بابنته غياث الدين من سوريا وبايعوه سنة ٦٤٧ هـ

وعاد المصريون لمحاربة الصليبيين ففازوا ، وأعادوا الصليبيين على أعقابهم بعد معارك حامية ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار جنده

ووقع الخلاف بعد ذلك بين رجال الملك المعظم غياث الدين هذا ، ومماليك أبيه الصالح .. فثار هؤلاء المماليك عليه ، فخاف منهم وحاول الفرار .. ولكنه لم ينج ، فقتلوه شر قتلة قرب بلدة فارسكور ..

فلما مات الملك المعظم أجمع المماليك على مبايعة شجرة الدر ، وهى أول امرأة تأتى لها ذلك فى الاسلام .. وبدأ التنزع على السيادة بينها وبين بعض الأمراء المماليك ، وبينها وبين بقية الدولة الأيوبية وغيرهم من طلاب السيادة ، وأفضت السلطة أخيرا الى المماليك الاتراك وتوارثوها .. وفى أيامهم ، سطا التتار على بغداد بقيادة هولاكو ، وقتلوا الخليفة المستعصم ، وانتقلت الخلافة الى مصر

- ٢ -

### جزيرة الروضة

- ما أجمل ضوء القمر يا شوكار ..
- انه جميل ياسيدتى .. ليس أجمل منه الا الجلوس بين يديك والتمتع بحديثك ..
- فأجابتها سيدتها : « انك تتملقيننى يا شوكار .. ولا تقولين



الحق .. من منا أكثر تمتعا بصاحبته .. أنا ؟ وليس في حديثي  
 الا المتاعب والمشاكل المياسية ؟.. أم أنت ، وقد وهبك الله  
 كل ما تتمناه الغايات من جمال الخلقه والذكاء ، ورخامة  
 الصوت ، ولطف العشرة . وانت في مقتبل العمر ، وانا في حدود  
 الكهولة وقد اناخ على الدهر بأثقاله ومشاكله »

فخجلت شوكار من هذا الاطراء وبادرت الى الجواب قائلة :  
 « العفو ياسيدتى .. انك تخجليننى بهذا الاطراء ، ومن أكون انا  
 حتى أعد شيئاً مذكوراً بجانب مولاتى شجرة الدر ، محظية  
 الملك الصالح - رحمه الله - وأم ولده ؟.. وقد خصك الله  
 بمواهب لم يخص بها أحد من البشر سواك . ليس في النساء  
 ياسيدتى امرأة تطمع في بعض ما نلته ، زادك الله رفعة .. و .. و ..  
 فبادرت شجرة الدر الى قطع حديث جاريتها شوكار بسرعة .  
 فوضعت يدها على فمها بلطف ، وهى تبتسم لها ، وفي ابتسامتها  
 انقباض ، وقد أبرقت عيناها من كثرة التفكير ، ثم تنهدت تنهدا  
 عميقا وقالت : « تحسدني على ما تتوهمني به فنى من رفعة  
 القدر ؟ من هنا يأتى سبب شقائى .. » قالت ذلك وأطرت وهى  
 مقطبة الحبين ، فتهيت شوكار من مظهرها .. ولم تجبها

وكانت شجرة الدر جالسة على مقعد من الأبنوس فى شرفة  
 المصطبة ، فى أحد قصور الملك الصالح التى بناها فى جزيرة  
 الروضة ، تطل على مجرى النيل الى مسافة بعيدة . وجزيرة  
 الروضة من أجمل جزر النيل بين مصر القديمة والجزيرة التى طالما

اتخذها الملوك متنزها . وقد جعلها مولاها الملك الصالح مقرا  
 لملكه بدلا من القلعة حيث كان أسلافه يقيمون . وأنشأ في الروضة  
 هذه قلعة فخمة عرفت بقلعة المقياس ، نسبة الى مقياس قديم  
 للنيل هناك .. وسموها أيضا قلعة الروضة ، أو القلعة الصالحية  
 وكان في موضع القلعة أبنية كثيرة فيها القصور ، والمساجد ،  
 والمعابد ، ودور الصناعة لبناء السفن ، والهودج الذي بناه الأمير  
 بأحكام الله الفاطمي لجاريته ، وقد اشتهر أمره . فهدم الملك  
 الصالح كل هذه الأبنية .. وبنى القلعة في مكانها ، وأتفق عليها  
 أموالا طائلة . وفي جملة ما بناه فيها قصور ، ومنازل ، ومسجد ،  
 ونقل إليها العمدة ، والأساطين الصوان والجرايت والرخام ، من  
 الهياكل القديمة ، وعرس فيها الأشجار ، والرياحين . وبنى في  
 القلعة ستين برجا ملأها بالأسلحة وآلات الحرب ، وما يحتاج اليه  
 من الغلال والأقوات ، خوفا من محاصرة الافرنج .. لأنهم كانوا  
 يعتزمون غزو مصر .. وقد بالغ في اتقان تلك الأبنية حتى قيل ان  
 الحجر الواحد من أحجارها كلفه ديناراً . وكان يقف بنفسه  
 ويشرف على العمل (١) ، فلما تم بناؤها نقل إليها أهله ونساءه  
 وجواريه ، وفرق فيها مماليكه وعددهم نحو ألف مملوك  
 وأنشأ خارج سور القلعة في مكان خاص بناء عظيمًا ، جمع  
 فيه أنواع الوحوش من الأسود ، والنمور ، وغيرها .. كى  
 يشاهدها السلطان

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ٧٦٢ الجزء الثاني

وكانت شجرة الدر في جملة جواريه ، وقد استولدها ولدا  
اسمه خليل ، فقربها منه .. وكانت هي على جانب عظيم من  
الدهاء والذكاء ، فغلبت على ارادته ونالت نفوذا عظيما عنده .  
فلما مات في المنصورة سنة ٦٤٧ هـ ، كتبت أمره وظلت تقوم  
بأمور الدولة عنه ، وتوقع على الأوامر بتوقيعه خوفا من الفشل ،  
وهم في حرب مع الصليبيين .. لكنها أسرّت الخبر الى كبار  
الأمرء ، ولاسيما عز الدين ايبك التركمانى ، وكانت بينه وبينها  
مودة .. فبعث أعيان الأمرء الى ابنه غياث الدين من حصن  
كيفا ، فاستقدموه وولوه عليهم وواصلوا محاربة الصليبيين ..  
أما شجرة الدر ، فانها عادت الى تلك القلعة وأقامت فيها ..  
وفي خاطرها أشياء لم تطلع عليها أحدا ، ورغم ثقته العظيمة  
بشوكار لم تفتحها بشيء منها

أما في تلك الليلة المقمرة ، فقد جاشت أشجانها وأرقت لسبب  
تعلمه هي ، ولا يعلمه سواها . وكانت كثيرة الاستئناس بشوكار  
جارتها ، وهي جميلة الطلعة ، رخيمة الصوت .. تتقن العزف  
على العود . فلما أرقت دعتها اليها للاستئناس بها ، والاستمتاع  
بصوتها .. وارتدت شجرة الدر ثوبا بسيطا ، والتفت بمطرف  
من الخز وجلست على الشرفة ، وأطلت على مجرى النيل

وقد سكنت الطبيعة ، وهدأ النسيم .. الا ما يعبث منه بشعرها  
المرسل على ظهرها ، وقد ضمته وأرسلته بغير عناية .. ولم تحسن  
الالتفاف بمطرفها بحيث لو نظرت اليها لتبين لك انها في شغل

هام .. ناهيك بما في عينيها من دلائل القلق ، ويكاد الشرر يتظاير  
منهما لفرط ما جاش في خاطرها من البلايل . وهى امرأة ، لكنها  
ليست كسائر النساء .. لها قلب الرجل ، ومطامع كبار الرجال .  
إذا عزمت على أمر لا تبالى بما يقف في سبيلها من العقبات ،  
لأنها تدللها بأية وسيلة كانت ، على نحو ما يفعل عظماء الرجال ،  
وأرباب المطامع ، ولا سيما في ذلك العصر

أما شوكار جارينتها الخاصة فانها فتاة تركية مثلها ، لا تزال  
في مقتبل العمر .. كانت شجرة الدر تحبها وتطرب لصوتها ،  
وتكاد لا تفارقها ، فهي مستودع أخبارها وأسرارها . لكن  
شجرة الدر كانت لفرط دهائها لا تفتح قلبها لأحد ، ولا تأمن  
أحدًا على أسرارها الهامة . ولذلك كان كبار المماليك يهابونها  
وبحسبون لها حسابا ، وقد استولت على قلوبهم تيبها واعجابا

- ٣ -

سر معلق

خرجت تلك الليلة من قصر الملك الصالح ، أجمل قصور تلك  
الجزيرة وأثمنها رياشا وزخرفا ، وهى كما وصفناها ومعها  
جاريتها شوكار . ومشت فى دهليز مسقوف يؤدى الى مصطبة  
لها شرفة تطل على النيل .. فجلست على مقعد مكسو بالديباج  
المزركش ، وجارينتها تعزف على العود وتغنى لها أغنيات تعوّدت  
أن تطلب اليها انشادها ، وهى مستغرقة فى هواجسها تنظر الى



«فجلست شجرة الدر على مقدم مكسوب بالدباج المزركش ، وجارتها تعزف على العود وتغني لها الغنيات تصودت أن تطلب أيهما انشادها .»

النيل ومنظره كالفضة الالامعة من تكسر أشعة القمر على سطحه.. ولولا ما يتخلل بياضه من التموج والاهتزاز لم تشك في انه فضة خالصة .. أو هو كالمراة ، وكانت مراياهم تصنع حينذاك من الفضة المصقولة بدلا من الزجاج ، ومما يوهم الناظر أن سطح النيل مراة حقيقية ما يتراءى فيه من نجوم السماء ، ولا سيما القمر ، لكنه لم يكن يظهر جميلا صقيلا وكأنها أحست بطول سكوتها واشتغالها عن غناء شوكار ، فأجالت بصرها على الضفة المقابلة من النيل في شاطئء الجزيرة ، وعليها النخيل صفوفًا ، وقد أرسلت رءوسها في الفضاء ، كأنها أسراب من العذارى يحملن المظلات ، وقد وردن الماء ، فلما أشرفن على ضفة النيل تهيبن ، فوقفن كالأصنام ينظرن الى مجراه .. وظهرت ظلال النخيل ملونة في الماء ، وأكسبها النيل حركة اهتزازية كأن أولئك العذارى نزلن للاغتسال ، فارتعدت أجسامهن من البرد ، أو من الحياء - ووراء النخيل يترأى الهرمان كأنهما جبلان ، وقد غلبا على طوارىء الحدثان - فأرادت شجرة الدر أن توهم جارتها انها سكنت تهييا للطبيعة الجميلة ، فقالت لها : « ما أجمل ضوء القمر يا شوكار .. »

فسرت شوكار لأن سيدتها قد سرى عنها ، وزادت امتنانا حين سمعت اطراءها لصوتها .. لكنها ما لبثت أن رأتها تعود الى الانتقباض ، وأخذت تشكو من حالها ، وان ما تحسدها عليه من النعيم انما هو سبب شقائها . فانقبضت نفس شوكار ، وأرخت

العود من يدها وتقدمت حتى جثت عند قدمي سيدتها وقبلت ركبته وقالت : « ما الذى يشغلك ياسيدتى ؟ .. ما الذى يقلقك ؟ .. أم انك لا تثقين بى مع علمك انى مستودع أسرارك ، وليس لى شاغل سواك .. وانى أفديك بروحى » وغصت بريقها من شدة التأثر ..

فابتسمت شجرة الدر لها ووضعت يدها على رأسها ، وجعلت تعث بشعر الفتاة وبوجهها بين كفيها ، كأنها شاب يداعب فتاة يحبها .. وشوكار مطرقة يلذ لها ذلك لأنه دليل ارتياح مولاتها لحديثها . وهان على شجرة الدر أن تفتاح جاريتها ببعض هواجسها ، وهى تحسبها خالية الذهن من أمرها ، وتحسب سرها مكتوما عنها كل الكتمان .. وذلك من الأوهام الشائعة عند أصحاب الأسرار . يكتنم المحب حبه ويلذ له كتمانته لتوهمه انه لا يعلم به أحد سوى حبيبه . وقد يكون ذلك الحب حديث الجيران والخدم ليل نهار .. وقس على ذلك أكثر الأسرار ، ولا سيما ما كان منها يتعلق بالعامه فانه لا يخفى على الجمهور ، لكنهم يسكتون عنه فيتوهم صاحبه انه سر مطلق على الناس كافة . وهب انه يخفى على الجيران ، فهو لا يخفى على الخدم والجوارى ، لأن هؤلاء لا شاغل لهم غير استطلاع الأسرار ، والتوسع فيها ، والتكهن بما يكون من أمرها .. لكنهم فى الغالب يشوهون الحقيقة بما تصوره لهم أخلاقهم وميولهم .. فكانت شوكار على بينة من هواجس سيدتها ، وان لم تصب

الحقيقة تماما .. لكنها تجاهلت وتوسلت الى شجرة الدر أن تكاشفها بسرها ، فقالت لها شجرة الدر : « لا أخفى عنك سرا كما تعلمين ، لكن ما أكنمه ليس مما يهمك الاطلاع عليه » فقالت شوكار : « لا أطلب الاطلاع عليه لأنه يهمنى ، لكننى أطلب ذلك لعلمى ان الانسان اذا صرح بما يثقل عليه أو يكابده ؛ لشخص يحبه أو يثق به ، فان ذلك يخفف ثقل أعبائه ومتاعبه » فضحكت شجرة الدر على سبيل المداعبة وقالت : « يظهر يا بنية انك قد اخترت المتاعب النفسية .. ولذة المكاشفة .. » فأطرقت خجلا وقالت : « ليس عندى أسرار أكنمها أو أبوح بها ، وليست أسرارى مما يصح الاهتمام بها .. لكنى أعرف ذلك عن سوى .. فهل أنا مخطئة ياسيدتى ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « كلا .. انك تقولين الصواب .. ولكن دعينا من ذلك الآن ، واطربينا بشيء من صوتك الرخيم .. » لم تعتبر شوكار ذلك الرفض مقصودا ، لأنها قرأت تقيضه فى عيني شجرة الدر - والعينان أصدق من اللسان - فاستأنفت الكلام قائلة : « انى طوع ارادتك ياسيدتى فيما تريدن ، لكننى أود أن أخفف عنك قلقك .. »

فأجبت شجرة الدر أن تكون جاريتها البادئة بالحديث ، فقالت لها : « ماذا تظنين سبب قلقى ؟ .. » قالت شوكار : « من أين لى أن أعلم بذلك .. وليس فيما أعلمه من أحوالك سوى ما يدعو الى السرور والفخر .. الا



أن يكون هناك سر له علاقة بالقلب .. حتى هذا فانك قد نلت منه ما لم ينله سواك.. ان الأمراء كافة يتمنون رضاك ويعدون التفاتك نعمة ، ويكفى لاكتساب قلب أحدهم أن تنظري له نظرة رضى .. على انك فى غنى عن ذلك بمكائتك المرموقة من قلب مولاي عز الدين ايبك ، وهو كبير الأمراء ويتمنى لفئة منك .. و ... »

فلما ذكرت اسمه أجفلت شجرة الدر ، وتصاعد الدم الى وجتها ، وقطعت كلام شوكار وهى تظهر عدم الاهتمام وقالت : « ليس هذا الأمر مما يهتم له أمثالى يا شوكار ، وانما هو للفتيات نظيرك .. »

— ٤ —

### الملك المعظم

فأظهرت شوكار انها صدقتها بالرغم مما تعلمه بما بين شجرة الدر وعز الدين ايبك التركمانى ، كبير الاتراك ، من صلات المحبة . فحولت كلامها الى موضوع آخر ، وقالت : « اصفحى يامولاتى عن جسارتى واعذرينى على خطئى ، فلعل شواغلك تتعلق بأحوال الدولة .. على أثر وفاة سيدى الملك الصالح ، رحمه الله .. »

فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « نعم .. نعم .. انها تتعلق بما نحن فيه من الخطر ، والحرب قائمة بيننا وبين الافرنج فى

المنصورة وفارسكور ..

فقلت شوكار : « ولكن الأخبار الواردة الينا حسنة على ما أعلم . ألم يأتنا الطائر مبشرا بالنصر ؟ .. ثم حمل الينا الرسول خبر انتصار جنودنا على الفرنسيين ، وانهم قتلوا منهم ثلاثين ألفا ، وأسروا الملك لويس وجسوه في دار ابن لقمان . ثم جاءنا رسول يحمل رسالة أخرى وعليه ثوب ملك الافرنج نفسه ، وهو الأشكر لاط المخمل الأحمر بفرو سنجاىي وقلنسوة من ذهب . وقد زينت له القاهرة زينة لم يسمع بمثلها (١) أم تظنين ان ذلك غير الواقع ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « بل هو الواقع بعينه »

قالت شوكار : « اذن ما الذى يغضبك ياسيدتى ؟ .. »  
فتنهت شجرة الدر وقالت : « لقد أخرجتنى يا شوكار .. فلا بد من أن أطلعك على جانب من الخبر ، ان قلقى ليس خوفا من الافرنج .. فان جندا ، ولا سيما الاتراك هؤلاء الذين بنى مولانا الملك الصالح هذه القلعة لهم ، أشداء .. وقد ظهرت بسالتهم فى الحرب التى ذكرتها ، ولكننى أخشى الانقسام بين جندا من سوء تصرف الملك المعظم طوران شاه .. » قالت ذلك وهزت رأسها هز الندم

فقلت شوكار : « هل تأذن لى مولاتى بكلمة وان كنت لا أفهم شيئا من أحوال الدولة ، ولا شأن لى بتديير المملكة ..

(١) ابن اياس ٨٦ الجزء الاول

أظنكم أخطأتم باستقدام هذا السلطان من حصن كيفا وتوليته  
السلطة .. وعندكم من الأمراء من هو أكفأ منه .. »

فقال شجرة الدر : « ولكن الناس لا يدعون للسلطان الا  
اذا كان من الأسرة المالكة ، آل أيوب ، ولولا ذلك لهان الأمر .  
ولو كان طوران شاه هذا عاقلا لاستقام الأمر .. ولكنه غلام  
جاهل أحرق يشرب الخمر ، فاذا سكر فعل ما لا يفعله الأطفال ..  
وقد بلغنى انه يصف الشموع فى الليل أمامه ، ويأخذ السيف  
بيده ويضرب به تلك الشموع وهو يقول : « هكذا أفعل  
بالماليك البحرية » يعنى مماليكنا الاتراك .. وما برح منذ  
جاءنا ، ولم يمض عليه شهران ، وهو يفضل مماليكه الاكراد  
الذين أتوا معه على مماليكنا ، ويردد ذلك فى مجالسه ، مع ان  
النصر فى حروب الافرنج انما كان بفضل أبطالنا ولا سيما مولاك  
عز الدين ، وركن الدين يبيرس ، وسيف الدين قطز ، ونحوهم ..  
وانتى أخشى أن يطول النزاع بين الجندين ، ويغتنم العدو فرصة  
النزاع فيعود علينا .. » وسكتت لحظة وهى مطرقة ، ثم بلعت  
ريقها واستأنفت الحديث قائلة : « ولكنى دبرت تدبيراً اذا  
أفلق سلمنا من الخطر .. » قالت ذلك ونهضت وأظهرت انها فى  
شاغل .. خوفاً من أن تستزيدها شوكار بيانا ، وهى لا تريد  
كشف ذلك التدبير لها ..

فنهضت شوكار وقد أدركت غرضها ، وتشاغلت باصلاح  
العود وهى تنظر الى النيل .. وفى الطبيعة الهادئة ما يشغل

الخطر ، لكنها ما لبثت أن لاحظت فيما تراه من ماء النيل عن بعد اضطراباً على سطحه كدر ذلك اللعان ، فتطلعت فإذا هي ترى شبحاً كبيراً سابحاً في الماء قادماً من الشمال ، ولم تتمالك حين تبينته أن صاحت : « هذه سفينة قادمة إلينا .. ولا بد لقدومها في هذا الليل من غرض مهم .. »

وكانت شجرة الدر تتشاغل باصلاح شعرها ، فلما سمعت صراخ شوكار التفتت وتفرست في السفينة وصاحت : « هذه عشارية عز الدين .. ما الذي جاءنا به يا ترى من الأخبار ؟ » قالت ذلك وهولت وهي تلتف بالمطرف ، وتبعثها شوكار في مثل دهشتها كأنهما تطلبان المرفأ

وكان للروضة مرفأً جميل تقف عنده السفن منذ كانت فيها دار الصناعة .. ومن هذا المرفأً الى داخل القلعة طريق مختصر ، لكن شجرة الدر بعد أن دفعته الدهشة الى طلب المرفأً عادت الى رشدها وتراجعت ، وتظاهرت بأنها ذاهبة الى الايوان الكبير والذي كان الملك الصالح يجلس فيه لاستقبال الوفود أو الأمراء

— ٥ —

### ركن الدين بيبرس

وكان ذلك الايوان من أفخر الأبنية ، بذل الملك الصالح جهده في اتقانه وزخرفته . وهو في قاعة كبيرة قائمة على أعمدة من الرخام .. وقد زين سقفها بالرسوم المذهبة والنقوش من

النوع المعروف بالمقرنص .. وعلى جدرانها كتابة جميلة بصفائح الذهب والرخام الأبنوسى والكافورى والمجزع ، مما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار (١)

وكانت شجرة الدر لم تدخل هذا الايوان بعد أن توفي الملك الصالح منذ شهرين وبعض الشهر ، فاضطرت لاختفاء اضطرابها أن تنزل اليه ، فأمرت أحد الخصيان أن يفتحه ، فدخلت وشوكار وراءها وقد أدركت قلقها ، وشعرت أنها تريد الخلوة هناك ، فتراجعت شوكار عند الباب وقالت : « أستأذن فى الانصراف ياسيدتى »

قالت شجرة الدر : « الى أين ؟ »

قالت شوكار : « الى حيث تأمرين .. وانما أخشى أن يكون فى وجودى هنا ائقال عليك .. »

فأشارت اليها أن تدخل وقالت : « تعالى يا شوكار لا ينبغى أن أخفى عنك شيئاً »

فدخلت وجلست شجرة الدر على سرير من الذهب فى صدر الايوان ، كان يجلس عليه الملك الصالح .. وأشارت الى شوكار فجلست على كرسى مذهب بين يديها وقد أضىء الايوان بالشموع ، وظهرت نقوشه الجميلة .. وتأملت شوكار سيدتها وهى جالسة على سرير الملك وضحكت ، فلاحظت ضحكها ، فقالت لها : « ما بالك تضحكين يا شوكار ؟ .. »

(١) السيوطى ٢٦٩ الجزء الثانى

قالت شوكار : « انى مسرورة ياسيدتى من جلوسك .. وقد استبشرت فيه خيرا .. ان هذا المجلس لائق بك .. »  
 فخفق قلب شجرة الدر لهذه البشرى لأنها من طلاب السيادة وهى أهل لها ، لكنها أنكرت ذلك على شوكار .. وأظهرت انها تستبعد هذا الأمر لأنها ليست أهلا له ، وشغلت نفسها باستدعاء قيم تلك الدار .. فلما حضر أمرته أن يذهب الى المرفأ ، واذا جاء أحد برسالة فليات بها اليها فى ذلك الايوان وجلست وهى تتظاهر بانجلد .. لكنها كانت على مثل الجمر من شدة القلق . وكانت شوكار جالسة بين يديها تشاغلها بالحديث عما فى تلك القاعة من التحف ، وما أنفقه الملك الصالح فى تلك الأبنية . وهى تظهر الاهتمام بالموضوع وتقص عليها ما رآته من اهتمام الملك الصالح باتقان ذلك البناء وبينما هما فى ذلك اذ سمعت شجرة الدر صوت نغير بعيد ، فعلمت انه علامة وصول السفينة الى المرفأ ، فخفق قلبها ولبثت فى الانتظار . وقد لاحظت شوكار قلقها ولكنها تجاهلت .. ولم يمض وقت طويل حتى جاء الغلام يقول : « ان الأمير ركن الدين بيبرس بالباب .. » ..

فقالت شجرة الدر : « فليدخل .. »

فدخل شاب طويل القامة قد تزمّل بعباءة تغطيه كله ، ثم نزع العباءة .. وقد كان شابا جميل الخلق ، صبح الوجه ، عليه هبة الشيوخ ونضارة الشباب .. لم يتجاوز عمره يومئذ ٢٣

سنة ، وعليه الدروع والخوذة كأنه فى ساحة الحرب وهو قادم من هناك .. فلما دخل حيا شجرة الدر تحية لم تحيا بمثلها من قبل .. ففهمت شيئا ، لكنها تجاهلت وقالت : « ما وراءك يا ركن الدين ؟ .. »

فالتفت يمينا وشمالا كأنه يحاذر أن يسمعه أحد . فأدركت انه يحمل خيرا سرىا لا ينبغي أن يصرح به جهارا .. فأشارت الى الخدم بالخروج واحتفظت بشوكار وأشارت اليه أن يتقدم نحوها فتقدم فقالت : « ما وراءك أيها الشاب الأمير ؟ .. قل ولا بأس من وجود عزيزتى شوكار ، بل لابد من وجودها وهى طالما أعجبت بشهامتك .. قل ما وراءك ؟ »

فاستغربت شوكار ما روته شجرة الدر عنها ، وانها معجبة بركن الدين ، ولم تجد باعثا على ذلك فى تلك الساعة فسكتت واتجهت بكليتها لسماع ما يقوله ركن الدين .. أما هو ، فلما سمع قول شجرة الدر عن اعجاب شوكار به التفت اليها فوجدها فى غاية الجمال والल्प ، وفى عينيها معنى جمع بين الحدة والذكاء والسحر . وكان يسمع برخامة صوتها لأن ذلك كان شائعا فى القصر . لكنه توجه نحو شجرة الدر وقال : « ان ورائى أمرا ذا بال ، وخبرا هاما لا أدرى اذا كان يسر مولاتى أو يسوءها .. »

فأجفلت ونظرت فى عينيه باهتمام ، وقالت : « قل ما هو .. ولا يهملك اذا ساءنى ، أو سرنى ، فانى لا أتوقع من هذه الدنيا

« سلامة .. »

فقال ركن الدين : « ان الملك المعظم طوران شاه ابن مولانا الملك الصالح قد لقي حتفه في هذا الصباح .. وبعثنى مولاي الأمير عز الدين ابيك لأنتقل هذا الخبر اليك ريثما يصل هو الى هنا في صباح الغد ، ولم يشأ أن يرسله مع الطائر مبالغة في الكتمان .. لكنه دفع الى هذه البطاقة الصغيرة مختومة ، وأمرني أن أدفعها اليك يدا بيد » . قال ذلك ، وأخرج من جيبه بطاقة دفعها اليها ..

فلما سمعت بموت طوران شاه ، ظهرت الدهشة في عينيها .. لكنها تجلدت وتناولت البطاقة وفضتها واقتربت من المصباح وقرأتها فاذا فيها : « الى انجھة الصالحيه والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . أما بعد : فاني مسرع في ارسال البشارة بذهاب ذلك الشاب المغرور الى حال سبيله بطريقة يقصها عليك الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى حامل هذه البطاقة اليك . وكان لهذا الأمير النصيب الأكبر من العمل في هذا السبيل ، وهو يستحق تقديرك .. وعندى خبر آخر سأتلوه عليك في الغد شفاها ان شاء الله »

قرأت البطاقة لنفسها ، وعادت الى مخاطبة ركن الدين كأنها لم تقرأ شيئاً ، فقالت : « هل أنت على ثقة من قتل الملك المعظم ؟ »  
قال ركن الدين : « نعم ياسيدتى .. انه قتل .. »  
قالت شجرة الدر : « هل قتل سرا ؟ .. »



قال ركن الدين : « كلا ياسيدتى .. انه قتل جهرا .. »  
 قالت شجرة الدر : « ومن قتله ؟ .. »

قال ركن الدين : « نحن قتلناه لأنه لم يترك للصلح مكانا ،  
 وقد بالغ في الطيش والهوج وكرر مغاضبتنا وأسمعنا الاهانة ..  
 ولم يعجبه المماليك البحرية ممالك أبيه الملك الصالح .. وكلما  
 ذكروا أمامه استخف بهم .. مع انهم أصحاب السيف ، حماة هذه  
 الدولة .. وهم الذين ردوا الافرنج عن هذه البلاد . وقد صور  
 له طيشه انه الفاعل لما يريد ، وانا حشرات لا يعتد بنا ، حتى بلغنا  
 انه كان يصف الشموع ، ويأخذ رءوسها بالسيف وهو يقول :  
 انه هكذا سيفعل بنا .. وقد صبرنا على ذلك حتى بلغنا ان هذا  
 لايرضى مولاتنا أم ولد الملك الصالح - رحمه الله - فأضمرنا له  
 السوء ، فلما كان صباح اليوم باكرا جلس في موكبه من الأمراء ،  
 والأكراد أصحابه بين يديه ، ورءوس النواب واقفون أمامه بعضى  
 كسيت بالذهب ، كأنه يقول لنا انى سلطانكم رغم أنفكم ..  
 فصبرنا عليه حتى مضى الموكب وحضر السباط فجلس عليه  
 كجارى العادة ، فتقدم اليه جماعة منا بأيديهم السيوف ضربوه  
 على أصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخل البرج الخشبي وأغلق  
 عليه بابه ، فأطلقنا النار على البرج فخرج منه وألقى نفسه في البحر  
 وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية ، وهو يقول :  
 « خذوا ملككم ودعوني أرجع الى حصن كيفا » . فلم يغثه أحد .  
 وما زال على ذلك حتى قتل .. فكأنه مات حريقا غريبا قتيلا ،

فأخرجناه من البحر وتركناه على الشاطئ ، وسيبقى هكذا حتى لا يُعرف له قبر .. »

- ٦ -

### طارق قلبى

وكان ركن الدين يقص خبره باهتمام ، وشجرة الدر مصغية لا تبدى حراكا ، لكن الاهتمام باد فى عينيها ، فلما فرغ من كلامه قالت : « مات طوران شاه - رحمه الله - انه أخطأ فى تصرفه ، ولم يحسن سياسة الملك الذى أعطيناه اياه .. وكل من لا يسوس الملك يخلعه » ثم نظرت الى ركن الدين وقالت : « وهل عندك خبر آخر غير هذا ؟ .. »

قال ركن الدين : « عندى خبر سيتلوه عليك مولاي الأمير عز الدين ايبك فى صباح الغد .. »

قالت شجرة الدر : « لعله خبر هام ؟ .. »

قال ركن الدين : « أظنه كذلك .. » وابتسم

فأدركت شيئا من مراده ، لكنها حولت الحديث وقالت : « لم تخبرنى عن القواد الأبطال الذين فتكوا بالملك المعظم هذا ، هل أنت منهم ؟ .. »

قال ركن الدين : « نعم .. انى أحقرهم .. وقد فعلت ذلك

بأمر مولاي الأمير عز الدين .. »

فأعجبها تواضعه واحتشامه ، فقالت : « أراك تتنصل كأنك

تعد هذا العمل عارا .. انه عمل يحق لك الاقتخار به ، وقد أنقذت البلاد من الخراب لأن هذا الرجل لم يكن أهلا للسلطة ، ولو طال بقاؤه في هذا المنصب لجر علينا الدمار .. فلا تخف ، وقد أنبأني عز الدين ببلائك . وأنا طالما توسمت فيك البسالة والاقدام وسيكون لك شأن عظيم . فاذا صدق توسمى فيك أهديتك أثمن ما عندي..» قالت ذلك ونظرت الى شوكار وضحكت فأدركت شوكار غرضها فغلب عليها الحياء ، لأنها لم يخطر ببالها حب أحد . وقد كفاها من نعم المولى أن تكون حائزة على رضى سيدتها شجرة الدر . فلما سمعت تلميحها تصاعد الدم الى وجنتيها وأطرقت .. وودت لو انها بالنقاب لتغطي وجهها ، لكنها لم تكن تستعمل النقاب بين يدي الأمراء ..

أما ركن الدين يببرس فأعجبه اطراء شجرة الدر شجاعته . وكان يسمع بجاذبية شوكار ولطفها وجمال صوتها ، ولم يكن يتوقع أن تكون يوما من نصيبه .. لكنه رأى شجرة الدر تشتترط عليه للظفر بها أن يصدق توسمها فيه ، فلم يدر بماذا يجيب .. فقال أخيرا : « أشكر لمولاتي حسن ظنهن بعهدها ، وأرجو أن أكون أهلا لثقتها . وعلى كل حال انى رهين اشارتها بما تأمرنى به فأفديها بروحى »

ففرحت شجرة الدر بهذا التصريح لأنها انما أرادت أن يكون طوع ارادتها لتستخدمه في أغراضها ، لما تحققته فيه من البسالة ورباطة الجأش ..

ولما سمعت شوكار موافقة ركن الدين على تلك الصورة أحست بشيء لم تحس بمثله من قبل .. وظهر التأثير في عينيها ، وخفق قلبها خفقانا لم تعرفه من قبل.. لكنها أطرقت وظلت ساكنة وأما شجرة الدر فقد سرها ما وفقت اليه من مقتل الملك المعظم ، وهي التي كانت أمرت المماليك أن يقتلوه ، ولولا ذلك لم يجسروا على قتله . وقد أغراهم على ذلك عز الدين ايبك حبيبا ، وهو كبير قواد المماليك . وكان لركن الدين بيبرس اليد الطولى في هذا العمل ، وكانت قد سمعت من عز الدين عن بسالته وتفانيه في طاعته وطاعة شجرة الدر .. فأرادت أن تستزيده من طاعتها فوعده بشوكار . فلما لاحظت تعلق آماله بها تحركت في مجلسها كأنها أرادت استئناف الحديث فقالت :

« ومتى يصل البنا الأمير عز الدين ؟ .. »

قال ركن الدين : « أظنه يصل في صباح الغد ، وسيأتى معه سائر الأمراء والعسكر ، وسيحدث تغيير عظيم في أمور الدولة . وقد حفظ الأمير عز الدين حق هذه البشارة لنفسه ، وحرمنى منه .. وهو أهل لذلك ، فهو كبيرنا ومولانا »

فضحكت شجرة الدر وهي تنهض عن السرير ، وقالت : « أظنك نلت جائزة حسنة .. وانما أرجو أن تحقق ظنى فيك يا ركن الدين » ..

فأدرك انها تصرفه ، فتحول وهو يلتفت الى شوكار لفتة الوداع وهي لا ترفع بصرها اليه .. لكنها رأته ورآها وتفاهمت

العيون وتناجى القلبان .. وما أسرع تناجيهما اذا توافقت الطباع  
 خرج ركن الدين وقد شغله ذلك الوعد عن دهشة الخير  
 الذى حمله من فارسكور الى القاهرة ، وما يرجى أن يحدث  
 من التغيير فى أمور الدولة بسببه .. وسار توا الى برج من أبراج  
 القلعة كان يقيم فيه مع بعض المماليك من رفاقه

— V —

عز الدين ايبك

أما شجرة الدر ، فانها حين توارى ركن الدين مشت نحو  
 شوكار ، وهى تجر مطرفها وراءها ، فنهضت لها احتراماً وأطرقت  
 امتناناً وهى لا تدرى .. هل أحسنت اليها بذلك الوعد ، أم  
 أساءت ؟ .. ولم تستقر أفكارها لتحكم فى الأمر ، فابتدرتها  
 شجرة الدر قائلة : « أرجو أن تكونى مسرورة من هذا النصيب  
 يا شوكار .. »

فرفعت بصرها والخجل يغشاه ، فرأت شجرة الدر تنظر اليها  
 نظر المداعب فأجابتها : « يظهر ان سيدتى شجرة الدر ملت  
 رفقتى فأرادت التخلص منى .. » وضحكت ..

قالت : « لا.. لكننى نظرت الى مستقبلك البعيد ، فمن كانت  
 فى مثل ما أنت فيه من الجمال والعلم ورخامة الصوت يجب أن  
 تنال نصيباً حسناً . وأنا على ثقة من ان هذا الشاب الباسل من  
 خيرة الشبان وله مستقبل مجيد . فاذا أخطأ ظنى فيه ولم يكن

الرجل الذى أرضاه لك لا أزوجك به . لا تخافى فانى شديدة الغيرة على مصلحتك لأنك بمنزلة ابنتى كما تعلمين .. والآن ينبغي لنا أن تتهياً للذهاب الى الفراش ، فقد تعبنا .. » ..

فقال شوكار: « ولكن التعب جاء بنتيجة ترضيها ياسيدتى . ان الرجل الذى كنا نشكو منه قد مضى لسبيله ، وعادت الأمور الى مجاريها .. فمن ياترى سيتولى هذه السلطنة ؟ .. أرجو أن لا يعودوا الى بيت أيوب مرة أخرى ، ان هؤلاء قد مضت أيامهم .. ولكل أيام دولة ورجال .. »

فأظهرت شجرة الدر انها خالية الذهن من أمر المستقبل . وانها تتوقع أن تعرف الحقيقة فى الغد البعيد بعد مجيء عز الدين . فأكبت شوكار على يد شجرة الدر فقبلتها للوداع ، فقبلت شجرة الدر رأسها ..

ولما خلت شجرة الدر بنفسها انصرفت من باب سرى فى الايوان الى قصرها وقد توسط الليل . فلما صارت فى غرفتها كان الخصيان قد أناروها وهى فى أجمل ما تكون من الرياش ، وعلى جدرانها ستائر الديباج عليها الأبيات من الشعر ، أو الصور والنقوش بأزهى الألوان . فما أن دخلت غرفتها حتى استلقت على سريرها واستغرقت فى هواجسها وجعلت تناجى نفسها قائلة : « قتلوا طوران شاه لا أقامه الله .. وقد قتل بسعى عز الدين حبيبي » ولما ذكرت اسمه تهتدت وقالت : « هو حبيبي لكنه شرير ، لا أظنه أميناً فى محبته .. وهؤلاء الرجال لا يؤمن

جانبهم من هذا القبيل . ما لى وله ، فليكن كما يشاء . ألم  
يخدمنى فى هذا الأمر . ليس بعد قتل طوران شاه الا أن يعود  
الملك الى يدى . هكذا وعدنى عز الدين ، فهل بر بوعدہ ؟ ..  
يظهر انه فعل .. فاذا صرت ملكة فأنا أول ملكة فى الاسلام ،  
وسأكافئ عز الدين خيرا لأنه أخلص الخدمة فى مصلحتى .. «  
قضت هزيعا من الليل فى مثل هذه الهواجس .. ولما نامت  
حلمت انها تولت الملك وقبضت على صولجانه ، لفرط رغبتها فى  
هذا المنصب مهما كلفها الوصول اليه .. فقد كانت من طلاب  
السيادة بأية وسيلة كانت ، وقد مر ذلك فى خاطرها منذ ولدت  
للصالح ابنها خليلا لعلمها انه سيكون وسيلة الى مطامعها ، أو  
يكون هو السلطان ، وهى الوصية عليه ، ولكنه توفى طفلا ..  
وفى صباح اليوم التالى ، جاءتها الجارية الموكلة بالاشراف  
على غرفتها ، وقالت : « ان الأمير عز الدين ايبك ينتظرك فى  
الايوان ياسيدتى .. »

فنهضت وأصلحت من شأنها ، وبذلت جهدها فى ذلك كى  
تظهر بين يدى حبيبها فى أجمل مظهر .. وهذه طبيعة فى النساء  
على الاجمال ، فكيف فيمن تعلق على ذلك الحب غرضا سياسيا  
مهما ؟ .. لبست ثوبا مخططا معتم اللون ، وضفرت شعرها  
ضفائر قليلة أرسلت منها اثنتين الى جانبى وجهها ، وغطت رأسها  
بقبعة مرصعة بحجارة كريمة فوق الجبين ، ولها ذيل مزركش  
يغطى العنق من الخلف حتى يسترسل الى الظهر . وقد تقلدت

عقدين : أحدهما من الثؤلؤ ، والآخر من العقيق وغيره .  
 وتمنقت بمنطقة مشبكها من الذهب المرصع .. وبرغم أنها على  
 أبواب الكهولة ، فقد كانت نضارة الشباب لا تزال تتلألأ في  
 محياها ، ولا تزال عيناها ترسلان اشعاعات الهيبة والقوة الى  
 قلوب الناظرين ، وليست اشعاعات اللطف والوداعة كما في  
 عيني شوكار ..

وكان عز الدين اييك يشعر بقوة تلك المرأة وسيطرتها على  
 قلبه ويحبها حب الهيبة والاحترام ، لا حب عطف وتلهف . وزاده  
 رغبة قيها ما كان يعلمه من منزلتها عند الملك الصالح ، وتقدمها  
 في داره ونفوذها عليه ، فتودد اليها .. وهي قد أحبته مثل حبه  
 لها ، ووافق ذلك مصلحتها لأنها مع مطامعها الواسعة لا حول لها  
 وهي امرأة ، فلا تطمع في قيادة جند تستعين بهم في تحقيق  
 أغراضها ، فرأت في ارتقاء عز الدين الى منصب كبير أمراء  
 المماليك فائدة لها فأعاتته على الظفر بذلك المنصب في عهد الملك  
 الصالح .. فلم ينس هذا الجميل لها . ولما سنحت فرصة أخرى  
 يخدمها فيها بقتل طوران شاه ، قام بتدبير ذلك لمصلحته أيضا ..

فلما أتم عمله بالأمس ، بعث مع ركن الدين بجانب من الخيرة  
 واحتفظ ببقيته لنفسه ليتلذذ بسماع الاطراء والاعجاب بدعائه  
 وبسالته . ولكي يفتمم الفرصة للاجتزاء من الغنيمة لنفسه .  
 وجاء في ذلك الصباح على جواده مع جماعة من حاشيته وقواده .



ولم يرتح الا قليلا ، ثم جاء الى الايوان .. وبعث الى شجرة الدر لتوافيه الى هناك ..

- ٨ -

### الخبر السار

ولم تمض برهة حتى جاء الخصى بخبر قدومها ، فوقف لها عز الدين . ولما أقبلت أكب على يديها كأنه يقبلهما .. فأجفلت وتراجعت ، فأشار اليها أن تجلس على السرير ، وجلس هو بين يديها .. وأمرت الخدم بالخروج ، فلما خلت به قالت : « أهلا بك يا عز الدين .. قد بلغنا بلاؤك في انقاذ البلاد من ذلك الغلام ، جزاك الله خيرا .. انها خدمة في مصلحة المسلمين »

قال عز الدين : « انما فعلت ذلك في خدمة سيدتى وحييتى شجرة الدر وطوعا لأمرها » قال ذلك بلهفة المحب الولهان فأثر كلامه في خاطرها وهى تحبه ، فهاجت أشجانها ، فقالت : « انى أقدر لك هذا الجميل يا عز الدين .. وليست هذه هى المرة الأولى التى برهنت فيها على صدق مودتك ، فأنا أسيرة ودك » ..

قال عز الدين : « يكفينى منك لفتة رضى ياسيدتى ، ولاسيما الآن بعد أن صرت ملكة المسلمين »

فتظاهرت بالدهشة ، وقالت : « ملكة المسلمين؟ ماذا تقول؟ »  
قال عز الدين : « انت الآن ملكتى والقابضة على قلبى وستصبحين غدا ملكة المسلمين وعصمة الدنيا والدين ... »

قالت شجرة الدر : « وكيف ذلك ؟ أفصح .. »  
قال عز الدين : « حينما قتل الملك المعظم أمس اجتمع الأمراء ،  
ودار الحديث على من يتولى السلطة بعده . واختلفت الآراء  
فقلت لهم : « اننا لا نحب أن نستقدم أحدا من آل أيوب ، وقد  
رأينا مصيرنا معهم ، وشدد آخرون بأنه يجب أن يكون السلطان  
من البيت الأيوبي ، فقلت لهم : تتخذ طريقا وسطا .. نحن انما  
نحترم من الأيوبيين مولانا الملك الصالح - رحمه الله - ولا  
نأمن أحدا من أهله .. وهذه أم ولده خليل كانت أعز الناس عليه  
وهي عاقلة مدبرة ومن أبناء جلدتنا ، تغار علينا ، فأرى أن نوليها  
هذا المنصب . فرضى القوم بذلك واتفق رأيهم أن تكونى ملكة  
على مصر .. ألا يحق لى أن أقبل يدك وأطلب رضاك ؟ » ..

قالت شجرة الدر : « معاذ الله .. استغفر الله .. انك جيبي  
وصاحب الفضل على لائى لولاك لم أحصل على هذا المنصب .  
فاذا تم لى الملك فأنت صاحب النفوذ الأول فيه .. فأدعوك مدبر  
المملكة ، ومن هو أولى به منك ؟ .. »

فانشرح صدر عز الدين لهذا الوعد ، وهو ما كان يتمناه كى  
يتدرج منه الى ما هو أعظم .. فأظهر الامتنان ، وانه لا يستحق  
هذا التقدير ونحو ذلك من أسباب المجاملة  
أما هى فانها عرفت لصديقها فضله ، وأخذت تشنى على علو  
همته وغيرته ، وانها لا تثق الا به وقالت له : « انى لا أستغنى  
عك فى تدبير شئون المملكة »

فقال عز الدين : « انت في غنى عن تدييري ، لكننى طوع  
رادتك فيما تأمرين »

وقضيا ساعة في الحديث ، وكل منهما قد طار قلبه فرحا بما  
ناله ، ثم قالت : « ومن الحكمة أن نوزع المناصب على أصحابنا  
الذين معنا من الجند لتأييد هذه الدولة .. فماذا ترى ؟ »

قال عز الدين : « قد دبرت كل شيء ولا يخفى على حبيبتى  
شجرة الدر أن جندنا مؤلف من أتراك ، وجركس ، وروم ،  
وأكراد ، وتركمان ، وأكثرهم من المماليك المتباعين . وانما يهمننا  
نحن أن تقوى الاتراك لأنهم جندنا الأصليون فتقدمهم في مناصب  
الدولة وهم كما تعلمين طبقات من حيث المناصب ، وفيهم أمراء  
المئين وأمراء الألوف ، وكلهم من الفرسان الأشداء وهم عضد  
الجند وقوته .. فنوزع هذه الوظائف على كبار الأمراء الذين  
أخذوا بناصرنا في هذا العمل ، ومناصب الدولة غير العسكرية  
عديدة ، أعظمها أمير السلاح وهو الذى يتولى حمل السلاح  
للسلطان فى المجمع الجامعة . والدوادار الذى يبلغ الرسائل عن  
السلطان ويقدم القصص اليه ، ويتلو على من يحضر الى الباب ،  
ويقدم البريد ان حضر ، ويأخذ خط السلطان على عموم  
المشورات والتوقيعات والكتب . والحاجب يقف بين الأمراء  
والجند . وأمير جاندار وهو يسلم الزردخانه ومن أراد السلطان  
قتله كان على يده .. والأستاذار واليه أمر بيوت السلطان كلها

وغير ذلك من المناصب (١) فما الذى ترينه من أمر هذه المناصب ولا بد من ارضاء الجند بالعطايا «

قالت شجرة الدر : « انى تاركة أمر ذلك كله اليك لأنك ستكون مدبر المملكة ، فتولى هذه المناصب من تثق بهم من رجالك والذين تعتقد فيهم الاخلاص لنا . لكننى أطلب أمرا واحدا وهو أن تنظر فى أمر ركن الدين بيبرس الشاب الذى الذى بعثت رسالتك معه .. انه من خيرة الأمراء ، فوكله منصبا بحيث يكون قريبا منا .. »

فلما سمع اطراءها أحس بالغيرة ، وبرغم ثقته بركن الدين حدثته غيرته أن يطعن فيه — هى الغيرة تعمى وتصم — ولكنه رجع الى صوابه ودهائه وقال : « ان ركن الدين من خيرة الأمراء .. صدقت ، وأرى أن توليه الدوادارية .. وبذلك يكون قريبا منا » ..

وأحست شجرة الدر بغيرة عز الدين — والمرأة أرق شعورا من الرجل — لكنها تجاهلت وأغضت لأنها لم يكن لها مطمع فى حب أحد ، وانما هى تحب العلى وتهوى السلطة وتبذل كل شيء فى سبيلها ثم قالت : « ومتى يأتى الأمراء من المنصورة ؟ .. » قال عز الدين : « أظنهم يكونون هنا غدا ليحتفلوا بتولية شجرة الدر ملكة على هذه الديار .. ما أجمل هذا الاسم فى فمى ؟ وما أظف وقعه على قلبى ؟ فهل لاسمى شيء من ذلك فى

قلبها ؟ » قال ذلك ونظر اليها نظرة عتاب ودلال  
فنظرت اليه وقد أدركت مراده ، وقالت : « سترى ثقتى  
وحبى ، وستعلم مركزك بالفعل لا بالكلام .. أراك تلمح وتستطلع  
كأنك تشك فى صدق مودتى ؟ .. سامحك الله يا عز الدين .. »  
وظهر العتاب فى عينيها

فاعتقد بصدق قولها ، وقال : « معاذ الله ياسيدتى .. »  
فابتدرته قائلة : « لا تقل سيدتى .. انت حبيبى .. انت  
سندى .. انت موضع ثقتى ، وعليك اعتمادى .. كن واثقا من  
ذلك .. »

قال عز الدين : « انى واثق منه .. ولكن المحب كذ .. »  
فقطعت قوله وقالت : « دعنا من ذلك فانه مفهوم بيننا ، وهلم  
الى تديير شئوننا .. انى أسمع لغطا فى الدار .. »

— ٩ —

وفد الأمراء

فأسرع عز الدين وهو يقول : « أظن ان الأمراء قد وصلوا  
من المنصورة .. ولعلمهم يطلبون السلام عليك .. »  
قالت شجرة الدر : « هل ترى أن أستقبلهم ؟ » قالت ذلك  
مبالغة فى اكتساب قلبه ..

قال عز الدين : « لا أرى بأسا من استقبالهم اذا طلبوا ذلك  
لأنهم أصحاب فضل فى هذا الأمر ، وقد رأيت منهم ادعانا سريعا

حين اقترحت أن تصير السلطنة اليك . ولكن .. طبعا سترسلين  
الستار بينك وبينهم ، ولاسيما الآن وأنت ملكة المسلمين .. «  
فنظرت اليه بطرف عينها وهي تبتمسم ، وقالت : « ان عز الدين  
غيور ، وقد سرنى ذلك لأن الغيرة دليل المحبة .. على انى لم  
أكن أحتاج الى تنبيه ، وأنت تعلم انى لا أقابل أحدا مثلما  
أقابلك » . قالت ذلك وأشارت الى الخصى الواقف فى خدمتها  
أن ينزل الستار .. ولم يكد يفعل ذلك حتى جاء الحاجب يقول :  
« إن كبار أمراء الجند يلتمسون التشرف بمقابلة السيدة الجليلة »  
وذكر الحاجب أسماء الأمراء : بلباى ، الرشيدى ، وفارس الدين  
اقتاى ، ويبيرس الدين البندقدارى ، وسنقر الرومى  
فقال عز الدين بالنيابة عنها : « فليدخلوا »

واستقبلهم عز الدين بلطف ، فألقوا التحية وتكلم الفارس  
اقتاى عنهم قائلا : « ان الأمراء قادمون للقيام بواجب العزاء  
الى السيدة أم خليل على القضاء الذى نزل بطوران شاه ،  
ولابلاغها ان اختيارهم وقع عليها لتتولى أمور المسلمين ، فعسى  
أن يقع ذلك لديها موقع الرضى »

فأجاب عز الدين عنها قائلا : « ان مولاتنا السيدة الجليلة قد  
بلغها ما أتتموه أيها الأمراء - فى سبيل مصلحة الدولة - من  
الشجاعة والبسالة .. وقد وقع القضاء على ذلك الملك ، وأسفت  
لما أصابه ، لكنه جنى على نفسه .. رحمه الله »

فقال الأمير سنقر الرومى : « انه ألجانا الى ما قمنا به رغم

ارادتنا .. لأنه لم يكن يرى لنا يدا في شئون الدولة . وما لنا وله .. ان مولاتنا زوج ملكنا المرحوم الملك الصالح أولى الناس بهذا الأمر » ..

فأجابتهم من وراء الستار : « انى شاكرة مروءتكم وحسن ظنكم ، ولا يسعنى الا الموافقة لما تم اتفاقكم عليه ، وأتم نخبة الأمراء أصحاب السيوف . وانما أقبل هذا المنصب اعتمادا عليكم وثقة بكم لأنى لا أستطيع عملا ان لم تأخذوا بيدي .. »  
فصاحوا بصوت واحد : « نحن طوع أمر مولاتنا نقديها بأنفسنا ، وغدا نحفل بتوليتها فى القلعة ان شاء الله »

ثم تحولوا للخروج ، فرافقهم عز الدين وهو يقول لهم : « ان مولاتنا شجرة الدر كانت تحدثنى قبل وصولكم عن امتثالها لبعالتكم .. وقد أعدت الهدايا للأمراء والرجال ، وقالت لى : انها انما ترضى بالسلطنة لأنكم اخترتموها لها .. »

فاعتقدوا صدقه وسرهم ما سينالونه من الهدايا .. وهى العطايا يعطيها السلطان عند توليته . وقد عزمت شجرة الدر على أن تجعلها كبيرة لعلمها بما يعترض سلطنتها من العقبات ، لأنها أول امرأة تولت ذلك فى الاسلام

وخرج عز الدين لوداعهم وهو يثنى على اخلاصهم ، ويمنيهم بالأمانى الطيبة .. ثم عاد الى شجرة الدر ولفيت اتبائها الى الهدايا وأن تجعلها كبيرة ، وافترقا على أن يهيئوا الاحتفال ..

- ١٠ -

### سلافة وسحبان

ولم تطلع شمس ذلك النهار حتى علم أهل جزيرة الروضة بما نالته شجرة الدر ، وانها أصبحت سلطنة مصر . وقع الخبر موقع الاستغراب عند كثيرين ، وموقع الغيرة والحسد عند زميلاتها جوارى الملك الصالح - وكل ذى نعمة محسود - وأشدهن غيرة جارية كردية الأصل اسمها سلافة ، كانت تفاخر سائر الجوارى بأنها من قبيلة الملك الصالح ، وكان هو يقربها حتى جعلها قيّمة قصره .. لكنها لم تلد منه كما ولدت شجرة الدر ، فأصبحت هذه أقرب جواريه اليه . وكانت سلافة بارعة الجمال ، لكنها قليلة الدهاء ، شديدة الغيرة ، سريعة النقمة

وكانت مشهورة بجمالها الفتان ، يتحدث أهل الروضة والقاهرة بحسنها ، وان لم يرها منهم الا القليلون . ومن جملة الذين أتيح لهم رؤيتها تاجر بغدادى اسمه سحبان ، كان يتردد على مصر ومعه الأقمشة الفارسية ، والهندية .. وكان الملك الصالح يدعوه اليه ويتاع منه ما يختاره لنسائه من الأقمشة الجميلة ، ويوصيه بما يحتاج اليه من مصنوعات العراق ، وفارس ، وغيرها من الآلية ونحوها .. فاتفق له وهو يعرض عليه بعض أقمشة النساء ، ان كانت سلافة حاضرة لتختار نوعا منها .. فما أن وقع عليها بصره حتى أخذت بمجامع قلبه ، لكنه



تجلد وتهيب . وشعرت هي بما جال في خاطره وتجاهلت .. ولكنه أصبح بعد تلك المقابلة يفتنم الفرص للتعبير عما يكنه من الحب لها بهدايا ثمينة من بعض المصنوعات يبعث بها اليها مع بعض الاخصيان ، دون تعليق أو اشارة .. فيظهر ذلك منه مظهر الاكرام للملك الصالح لأنها قيمة داره ورئيسة جواريه

فلما توفي الملك الصالح ، ضعف شأن جواريه .. فتوسم سبحانه بابا للنظر الى سلافة ، نظر المحب الطامع في القرب .. فاختال يوما - بسلع حملها الى القصر كمادته ، فلقية أستاذ الدار وتساوما .. ولم تنهيا له الفرصة لمشاهدة سلافة ولا مخاطبتها .. وقد علمت هي بمجيئه وتجاهلت ، وفي خاطرها أن تراه ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى ذلك ولا حاجة لها اليه لأنها لم تشعر يالميل نحوه ..

فلما علمت بما صارت اليه شجرة الدر في ذلك اليوم ، وانهم سيختلفون بتوليها العرش في الغد ، وستصير ملكة .. وهي تعلم ان ذلك انما حدث بسعى عز الدين ايبك - ولم تكن تخفى على سلافة علاقته الودية بشجرة الدر - هبت نيران الغيرة في قلبها وأصبحت تتقلب وتتعذب كأنها على الجمر . ولم تعد تعلم ماذا تعمل لايقاع الأذى بشجرة الدر .. لا لسبب آخر غير الغيرة .. ولو كان في الاضرار بها نفع لسلافة لكان خيرا .. لكنها غدت تسعى الى ايذائها ولو لم يكن لها من وراء ذلك نفع . وانما لذتها أن ترى تلك النعمة قد زالت عنها .. ذلك هو داء الحسد

العضال . وبين أصحابه من يفضل أن يتعرض هو نفسه للأذى الذى ينوى إيقاعه بمحسوده ، على أن لا يراه رافلا فى نعمته .. ضاقت سلافة ذرعا من التفكير وهى جالسة فى غرفتها ، فأرادت أن تتشاغل ببعض الشئون .. فتنقبت والتنقت بملاءة من الحرير، وخرجت من قصر النساء من دهليز يؤدى الى حديقة تابعة لذلك القصر ، فيها الأشجار ، والأنجم ، والرياحين ، والأزهار .. وكان قد تعود الملك الصالح أن يجلس فيها صباحا وبينما هى هناك جاءها أحد خصيان القصر مسرعا يعدو وهو يقول : « ان الشيخ سحبان جاء بأقمشة جديدة .. »

فلما سمعت اسمه أجنفت ، لكنها أحست بانفراج كربها قبل أن تفكر كيف يتأتى ذلك .. وهو تنبؤ نسائى مبنى على مجرد الشعور بلا برهان .. وقد يصحبه البرهان ، لكنه يأتى بعده — أى ان المرأة تأتيتها الفكرة أولا ثم تفكر فى برهانها — فالتفتت سلافة الى الغلام وقالت : « أين هو ؟ .. »

قال الغلام : « هو فى فناء القصر ، وقد ذكرك على الخصوص وقال : « ان بين أقمشته أشياء تسرك » .. »

فقالت سلافة : « لا أرى أن أعود الآن الى هناك .. دعه يدخل الى هذه الحديقة من بابها الخارجى لأرى بضاعته » قالت ذلك وأصلحت من شأنها وتنقبت بطرف الملاءة ، وأصبح قلبها يخفق ولم تكن تشعر بشئ من ذلك فى مقابلاته السابقة وبعد برهة دخل الغلام من باب الحديقة المشار اليه وهو

يقول: « هذا الشيخ سحبان ياسيدتى » ورجع  
 وكانت جالسة على مقعد بين الأزهار وعيناها شائعتان ،  
 فالتفت نحو الباب .. فرأت الشيخ سحبان كما كانت تراه من  
 قبل بقلنسوته الفارسية ، وجبته السوداء ، ولحيته القصيرة  
 الخفيفة ، وعينيه البراقتين .. لكنها تفرست فيه هذه المرة ، فرأت  
 في وجهه معنى لم تلاحظه من قبل .. فلما دخل ألقى التحية فردت  
 عليه السلام.. وأشارت إليه أن يتقدم ، وقالت : «أين الأقمشة؟»  
 فتقدم وقال : « انها لا تزال في القصر مع الجمّال ، فاذا  
 أذنت باحضارها الى هنا فعلت .. »

قالت سلافة : « لا بأس ، دعها الآن هناك .. تفضل اجلس »  
 وأشارت الى حجر منحوت كالكرسى .. فجلس عليه وهو يصلح  
 قلنسوته ، فقالت له : « لم يكن من عادتك اذا جئت بأقمشة أو  
 نحوها أن تطلب سلافة باسمها .. »

قال سحبان : « وهل ساءك ذلك ياسيدتى ؟ »  
 قالت سلافة : « كلا .. لكننى لم أفهم السبب لتغيير عادتك  
 معى .. »

قال سحبان وهو يحك أنفه : « غيرت عادتى تمشياً مع  
 التغييرات الكثيرة التى اتت أهل هذا القصر فى هذا العام »

## - ١١ -

التشاكى

فتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت البغته فى عينيها ، وتذكرت  
ما هى فيه ..

قالت سلافة : « صدقت ياسحبان .. ان التغيير كثير .. رحم  
الله الملك الصالح ، فقد كان ذخرا لهذه الدولة ، فلما مضى  
اضطربت أحوالها » وظهرت فى مآقيها دموع أوشكت أن  
تساقط ..

قال سحبان : « نعم .. رحمه الله ، ولكن ما العمل ؟.. هذا  
قضاء مبرم ياسيدتى .. والدنيا دول »  
قالت سلافة : « هل علمت ماذا جرى ؟ »  
قال سحبان : « اذا كنت تعنين ما صارت اليه شجرة الدر ،  
فقد علمت .. »

قالت سلافة : « نعم اياه أعنى .. وكيف تراه يا سحبان ؟ »  
فاستأنس بمناداتها له باسمه بلا لقب ، وقال : « أرى .. ماذا  
أرى ؟ أرى أمرا أقل ما يقال فيه انه لم يسبق له مثيل فى الاسلام »  
فابتسمت سلافة وقد أشرق وجهها وقالت : « رأيت مثل  
هذه البدعة من قبل ؟ »

قال سحبان : « لا .. لكننى .. » وبلغ ريقه كأنه يحذر أن  
يبدى رأيه ..

فقالت سلافة بلهفة : « قل .. ولكن ماذا ؟ .. قل .. »  
 قال سبحان : « ولكن .. كيف توصلت هذه الجارية الى هذا  
 المنصب ؟ .. لا أدري .. »  
 قالت سلافة : « توصلت .. ألا تعرف عز الدين ابيك  
 التركمانى أتابك الجيش ؟ .. ألا تعرفه ؟ »  
 قال سبحان : « نعم أعرفه .. قد فهمت مرادك ياسيدتى ..  
 نعم فهمت .. الآن عرفت الفرق بين السيدة سلافة الكردية وبين  
 المحظية شجرة الدر التركية .. »  
 فتوسمت من عبارته ما يوصلها الى الموضوع الذى تريد  
 الخوض فيه فقالت : « وما هو الفرق ؟ »  
 قال سبحان : « الفرق .. ان هذه أوفت الأمانة حقها بالنظر  
 الى مولاها .. وتلك .. أشركت سواه فى حقه »  
 فأظهرت انها تعارضه وقالت : « لا .. لا تقل ذلك .. انها  
 أم ولده خليل .. لا .. لا تقل ذلك .. »  
 فأدرك سبحان انها تعترض فى الظاهر فقط ، فقال : « قد  
 قلت الحق ياسيدتى .. انى أتردد على هذا القصر منذ عدة أعوام  
 وقد رأيت سلافة مرارا وعيناي شاخصتان اليها .. وفى كل مرة  
 أحاول أن أحظى منها بلفتة فلم تفعل . ولم أر غيرها يحرص هذا  
 !حرص .. أستأذنك ياسيدتى فى هذا التصريح .. وأما سواك  
 فمع كونها أم ولده فان علاقتها مع عز الدين ابيك مشهورة ..  
 ومع ذلك فهى الآن ملكة المسلمين .. ولا بد لكل منا أن يصدع

بأمرها ..

فصاحت فيه : « انها لن تكون ملكة .. واذا صارت فالى أجل قصير » ثم رأت نفسها قد تورطت فى الجسارة والتصريح فتراجعت والتفتت حولها .. وتشاغلته بزهرة قطفتها من طاقة الى جانبها ، وهى مطرقة وقد علت الحمرة وجهها ..

فتوسم سبحان من ذلك المشهد فرجا ، فقال بصوت منخفض : « ياسيدتى لاينبغى لنا أن نطيل الحديث بغير جدوى .. اذا كانه لايد لامرأة من أهل هذا القصر أن تحكم فأنت أولى من سواك » لأنك أرقى درجة من سائر نساته . وأنت من عصبية الملك الصالح - رحمه الله - ولكن ... »

فقطعت سلافة كلامه قائلة : « لا .. لا أريد أن أحكم .. ان النساء لم يخلقن للحكم يا سبحان . ولذلك قلت لك ان شجرة الدر لاينبغى أن تبقى فى الحكم طويلا .. والآن أقول لك لاينبغى أن تبقى » .. قالت ذلك وقد ظهر الغضب فى عينيها وأدرك هو انها تستحته على مساعدتها فى هذا الأمر ، فقال : « اذا كنت ترين فى مكانا لثقتك فانى رهين اشارتك .. افصحى لى عما ترينه » ..

فغلب عليها الحياء والوردية فى يدها ، فجعلت تتشاغل بشئ أوراقتها بين أناملها .. كما يفعل مضطرب الأفكار وهو لايدرى... فابتدرها سبحان قائلا : « اذا كنت لم تفهمى مرادى بعد فانى أتجاسر بالافصاح عما يكنه ضميرى لك ياسيدة الملاح .. انى

تأسير هواك منذ عرفتك ، وما زلت كلما زدت اعراضا عنى أيام  
 الملك الصالح أزداد اجلالا لأخلاقك الفاضلة . وأما الآن وقد  
 مضى ذلك الملك الى حال سبيله ، فهل ترين فى سبحان ما يستحق  
 التفاتك وثقتك ؟ »

فازدادت سلافة حياء وتوردت وجنتها وشعرت بخفقان قلبها  
 وأوشكت أن تسمى الأمر الذى كان شغلها الشاغل فى ذلك  
 الصباح.. ثم التفتت الى ما حولها فلم تر غير الأشجار، والرياحين،  
 ولم تجد ما تتشاغل به عن الجواب ريشما تعمل فكرها .. وأدرك  
 سبحان ما دار فى خلدتها فتحفظ كأنه يريد النهوض ، فمدت يدها  
 نحوه وأشارت اليه أن ينتظر . وظلت ساكنة وهى تعض شفيتها  
 وتمسح جبينها وتصلح تقابها ، فقال لها : « دعيني أنصرف الآن  
 لأنى أرى وجودى ثقلا عليك.. وربما كان سبيلا للقليل والقال.. »  
 فنظرت سلافة اليه نظرة اخترقت أحشاءه ، وقالت : « وأى  
 قيل وقال ؟ .. انى لا أخشى أحدا ، وأما وجودك هنا فانه  
 لازم لى .. »

فهش لها سبحان وضحك كأنه نال أمرا لم يكن يتوقع  
 الحصول عليه وقال : « اذا كان وجودى هنا لازما لك ، فانى  
 «هين أمرك .. »

## - ١٢ -

المهمة السرية

فاعتدلت سلافة في مقعدها والجد باد في عينيها ، ولو كشفت  
عن وجهها لظهرت دلائل العزم والاصرار حول شفيتها ، وقالت :  
« هل أنت صادق فيما تقول ؟ .. »

قال سحبان : « جربي ياسيدتى .. بعد أن تسمعينى كلمة منك  
يطمن لها قلبى .. هل أنت ترين فسى الرجل الذى يستحق  
رضاك ؟ .. »

فأشارت برأسها وعينيها أن نعم ، وقالت : « والدليل على  
ذلك انى سأعرض عليك أمرا خطيرا لا يجوز أن يطلع عليه أحد  
على وجه الأرض .. » وسكتت

فقال سحبان : « تفضلى ياسيدتى .. »  
قالت سلافة : « وسأكلفك بمهمة لا تخلو من الخطر .. »  
قال سحبان : « روحى فداك .. لا أبالى أن أموت فى سبيل  
رضاك .. »

فقالت سلافة : « أنت من أهل بغداد تسافر اليها كل عام ..  
أليس كذلك ؟ »

قال سحبان : « أسافر اليها متى شئت .. »  
قالت سلافة : « ولماذا لا تمكث هناك ؟ »  
قال سحبان : « هل من الضرورى الجواب على هذا السؤال؟ »



قالت سلافة : « نعم .. »

قال سبحان : « ان هذه الجلسة التي سمح الزمان بها ، أشعر معها - برغم قصرها - أن قلبينا متحدان من عهد بعيد .. فأذني لى أن أخاطبك بجسارة وصرحة »

قالت سلافة : « هذا ما أريده منك .. »

قال سبحان : « لا أقيم في بغداد لأنى شيعى . والخلفاء العباسيون يكرهون الشيعة ويطاردونهم ، ولا سيما في بغداد ، فانه لا تمضى سنة لا يقاسون فيها اعتداء ، أو اضطهادا ، أو نهبا ، أو قتلا .. لذلك فضلت الرحيل عن ذلك البلد ، وان كنت في غنى عن التجارة .. ولكننى جعلتها سبيلا للأسفار، واذا سافرت الى بغداد فاتنى لا أمكث فيها الا ريثما أبتاع البضاعة وأعود.. »

قالت سلافة : « هل تعنى ان الخليفة المستعصم الحالى يطارد الشيعة ؟ .. »

قال سبحان : « أكثر الخلفاء العباسيين فعلوا ذلك .. ولكن المستعصم هذا من أشدهم وطأة علينا ، فقد قاسينا في أيامه الأمرين .. » قال ذلك وصرء على أسنانه والغضب يتجلى في وجهه ..

فأطرقت سلافة ، وظهر التردد في عينيها وسكنت ، فقال :

« مالى أراك تترددين ؟ .. قولى ما يخطر لك .. »

قالت سلافة : « أخشى أن يكون في قولى تعب عليك .. »

قال سبحان : « لا لذة في الحب ان لم يرافقه التعب .. »

ولما ذكر الحب اختلج قلبها في صدرها ، وقالت : « أنت  
تطلب ذلك باسم الحب يا سحبان ؟ .. »  
قال سحبان : « اذا كنت تأذنين .. »  
قالت سلافة : « نعم .. انظر يا سحبان ان هذه الجارية  
التركية لا ينبغي أن تبقى ملكة ، الا ريثما تصل أنت الى بغداد  
وتعود منها .. »

ففهم سحبان مرادها وقال : « لك على ذلك .. وهل تريدان  
أن أذهب بهذه المهمة من عند نفسي أم آكون رسولا منك ؟ .. »  
قالت سلافة : « بل تكون رسولا تحمل كتابا منى الى بغداد  
ولا يصل الكتاب حتى يأتي الجواب بخلعها لا محالة »  
قال سحبان : « لمن تريدان أن يسلم الكتاب ؟ .. »  
قالت سلافة : « سلمه الى قيصة قصر النساء هناك ، انها  
صديقتى ولى معها مودة .. هل تفعل ذلك ؟ »

فنهض سحبان وقال : « أفعله الساعة .. اعطني الكتاب ... »  
ومد يده الى منطقتة واستل منها دواة مغروسة فيها وأخرج القلم  
منها ودفعه اليها ، وأخذ من جيبه ورقة بيضاء دفعها اليها ،  
فتناولت الورقة والقلم وهى تتفرس فى وجه سحبان ، وهو ينظر  
فى عينيها . بقيا لحظة على هذه الحال كأنهما يتفاهمان بالعيون ..  
ثم قالت سلافة : « اعلم يا سحبان ان هذه هى المرة الأولى التى  
تخاطبنا فيها وسأعهد اليك بأمر خطير .. ألا تعد ذلك تسرعا  
منى ؟ .. وهل أسلم من الخطر ؟ .. »

قال سبحانه : « جئى قلبك .. من القلب الى القلب دليل ..  
 واذ كنت فى ريب من صدق خدمتى أقسمت لك بما تريدن ،  
 انى أخلص النية فى خدمتك »

قالت سلافة : « أتقسم ؟ .. أقسم .. »  
 فهمم أن يقسم فأمسكت بيده وقالت : « لاحاجة الى القسم »  
 وكانت المرة الأولى التى لمست يدها يده منذ تعارفا ، فأحس  
 كلاهما بالقشعريرة المعهودة ، وهى دليل المحبة .. ولا تحدث عند  
 كل تلامس بين الجنسين ، وانما تقع بين اثنين فى قلبيهما استعداد  
 الى الاتحاد - وبالتعبير العلمى بين كهربائيهما تجاذب - ويزيد  
 هذه القشعريرة ظهورا قلة الاختلاط بين الجنسين والمبالغة فى  
 التحجب . ويلوح للباحث فى نواميس الحب وظواهره أن أسبابه  
 تقوى أو تضعف على حسب الأمزجة والأشخاص .. أو كأن  
 الواحد متمم للآخر ، فاذا التقى اثنان من هذا النوع شعرا  
 بالتجاذب لأول مرة . وبعكس ذلك وجود استعداد للتنافر بلا  
 سبب . على ان للجمال المادى والمعنوى قواعد أجمع الناس  
 عليها ، يغلب فى أصحابها أن يلتفتوا أنظار الناس ويجتذبوا قلوبهم  
 فلما أحست سلافة بتلك الرعشة اتخذتها دليلا على صدق مودة  
 سبحانه ، وتناولت الورقة وأخذت تكتب . وكانت بارعة فى الخط  
 والانشاء لأن السلاطين كانوا يعنون كثيرا بتعليم الجوارى الكتابة  
 واللغة والأدب . ولما فرغت من الكتابة أغلقت الكتاب ودفعته  
 اليه وقالت : « هذا سررى قد عهدت به اليك .. فاذا نجحت فى

تحقيق ما أهدف إليه ، فقد برهنت لى على ما تقول .. «  
فتناوله وقال : «أستودعك الله» ومشى وهو يلتفت إليها حتى  
خرج من الحديقة ، وظلت هى بعده واقفة تفكر فيما فعلته فخالج  
ذهنها ندم على تسرعها .. لكنها راجعت ما رأته وشاهدته منه ،  
وتذكرت تاريخ معرفتها به فلم تجد ما يوجب الحذر .. هذا الى  
أن حسدها لشجرة الدر هوّن عليها كل عمل فى سبيل اذلالها

- ١٣ -

### الاحتفال

أصبحت القاهرة فى اليوم التالى وأهلها فى هرج ، والناس  
يزاحم بعضهم بعضا نحو القلعة .. بين راكب وماش ، رجلا  
ونساء .. حتى أصبحت ساخة الرميلة تحت القلعة غاصة بالناس  
من سائر الطبقات . وقد اختلط بهم الباعة يحملون أنواع  
الكعك ، والفواكه والثمار ، والمملحات ، والحلويات ،  
والمأكولات المجففة . وبينهم حملة الودع ، وكشاف البخت ،  
وضاربي المنديل .. ينادون كل واحد على بضاعته على اختلاف  
الألحان وطبقات الأصوات . وقد علت ضوضاء الناس يتخللها  
نهيق الحمير ، وصهيل الخيل ، ونباح الكلاب ..  
ولو أشرفت على الرميلة من سور القلعة لرأيت الساحة بقعا  
يشغل كل بقعة جماعة متشابهون فى ملابسهم وأشكالهم ،

أكثرهم يجلس القرفصاء ، ويشتمل أحدهم بشيء يبيضه ، أو عود ينكت به الأرض ، أو أداة يلاعب بها أصابعه . وهناك جماعات تكأوا على رجل يلاعب دبا ، أو قردا .. ثم يدور عليهم بدفه يجمع ما تجود به نفوسهم من الدراهم .. وجماعات هدأ جوههم لاشتغالهم بحديث يقصه عليهم شيخ منهم ، ويبدل جهده في اجتذاب قلوبهم ولقت اعجابهم .. وهم يتناولون بأعناقهم نحوه ، وقد أخذتهم الدهشة

ولو أتيح لك حضور تلك المجالس لرأيت عجبا ، وأخذتكم الدهشة من أخلاق العامة ، وسرعة تصديقهم للغرائب .. لأنك قد تسمع حديثا أنت أدري الناس به ، فتجده تشوه واضطرب حتى انقلب الى غير ما تعرفه ، وقد تنكره وتظنه حديثا آخر . ويزداد تشويشهم للأحاديث بنسبة ما تحويه من الغرابة عن مألوفهم . فما ظنك في موضوع ذلك اليوم ، وهو تنصيب امرأة ملكة للمسلمين مما لم يسبق له مثيل في تاريخهم .. فتضاربت أقوالهم في ذلك ، واخترعوا الأسباب الباعثة عليه ، وافترضوا الأسرار ، وتكهنوا بمصير هذه الحال ، وزعم بعضهم أننا صرنا في آخر الزمان وسوف تنقضى الدنيا لأن ذلك من دلائل الفناء .. وبينما هم في ذلك اذ سمعوا نفخ الأبواق ، وقرع الطبول . ثم رأوا موكب أمراء المماليك البحرية متوجها نحو القلعة ، وفي مقدمته كبراء الفرسان الذين تقدم ذكرهم ، وهم بالملابس المذهبة تتلألأ في أشعة الشمس فتأخذ بالأبصار ، وبعدهم هودج شجرة

الدر تحمله البغال وقد تجلجل بالحرير المزركش.. وحوله الفرسان من المماليك في أزهى ما يكون من الملابس بألوانها الجميلة ، وفيهم حملة الأعلام .. ووراءهم كوكبة من الفرسان أصحاب المزاريق ، ثم كوكبة من حملة الرماح . وخلفهم جماهير الناس مشاة على أقدامهم يمشون كالبحر الزاخر .. هذا عدا من لحق بهم من الوقوف هناك ، وفيهم من أغلق دكانه وأوقف عمله لمشاهدة موكب الملكة . وهو لا يرجو شيئا من وراء تلك الخسائر ، وإنما يساق العامة الى ذلك بفطرتهم الساذجة وميلهم الطبيعي الى مشاهدة الغرائب . فهم يؤخذون بالظواهر ويتبعون كل ناعق ، ولذلك كان اجماع العامة على أمر لا يدل على قربه من الصواب وصل الموكب الى باب القلعة الأعظم المواجه للقاهرة . ويقال له الباب المدرج . وكانت طائفة من الجند قد وقفت هناك بالسلح لتمنع الناس من الدخول الا الموكب وأتباعه . وللقلعة باب آخر نحو القرافة أغلقوه في ذلك اليوم لئلا تتزاحم الأقدام في ساحة القلعة . وهى ساحة كبيرة فى وسط القلعة تنتهى فى صدرها بمصطبة ورائها باب كبير هو الباب الداخلى المؤدى الى الأبنية الخاصة بسكنى السلطان والأمراء والجنود ، وفيها الجامع للصلاة ، والايوان لمجلس السلطان ورجال الدولة دخل الموكب القلعة من بابها المدرج ، وظل العامة خارجها يكتفون بما يسمعونه من قرع الطبول ، ونفخ الأبواق . وقطع الموكب الساحة حتى وصل الى الباب الداخلى المذكور ففتحوه ،

ولم يأذنوا لغير الخاصة بدخوله ، ولا سيما الأمراء وأرباب  
 المناصب ونحوهم ، وخلفوا في الساحة جمعا من الخاصة اكتفوا  
 بأنهم امتازوا عن سائر العامة بدخول القلعة  
 ومّر الموكب من ذلك الباب الى دهليز فسيح تحفّت به  
 أبنية مخصصة للسكن وهناك ترجّل الفرسان واهتم جماعة بشجرة  
 الدر فأزلولها عن الهودج ، وبينهم وبين الايوان الكبير دهاليز  
 وأبواب لا بد من اجتيازها ، وكانوا قد فرسوها بالسجاد وعلقوا  
 بأبوابها الرياحين ، والأعلام .. ومشى عز الدين ايبك وسائر  
 الأمراء وهم بملابسهم الفاخرة بين يدي شجرة الدر ، وهى فى  
 ذلك اليوم بأبهى ما يكون من الملابس .. لكنهم أعدوا لها قبة  
 من الحرير المطرز قائمة على أربعة أعمدة يحملها نفر من القواد ،  
 وقد أرخيت ستائرنا وشجرة الدر فى داخلها ومعها جاريتها  
 شوكار وبعض الخصيان ..

— ١٤ —

### الايوان

وبالجملة لم يصل الى الايوان الكبير الا خاصة الخاصة وكبار  
 الموظفين .. وهم أصحاب المطامع طلاب السيادة ، يسخّرون العامة  
 لأغراضهم ويسوقونهم كالأنعام وهم لا يدرون مصيرهم . وربما  
 اكتسبوا رضاهم بوجبة يطعمونهم اياها ، أو يصلاة يتلونها بين

أيديهم ، أو دعاء لولى ، أو قديس يعرفون أنهم يؤمنون بكرامته ظل أصحاب القبة سائرين حتى وصلوا الى صدر الايوان ، وكانوا قد نقلوا اليه سرير السلطنة الذهبى .. فجعلوا القبة فوق السرير وأرخوا ستائرهما حوله ، فجلست شجرة الدر على السرير وبين يديها شوكار ، والخصيان يأترون بأمرها ، ولا يراها أحد من الحاضرين . ثم دخل قاضى القضاة فجلس الى يمين القبة ووراءه صاحب بيت المال وناظر الحسبة . والى يساره كاتب السر وغيره من كبار أرباب المناصب وذوى السن وأمرء المشورة .. وجلس أمام القبة فى وسط الايوان الأمير عز الدين ايبك أتابك الجند وكبار أمرء المماليك ، وبينهم ركن الدين بيبرس . وخلف القبة أو السرير صفان من السلاح دارية والجمدارية والخاصكية ، وخلفهم الحجاب ونحوهم . وأتوا فى جملة ذلك بجماعة من أسرى الافرنج يرتدون ملابس الأسرى مبالغة فى الاعتزاز ..

وبعد أن استقر الحاضرون على هذه الطريقة ، وقف عز الدين ايبك ووجه خطابه الى الجمع قائلاً : « أيها الأمراء والقواد ، لا يخفى عليكم ما أصاب الملك المعظم طوران شاه .. انه أساء السيرة وأراد التكيل بجند هذا البلد البحرية الذين عرفتم بلاءهم فى زمن الملك الصالح - رحمه الله - فى حرب الافرنج وغيرهم . فوقع القضاء عليه .. ولما خلا كرسى السلطنة ممن يسوسها ، لم نجد من هو أولى بها من أصحاب الحق فيها الا مولاتنا ، الجهة



الصالحة شجرة الدر والدة خليل ، وصاحبة الملك الصالح ، لما تعلمه من ثقة مولانا المرحوم فيها وهي أم ولده ، وقد أجمع رأى الأمراء والنواب والقضاة على اختيارها ملكة تتولى شؤون الدولة بمساعدة القضاة والنواب . وقد تعهد أصحاب السيوف بطاعتها لاحقاق الحق وحماية شرائع الدين.. ونحن الآن نحتفل بتنصيبها ، وسندعو لها على المنابر بعد مولانا أمير المؤمنين المستعصم بالله .. وسننقش اسمها على الدنانير والدراهم فادعوا لأمر المؤمنين « فضح الجميع بالدعاء للخليفة وهم وقوف ، ثم تقدم قاضي القضاة فدعا لشجرة الدر قائلاً : « واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح »

فقال عز الدين ابيك : « وقد عهدت الى بتدبير المملكة باسمها وولت الأمير ركن الدين بيبرس الداودارية الخاصة . وأمرتني أن أثبت أصحاب المناصب المواليين لنا في مناصبهم من أصحاب الأقلام وأصحاب السيوف » ثم أشار الى صاحب الستار الواقف بجانب القبة فأزاح الستار فظهر داخل القبة .. فاذا هي مبطنة بأطلس أصفر مزركش ، وفي صدرها شجرة الدر جالسة على السرير قد أرخت النقاب ، وعلى رأسها العصائب السلطانية وهي صفراء ، عليها ألقاب الملكة المتقدم ذكرها مطرزة بالذهب فعاد الناس الى الدعاء لها بمثل ما تقدم .. ثم أرخوا الستار ، وعاد عز الدين الى الكلام فقال : « وعما قليل نحتفل بقراءة

المرسوم الذى سيرد علينا من أمير المؤمنين المستعصم بالله يؤيد  
سلطنة مولانا حفظها الله »

وكان الناس فى أثناء الاحتفال سكوتا كأن على رؤوسهم  
الطير ، وقد أخذتهم الدهشة لأنهم لم يسمعا بمثل هذه الولاية  
وفيهم الغاضب ، والعائب ، والمعترض .. لكن أحدا منهم لم  
يجسر على الكلام لعلمهم ان هذه السلطنة انما كانت بتواطؤ  
الممالك البحرية أصحاب السلطنة فى ذلك العهد

وقبل الفراغ من الاحتفال ، أشار عز الدين الى أحد الوقوف  
من الداودارية ، فمضى وعاد ومعه الأطباق عليها صر النقود  
قاموا بتوزيعها على الحاضرين .. وكانت كل صرة عليها اسم  
صاحبها ..

ولما همّ الحاضرون بالانصراف ، وقف عز الدين ايبك وقال :  
« أيها الأمراء ان مولانا ملكة المسلمين اقتضت ارادتها أن تنقل  
دار السلطنة من جزيرة الروضة الى هذه القلعة ، وستكون هذه  
القلعة مقر أرباب المناصب بدلا من قلعة الملك الصالح فى الروضة  
لأن السبب الذى من أجله جعلها الملك المرحوم كرسيا للسلطنة  
قد زال .. »

فكان لهذا التغيير وقع حسن عند بعض السامعين ، ووقع  
سئء عند آخرين . ولكن لم يجسر أحد على ابداء رأى أو  
ملاحظة . وانقضت الحفلة وانصرف كل الى مكانه ، واتقلت  
شجرة الدر الى قصر خاص بالسلطنة هناك .. وأخذوا فى نقل

الرياش وغيرها من جزيرة الروضة .. ولم تعد تلك الجزيرة مقرا للسلطنة منذ ذلك الحين .. وأخذوا في ازالة زخارفها ونقوشها ، ولا سيما حينما صارت السلطنة الى عز الدين ايبك فانه أمر بهدمها وقلل ما كان فيها من الأعمدة والنوافذ والسقوف والأخشاب لبناء مدرسة باسمه في القاهرة

وكانت شوكار في أثناء الاحتفال مع شجرة الدر في الهودج كما تقدم .. فلما رفع الستار عنه ، انزوت في مكان بحيث ترى الحاضرين منه ولا يرونها .. وكان نظرها لا يتحول عن ركن الدين وهو بملابسه الرسمية المزركشة بالقصب ، وعلى رأسه القلنسوة العسكرية ، وقد زانه شبابه .. وسرت على الخصوص حين سمعت انه صار داودارا لسيدتها ، لعلمها انه أصبح أقرب اليها اذ ينكثر تردده على قصر الملكة لقضاء مهام منصبه ، فخفق قلبها فرحا .. وتحققت من قرب سعادتها لأنها ستكون زوجة لداودار السلطنة ..

— ١٥ —

### مهام الدولة

أما شجرة الدر ، فبعد انقضاء الاحتفال نقلت مركز الحكم الى قصر السلطنة . وقد أعدوا لها فيه غرفة فرشوها بأحسن الرياش . دخلت الغرفة يحيط بها الجوارى والخصيان وفي

مقدمتهم شوكار، فأخذوا في تبديل ملابسها الثقيلة بملابس أخف منها كي تستجم بعد ذلك العناء .. ثم أمرت الخدم بالانصراف ، فلما خلت بنفسها أخذت تفكر فيما صارت اليه مما لم تكن تحلم به في صباها ، وتذكرت شبابها وكيف كانت تنظر الى السلاطين والملوك وما كانت تراه بينها وبينهم من الفروق الشاسعة.. وكيف أصبحت اليوم ملكة المسلمين تطأطئ لها الرءوس وتعنو لها الرقاب . فلما تصورت ذلك انشرح صدرها وانبسبت نفسها .. لكنها ما لبثت أن فكرت فيما ينطوى عليه ذلك المنصب من المشاق، وما في مصر يومئذ من المشاكل والحروب مع الصليبيين ، عدا الأحزاب المختلفة بين رجال الدولة والجند .. فانقبضت نفسها ، لكنها حين تذكرت عز الدين مدبر المملكة ومن معه من الأمراء الذين يأخذون بناصرها للعصية أو للعتاء ، هان الأمر عليها نوعا .. على ان الاقتباس ظل ظاهرا على وجهها ..

وبينما هي في ذلك ، اذ دخلت عليها جاريتها شوكار والفرح يتجلى على وجهها ، وأكبّت على يد سيدتها وقبّلتها وهي تقول :  
« الحمد لله على نعمه ياسيدتى .. أنت ملكة المسلمين .. ألم أقل لك عند مارأيتك على ذلك السرير انه لائق بك ؟ .. مالى أراك منقبضة النفس .. هل ساءك مجيئى الآن ؟ .. هل تأمرين بانصرافى ؟ .. »

فطوقت عنقها بيديها وضمتها الى صدرها وقبّلتها وهي تقول : « كيف تتصرفين يا شوكار ؟ .. لا .. لا .. لا .. لست

منقبضة من شيء .. انى أشعر بالسعادة التى أنا فيها والحمد لله ،  
ولكننى أفكر فى المهام الكثيرة التى بين يدى .. كنت قبل الآن  
لايهمنى الا أن يتم لى هذا الأمر .. فلما تم ، ذهبت نشوة هذه  
الرغبة ، وتبينت لى حقيقة المنصب بما يحف به من المشاكل ،  
ولا سيما الآن .. »

فأرادت شوكار أن تداعبها كى تشغلها عن تلك الهواجس ،  
فقالت وهى تضحك : « اذا كنت قد كرهت هذا المنصب ، فأنا  
أأخذه منك وأخفف عنك مهامه »

فابتسمت شجرة الدر ، وقبلت شوكار ثانية وقالت : « لم  
أكره هذا المنصب ياعزيزتى .. فانى لم أذق منه شيئاً بعد ، لكن  
لاينبغى لى أن أتغاضى عما يحيط به من أسباب العناء »  
قالت شوكار : « ان هذه الأسباب لا بد منها – وهذا مولانا  
عز الدين مدبر المملكة يحمل عنك كل أثقالها – وهذا ركن  
الدين .. انه بطل .. » وحين ذكرته ، خجلت وأطرقت حياء ..  
فضحكت شجرة الدر .. ومدت يدها الى جبينها تمسحه ،  
وقالت : « ان ركن الدين بطل .. واذا شئت أن ترى ذلك  
وتختبريه ، فانى سأكلفه بمهمة ذات بال لا أرى بين الأمراء من  
أثق به وأعول عليه فى قضائها غيره .. هل تأذنين بذلك ؟ »  
فخجلت شوكار من هذا الاستئذان وقالت : « من أكون أنا  
حتى يؤخذ الاذن منى ؟ .. ألسنا جميعا عبيدا نصدع للأمر ؟ »  
فلما سمعت هذا التعبير – وهو مما يقال للملوك – لأول

مرة ، عظم الأمر عندها .. لكنها كانت عاقلة تنظر في الأمور الى حقائقها ولا يههما الزخارف ، فقالت : « كلنا عبيد ياشوكار .. وانما سألتك لأن ركن الدين يهتك الآن .. وهو لك .. أليس كذلك ؟ .. »

فقالت وقد توردت وجنتها من الخجل : « هبى انه لى .. فأنا لم أكن لأحصل عليه لولاك .. »

قالت شجرة الدر : « ليس هذا هو الجانب المهم فى الأمر يا شوكار ، ولكننى أحب قبل أن يعقد له عليك أن يأتى عملاً يوجب له الفخر على أقرانه ، فاذا تزوجك بعد ذلك زاد اقتخارك به .. »

قالت شوكار : « الأمر لك على كل حال » .. لكنها فى الحقيقة لم يسرها هذا الأمر لأن ركن الدين من الأمراء المعروفين ، واذا لم يكن بد من زيادة أسباب شهرته فيصح أن يكون ذلك بعد العقد .. وقد أصبحت لفرط دهشتها بذلك النصيب ، تخشى أن يؤخذ منها .. لكنها لم تستطع أن تظهر غير الرضى

أما شجرة الدر فانها لاحظت تردددها ، وما خامر ذهنها من هذا الأمر ، فتهدت ونهضت وقالت : « اتبعينى يا شوكار .. » فتبعته وهى تفكر فيما يحتمل أن يكون غرضها من هذا النهوض ، فاذا هى قد مشت فى دهليز الى غرفتها الخاصة .. وهى غرفة أعدوها لها بأئمن الرياش ، فدخلت واستلقت على سريرها بغير كلفة وهى تقول : « آه يا شوكار .. لقد تعبت من

التفكير وشعرت بثقل العمل الذى أخذته على عاتقى .. اطريبنى  
 بصوتك الرخيم لعلى أروح عن النفس قليلا ..  
 فسرهما هذا الاقتراح ، وأمرت أحد الغلمان باحضار  
 العود .. فتناولته وأخذت تعزف عليه باتقان ، وتغنى أغنيات  
 تعلم ان شجرة الدر تطرب لها .. فأنتست منها استحسانا كثيرا ،  
 وهى تضحك لها وتعجب بها ، وشوكار تائهة الفكر فى ركن  
 الدين وتود أن يكون حاضرا لتراه لعلها تتحقق منه شيئا .. لأنها  
 لم تجد فرصة تسمع فيها قوله انه يحبها ، وأحست هى أنها  
 أحبته ، وخشيت أن لا يبادلها شعورها .. فظهر انقباض قلبها  
 على وجهها ، وانعكس أثر ذلك فى عزفها وغنائها ، فقالت لها  
 شجرة الدر : « ما بالك يا شوكار ؟ »

فانتبهت لنفسها وقالت : « لا شىء ياسيدتى .. »  
 قالت شجرة الدر : « لا تقولى لا شىء .. انى أرى فى وجهك  
 تغيرا .. »

فابتسمت لتخفى ما بها وقالت : « كلا يامولاتى .. انى محاطة  
 بكل أسباب السعادة والحمد لله .. » وسكتت .. وفى سكوتها  
 شبه انكار ..

- ١٦ -

### ترابط القلوب

فأدرت شجرة الدر جانبا من الحقيقة ، فقالت : « لا شك

عندى انك سعيدة لما نالتة مولاتك شجرة الدر .. ولكن فى  
خاطرك شيئاً تكتمينه . هل ساءك ما قلته لك عن ركن الدين  
من أمر السفر ؟ .. »

قالت شوكار بلهفة : « كلا ياسيدتى .. ان ما تأمرين به  
لا يكون فيه غير أسباب الراحة والسعادة ، ولكن .. » وأطرت  
حياء ..

قالت شجرة الدر : « ولكن ماذا ؟ .. ان هذا الاطراق يعجبني  
من الفتاة فى مثل هذه الحال .. يظهر انك تشتاقين الى رؤية  
ركن الدين قبل سفره . ولعلك تحبين أن تعرفى رأيه فيك .. انى  
سأدعوه الساعة يجالسنا بحجة عزمى على تكليفه بتلك المهمة .. »  
قالت ذلك وصفقت ، فجاء أحد الغلمان فأمرته أن يدعو  
الداودار ركن الدين ..

فخرج .. وعادت هى الى مشاغلة شوكار ، فقالت لها :  
« لا يمضى كثير حتى يأتى ركن الدين وترينه ويراك .. غنى  
شيئاً من عندك .. »

فأخذت تنفى وقد فرحت بقرب قدوم ركن الدين ، لكنها  
أحست بخفقان قلبها ..

وبعد قليل جاء الغلام يقول : « ان الأمير ركن الدين بالباب »  
فقالت شجرة الدر : « يدخل » وأشارت الى شوكار أن  
تسكت ..

فدخل ركن الدين وألقى التحية فابتسمت له ، وقد ألفت



النقاب بعض الشيء على رأسها ، وفعلت شوكار مثلما فعلت ..  
وقالت شجرة الدر : « مرحبا بالبطل ركن الدين .. تفضل .. »  
وأشارت الى مقعد بين يديها .. فجلس عليه وهو يتأدب في  
نظراته ، ويفكر فيما عسى أن يكون سبب تلك الدعوة ..  
فقال شجرة الدر : « هل تعلم يا ركن الدين لماذا دعوتك ؟ »  
قال ركن الدين : « كلا ياسيدتى .. لا أعلم .. وانما أعلم  
انى سيف من سيوف مولاتى ، تقذف بى حيثما شاءت .. »  
فقال شجرة الدر : « بارك الله فيك .. لكن هل تفعل ما  
تفعله اكراما لى وحدى ؟ »

فلما سمع قولها علم انها تداعبه وتشير الى علاقته بشوكار ،  
فسره انها فتحت الحديث ، فقال : « نعم ياسيدتى لأنك أنت  
صاحبة الأمر والنهى من كل وجه » والتفت الى شوكار وابتسم  
فخجلت شوكار ، وظهر الخجل فى عينيها وأطرقت ، فقالت  
شجرة الدر : « أرى شوكار قد خجلت ، ويعجبني الحياء ،  
لكننى أحب أن تسمعنا لحننا آخر يشاركنا ركن الدين فى  
سماعه .. ما رأيك ؟ .. »

فقال شوكار : « انى رهينة أمرك ياسيدتى .. »  
قالت شجرة الدر : « أسمعينا أو أسمعيه .. لعله يسمعنا ما  
يطرب من غير لحن أو نغم .. »  
فتناولت العود ، وأخذت تغنى وتعزف على العود حتى أخذت  
بمجامع قلب ركن الدين .. وقد طرب طربا كثيرا وهاجت عواطفه ،

وكان قد سمع عن صوت شوكار ولكنه لم يسمعه .. أما وقد سمعه فازداد اعجابا به وتعلقا بصاحبة الصوت ، وأدرك عظم النعمة التي وهبته اياها شجرة الدر حين وعدته بتلك الغادة المطربة وكانت شوكار تعزف وتغنى .. وعيناها تراقبان حركات ركن الدين ، فرأته قد هاجت أشجانه وبان الطرب والهيام على وجهه ولولا تهيبه من تلك الملكة لقال أشياء كثيرة . ولاحظت شجرة الدر أيضا ذلك وسرها ما لاحظته ، لأنها كانت تريد أن تسيطر على قلب ركن الدين لتستخدمه فيما تريد من الأمور الهامة ، إذ أصبحت بعد أن صارت ملكة تخشى من الدسائس والخونة من الداخل والخارج . وقد توسمت في ركن الدين همة عالية وبسالة ، فأرادت أن تملك قلبه ليكون طوع ارادتها فيما قد ترى تحقيقه ، لأنها كانت سيئة الظن بأعوانها .. حتى عز الدين اييك صديقها العزيز ، فانها كانت تعتقد انه غير أمين لها ، وانه انما يظهر الطاعة لغرض في نفسه ..

فلما رأت هيام ركن الدين بشوكار ، قالت له : « هل أعجبك صوتها يا ركن الدين ؟ »

فتحرك احتفاء بذلك الاستفهام وقال : « تسألينني عن صوتها ألا يكفي انه يعجب ملكة المسلمين ؟ .. ومن لا يطرب لهذا الصوت الرخيم ؟ .. »

قالت وهي تضحك : « أرجو أن لا يكون الصوت وحده الذي أطربك .. »

فالتفت خلسة الى شوكار وسكت ..  
 فقالت شجرة الدر : « أراك تستشيرها في ذلك .. هل تشك  
 في أنها تعجب بك ؟ .. »  
 قال ركن الدين : « اذا كانت ترى قى شيئا حسنا فانما تراه  
 لأن سيدتى الملكة رضيت عنى .. »  
 قالت شجرة الدر : « لا أنكر انى وسيلة التعارف بينكما ..  
 لكنها تسمع عن البطل ركن الدين من قبل ، ويكفى ما تسمعه  
 منى عن بسالتك . ويعجبنى منها انها لايعجبها غير رجال الحرب  
 المستبسلين في الدفاع عن الدولة.. ولذلك سألتك حين دخولك :  
 « هل تعلم لماذا دعوتك ؟ .. فأجبت جوابا وقع في نفسى موقعا  
 حسنا . ولاشك انه وقع مثل هذا الموقع عند شوكار . وقد  
 لاحظت ذلك في عينيها ، وبدلا من أن أتم حديثى معك طلبت اليها  
 أن تسمعك صوتها وقد فعلت . وانى في غاية السرور من تقارب  
 قليكما .. فلنعد الى ما كنا فيه . قل لى : هل تعلم لماذا دعوتك ؟  
 ونحن فيما نحن فيه من أمر الافرنج في دمياط وما حولها ؟ »  
 قال ركن الدين : « انك تريدان أن أكفيك أمرهم .. وهذا  
 هين .. »

قالت شجرة الدر : « سيعهد اليك بذلك الأمير عز الدين  
 غدا ، ولكننى أحبيت أن أطمئنك ان هذا العمل يرضى شوكار ،  
 وانها تحب الشجعان البواسل .. ومن ناحية أخرى لاحظت من  
 شوكار انها .. » وضحكت وهى تنظر اليها ثم قالت : « لاحظت

انها تحب أن تتحقق من رأى ركن الدين فيها .. «  
 فغلب الهيام على ركن الدين وقال : « وهل لركن الدين رأى  
 بعد أمر مولاتنا الملكة ؟ »  
 قالت شجرة الدر : « هى لا تريد أن يكون حبك لها طوعا  
 لأمر الملكة .. »  
 قال ركن الدين : « ان أمر الملكة كان فاتحة الكلام.. ولكننى  
 أحبها الآن طوعا لأمرها . ويكفينى أن يكون عندها نصف ما  
 عندى » قال ذلك ونظر اليها فأطرقت خجلا .. وتكلمت عيناها  
 بما يعجز اللسان عن الافصاح به ..

## - ١٧ -

### عز الدين

فلما تأكدت شجرة الدر من ترابط القلبين ، قالت : « لا أظن  
 أن أحدكما يحتاج الى دليل آخر.. والآن يا ركن الدين كن رجلا  
 مثل عهدى فيك ، وان نجاحك فى هذه المهمة ضامن لما ستبلغ  
 اليه من الرتب الرفيعة .. سر فى حراسة الله ، ولكن قبل ذهابك  
 صافح شوكار ، وضع يدك فى يدها .. انى أسمح لكما بذلك »  
 فتقدم ركن الدين ومد يده ومدت شوكار يدها وتصافحا ،  
 وهى أول مرة تلامست يدهما وكأنهما تفاهما أو تعاقدتا . ثم  
 انحنى ركن الدين أمام شجرة الدر ، وودعها وخرج .. فأحست

شوكار كأن قلبها خلع من صدرها وسار معه ..  
 فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « ألم أقل لك انه يتفانى في حبك  
 وسيزداد حبك له حين ترينه يعود ظافرا من ساحة الحرب .. وهو  
 سيناضل ويحارب باسمك .. أهنتك ياعزيزتى بهذا البطل .. »  
 فأطرقت وقلبها يخفق طربا ؛ ثم أمرت بانصرافها لتتفرغ  
 لمهام الدولة ..

ولم تكذ تخرج من عندها حتى جاءها الحاجب يتبئها بقدم  
 عز الدين نائب السلطنة ، فقالت للحاجب : « قل له ينتظرنى  
 فى الايوان .. »

وكان عز الدين قد جاء الى الايوان للقاء حبيته على حدة  
 ليهنئها بما نالته ، وهو يتوقع أن تكثر من الثناء عليه عند المقابلة  
 على انفراد ، لأنه كان السبب فى ظفرها بذلك المنصب .. ولولاه  
 ما ظفرت به .. فلم يجدها فى الايوان ، وقيل له انها فى غرفتها فلم  
 ير بأسا من لقاءها هناك. ولم يدن من الغرفة حتى رأى ركن الدين  
 خارجا من عندها وعلى وجهه امارات الهيام ، فبغت ركن الدين  
 عند مشاهدته وحياء تحية عادية اذ لم يكن فى نفسه شىء  
 نحوه .. أما عز الدين ، فان الشك تسرب الى ذهنه وهبت  
 الغيرة فى قلبه .. فلم يزد على رد التحية ، وعزم على استطلاع  
 سبب وجود ركن الدين هناك حالما يلاقى شجرة الدر فى غرفتها  
 فلما عاد اليه الحاجب يطلب منه أن ينتظر شجرة الدر فى  
 الايوان ، زادت وحشته وتعاطمت غيرته ، وخيل اليه ان شجرة

الدر غلبت الكبرياء على قلبها حتى أصبحت تستنكف من لقاء صديقها وسبب نعمتها في غرفتها .. لكنه أخذ يغالب شكوكه ، وتجلد وذهب الى الايوان في انتظارها .. واتفق انها تباطأت في الوصول ريثما بدلت ثيابها ، ثم جاءت وهى تجر ذيل ثوبها الملكى والخصيان بين يديها . فلما دخلت وقف لها ورحب بها ، فحيته وأشارت اليه أن يجلس ، وصرفت الخدم ..

فلما رآها تهشى له تغير ما فى نفسه ، وأغضى عما سبق الى ذهنه وقال : « جئت لأهنئ الملكة بمنصبها وأرجو أن تتأيد دولتها » ..

فابتسمت ابتسامة الشكر ، وقالت : « انى لا أنسى فضلك فى ذلك يا عز الدين ، ولا بد لى من الاعتماد عليك فى فض المشاكل التى تتاب الدولة .. »

فقال عز الدين : « انى رهين الاشارة ياسيدتى .. »  
 قالت شجرة الدر : « انت نعلم ما يحيط بنا من الحساد ، وما يهددنا من الأعداء ، ولا سيما الافرنج فانهم لن يكفوا عن مناوأتنا » ..

قال عز الدين : « لا يشغلك شاغل من أمر هؤلاء فانى مدبر أمرهم » ..

قالت : « بارك الله فيك .. غير انى رأيت ركن الدين يليق بهذا العمل .. وقد سمعتك تشنى على بسالته ، وقد اتفق انى رأيته اليوم وذكرت له أمر الافرنج .. فرأيت منه ارتياحا الى

الخروج اليهم ، غير انى أحببت أن يكون ذلك برأيك ..  
 فلم يعجبه قولها انها رأته اليوم ، وكيف تراه ان لم يكن ذلك  
 بموعد بينهما ، وكيف يكون ذلك في غرفتها لا في الايوان ..  
 لكنه تجاهل وقال : « ان ركن الدين أهل لثقتك .. ولا بأس  
 من أن يعهد اليه في ذلك بأمر منك رأسا »

فمدت يدها الى جيبيها وأخرجت ورقة ملفوفة وقالت : « اليك  
 ما كتبت له في ذلك .. »  
 فتناول الورقة وفضها فاذا هي أمر صادر منها الى ركن الدين  
 بهذا المعنى وهذا نصه :

« من ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب  
 للجيل ، والدة المرحوم خليل ، وزوجة الملك الصالح - رحمه  
 الله - الى القائد الباسل الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى .  
 نظرا لثقتنا الكبرى بيسالتك وعلو همتك بعد ما ظهر من بلائك  
 في دفع الافرنج عن بلادنا . ولما كان هؤلاء الملاعين لايزالون  
 يناوئوتنا في جهات دمياط ، فقد عهدنا اليك بعد مشورة أتاك  
 جندنا الأمير عز الدين ايبك أن تخرج اليهم برجالك الذين  
 تختارهم ، وتكفينا أمرهم وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ..  
 « والدة خليل »

فلما قرأ الأمر أعجبه قولها انها فعلت ذلك بعد مشورته فطوى  
 الكتاب وبعث به الى ركن الدين . وعاد الى محادثتها في شؤون  
 الدولة ، وهي تبذل جهدها في مجاملته ليطمئن قلبه لها ، ولايزال

الشك يخامرہ - والمحب كثير الشكوك - لكنه كان يطرد تلك الشكوك من خاطره ، فلما انصرف من عندها وخلا بنفسه عادت اليه الشكوك ..

أما ركن الدين فانه لما بلغه كتاب شجرة الدر بادر الى تنفيذه ، وقد اتسعت آماله فيما تطمح اليه أنظاره من الارتقاء في مناصب الدولة ؛ وهو يرى نفسه أهلاً لأكبر المناصب . فانه كان كبير المظامع على الهمة والدولة في اضطراب ، وقد خطر له أن الدولة التي تستطيع امرأة أن تصير ملكة فيها .. كيف لا يستطيع ذلك ، قائد باسل .. لكنه يعلم ان مطلبه عسير وعز الدين أمامه ، وهو صاحب النفوذ الأقوى عند الجند وعند شجرة الدر نفسها . على ان ما آنسه من ملاطفة هذه المرأة في ذلك اليوم شجعه نوعاً ، لكنه كتم مظامعه هذه عن الجميع لعلمه بما يعتور ذلك من الخطر . ومع ذلك فان حبه شوكار هون عليه كل عسير ، وصار حبا من أقوى الدوافع له على طلب العلى

- ١٨ -

طارق مهم

وأما عز الدين فبعد خروجه من الايوان مشى الى المنزل الخاص به في القلعة .. ودخل غرفة منه تطل على القاهرة ، وقد تعمد الخلوة ليفكر فيما طرأ عليه في ذلك اليوم من الظنون ..



واتفق أن جلس على مقعد بجوار النافذة ، فوق بصره على القاهرة وما وراءها من الفسطاط الى النيل ، وفيه جزيرة الروضة فتذكر الملك الصالح ، وأيامه هناك مع شجرة الدر . فمر في مخيلته تاريخ علاقته بها فلم يجد ما يوجب شكاً ، فعاد الى حسن الظن ..

وبينما هو في ذلك ، اذ جاءه غلام ينبئه بمجيء امرأة منقبة تريد مقابله ، فسأل الغلام من هي تلك المرأة ؟ .. فقال : « لم أستطع تمييزها لأنها منقبة وقد غطت وجهها »

فنهض وهو يفكر فيمن عساها أن تكون ، وسار الى غرفة خاصة بمقابلة القادمين ، فوجد تلك المرأة جالسة على المقعد وقد التفت بملاءة ثينة . ويدل مجمل حالها على انها لم تأت تطلب صدقة .. فدخل وحيها فرددت التحية وهي تتحفز للنهوض ، فأشار اليها أن تجلس فجلست .. وجلس هو بين يديها وقال لها : « من أنت ياسيدتى ؟ .. وماذا تريدين ؟ .. »

فأزاحت النقاب عن وجهها ولم تجب .. فاذا هي سلافة قيِّمة قصور الملك الصالح ، وكان معجبا بجمالها وله معها مواقف كانت هي الظافرة فيها ، نظرا لما كان لها من المنزلة عند الملك الصالح . وكان يحترمها من أجل ذلك .. ولم يكن يتوقع أن يراها آتية اليه على هذه الصورة . فلما كشفت وجهها بادر الى الترحيب بها والاعتذار لها لأنه استقبلها هناك فقالت : « لم

آت اليك لضيافة ولكنني جئت ألتمس منك شيئا أنت صاحب الأمر فيه .. »

فقال عز الدين : « وما هو ؟ .. »

قالت سلافة : « علمت اليوم ان أمور الدولة صارت الى صديقتك شجرة الدر . وأنا كما تطم قيمة قصور الملك الصالح . فالملك الصالح مات وقصوره نهبت ، ونقل أثاثها الى هذه القلعة ، وصار الحكم الى احدي جواريه .. لا تؤاخذني في هذا التعبير .. وهب انها جارية ، فيكفي انها صديقة عز الدين ابيك .. وهو الذي رفعها الى مقام الملك .. انت رفعتها الى ذلك المقام لأنها صديقتك . ولك الخيار فيما فعلت .. هناها الله بهذا المنصب ، وانما جئت الآن أطلب منك أن تطلق سراحي من الخدمة ولم يبق لي عمل في هذه القصور ، اذ لم يبق فيها دور للحريم .. بعد أن صارت ملكتنا من الحريم فاصرفني .. أم أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك من تلقاء نفسك بدون أن تستشير ملكة المسلمين ؟ »

وكان لكلام سلافة وقع شديد في نفس عز الدين وهو في تلك الحال من التردد والشك .. وكان يجل قدرها ، ويجب أن يتقرب منها ، لكن لم تكن تسنح له فرصة في حياة مولاهما .. وحين جاءته في تلك الحال وقع في حيرة وتنبهت فيه عوامل كثيرة ، أهمها احتقار نفسه لأنه خضع لامرأة على حين لم ترض امرأة مثلها أن تخضع لها . وتنبه في خاطره حب كان كامنا ، هاجه ما قام في نفسه من الغيرة . ولم يسعه السكوت مع ذلك عن الدفاع



« ودخل عن الدين غرفة .. من المنزل الخاص به في القلعة. تطل على القاهرة  
وقد تعمد الخلوة ليفكر فيما طرأ عليه بعد ذلك اليوم من الظنون .. »

حفظا لكرامته فقال : « ان شجرة الدر لم تصل الى هذا المنصب الا لأنها أم ولد السلطان كما تعلمين .. »

قالت سلافة : « صدقت .. بارك الله فيكم - لم تبايعوها الا لأنها أم ولد السلطان .. ما شاء الله - وأين ذلك الولد ؟ .. قد مات .. واذا كان الغرض المحافظة على نسب السلاطين الأيوبيين في هذه السلطنة ، ألم يكن الأولى أن تولوا عليكم ولو غلاما أيوبيا يكون الأتابك عز الدين وصيا عليه ويكون ذلك الأمر بيد الأتابك .. والأمير عز الدين الآن أتابك ، ولكن هل الأمر بيده ؟ أنا أعرف جنس النساء .. انهن لا يحفظن الوداد .. لا أقول ان شجرة الدر هكذا ، لكن طبيعتنا نحن النساء هكذا . ويؤيد ذلك ما جاء عنهن في كتب الدين ، فضلا عن ذلك فان هذه السلطنة لا تثبت ان لم يأت كتاب أمير المؤمنين العباسي راضيا عن هذا الاختيار »

فقال عز الدين : « وهل تظنين ان أمير المؤمنين يعترض على هذا الاختيار ؟ »

قالت سلافة : « لاشك عندي في ذلك .. »  
قال عز الدين : « أظنك مخطئة يا سلافة لأن شجرة الدر حكيمة عاقلة ، وقد اختارها الأمراء والقواد .. فلا أظن ان أمير المؤمنين يخالفهم »

قالت سلافة : « أؤكد لك أن أهل بغداد كافة سيغضبون لهذا العمل وليس الخليفة فقط . وسوف ترى .. اني أعرف هذه

الأمر من قبل .. ما لنا ولذلك .. أرجو الآن أن تصرفنى وتطلق سراحى ، لكن بدون مشورة أحد .. »  
 قال عز الدين : « والى أين تذهبين اذا أطلقت سراحك ؟ .. »  
 قالت سلافة : « أضرب فى هذه الدنيا .. » وغصت بريقها وتساقت دمعتان على خديها ، فمسختهما وأظهرت انها خجلت من الضعف الذى ظهر عليها وسكتت ..  
 فآثر منظرها فى قلبه وقال : « بدلا من ذهابك فى هذه الدنيا امكثى عندنا » ..

قالت سلافة : « أين أمكث ؟ .. قد ذهبت القصور والنساء وحيثما مكثت أكون أسيرة سجينه ، أو أكون رهينة رضى ملكة المسلمين أو غضبها . وهذا لا صبر لى عليه مثل صبركم أيها الرجال العظام والقواد البواسل ، فانى امرأة ضعيفة ولا صبر لى على ذلك » ..

فأحس بالتهكم الذى يتخلل أقوالها ووجدها مصيبة فيما تراه ، وأعجب بجسارتها حتى تقول له صراحة ، فقال لها : « يا سلافة .. يكفى تأنيبا وتعنيفا .. ما حدث فقد حدث .. وأنا أعرف قدرك ، ولا أحب أن تخرجى على هذه الصورة ، فامكثى عندى .. و .. »

فقطعت كلامه قائلة : « أمكث عندك ؟ يامسكين .. وما الذى يصيبك لو علمت شجرة الدر بوجودى هنا ؟ .. »  
 فوجد أن الحق معها .. لكن كبر عليه أن يعترف بهذه الحقيقة

فقال : « ما لها وما عندي ؟ .. أنا لا أتعرض لما عندها .. »  
 قالت سلافة : « وما هو الفرق بين الملوك وسواهم ؟ .. هل  
 يجوز لنا ما يجوز للملوك ؟ هل يخيل اليك انك لو رأيت رجلا  
 خارجا من غرفة شجرة الدر صديقتك الحميمة ، وأنت وضعتها  
 في هذا المنصب ؛ يحق لك أن تسأل عن سبب وجوده هناك ؟ ..  
 أما هي فلها كل الحق أن تعد أنفاسك وتحاسبك على كل خطوة »  
 فتذكر مشاهدته ركن الدين في ذلك الصباح خارجا من عندها  
 وما خامره بسبب ذلك من الشكوك .. فأطرق برهة يفكر ،  
 لكنه خشى أن يدل ذلك على ضعف فيه ، وهو لا يريد أن يظهر  
 ذلك ، ولا سيما بين يدي سلافة بعد ما أسمعتة اياه من اللمز  
 والتعريض ، فقال : « انت تعتقدين اذن أن وصول شجرة الدر  
 الى هذا المنصب أبعد ما بينها وبينى ، فحق لها أن تتصرف كما  
 تشاء . فما الذى يمنعنى من أن أفعل أنا ما أريده ولا ألتفت  
 الى ما يرضيها أو يغضبها ؟ »

فقالت سلافة : « لا .. لا أشير عليك بذلك .. انه يكون  
 سببا في تنغيص العيش ، ولا أحب أن يكون ذلك بواسطتى »  
 قال عز الدين : « هل تظنين ان وجودك عندي يغضبها ؟ ..  
 ومع ذلك لا أرى حاجة الى اطلاعها على وجودك عندي .. »  
 فهزت رأسها وقالت : « انها جراءة عظيمة ياسيدى .. اذا  
 أحببت أن أكون تحت ظلك لا أرى أن أقيم معك في منزلك ،  
 بل أقيم في مكان آخر .. وأنا على كل حال صديقتك وسأبقى

على وداك ولو صرت ملكة المسلمين .. على انى لا أضمن ذلك .. لأن الانسان عرضة للتغيير » وضحكت ..  
فقال عز الدين : « ما الذى يجول بخاطرك الآن وتخشين ان يتغير ؟ .. »

قالت سلافة : « يجول بخاطرى ان النساء لا يصلحن للحكم . وان السلطة لا تليق الا بك ، فأنت قائدة الجند ، وأنت حاربت الافرنج وقهرتهم ، وأنت دبّرت كل شىء .. هذا ما أراه الآن ولا أغيّر فكرى فيه » ..

فكان لهذا الاطراء وقع جميل فى قلبه .. والانسان تخدعه ميوله حتى تريبه الأسود أبيض ، والخرافة حقيقة . ومن فطرته أن يؤمن بصدق مادحه واخلاصه ، ويميل اليه قلبه .. وقد عرف هذه الطبيعة أصحاب التدبير الذين يحتاجون الى مصانعة الناس فى التجارة أو غيرها فاتخذوا مدح « زبائهم » اطراء مناقبهم وسيلة للتقرب اليهم واكتساب ثقتهم .. واتخذ هذه الخطة أيضا طلاب رضى النساء ، وجعلوا اطراء جمالهن أو سجاياهن وسيلة لاكتساب قلوبهن ، ولذلك قال أمير الشعراء :

خدعوها بقولهم حسناء      والغوانى يغرهن الثناء  
والحقيقة ان الثناء لا يفر الغوانى فقط ، بل هو يفر كل انسان ويندر أن ينجو عاقل من الوقوع فيه  
فلما سمع قول سلافة فيه اعتقد صدقها وانها على حق فيه ،  
وتوهم ان لا غرض لها غير تقرير الحقيقة .. وهياً له اعتقاده

اخلاصها وصدق مودتها ، وكان ذلك باعثا على التباعد بينه وبين شجرة الدر بدون أن يشعر . وافترقا على أن تقيم سلافة في قصر خاص بها وتكون تحت رعاية عز الدين

وبعد أن ذهبت سلافة ، أخذ يفكر فيما قالت ، فوجده في جانب الصواب .. اذ كان يجب أن يتولى السلطنة أحد غلمان بنى أيوب ، ويكون هو مديرا للمملكة ، ولا يكون هناك مجال للاعتراض . وذلك أفضل من أن تتولى الدولة امرأة . وغلب على اعتقاده انه أخطأ في توليتها وان المرأة لا تصلح للملك . وقد زاد هذا الاعتقاد رسوخا في نفسه ، أن سلافة جاءته به من باب المدح له .. وفرح من ناحية أخرى لأن سلافة قيِّمة قصور الملك الصالح صارت في حوزته ..

أما شوكار فانها أصبحت بعد سفر ركن الدين الى دمياط شديدة الميل الى سماع أخبار الحرب واستطلاع ماجرى . وهى تصبر نفسها ، وكلما طال انتظارها ازدادت شوقا ولهفة . وأما هو فكان يفتنم قدوم بعض خاصته للسؤال عنها وتتبع أحوالها مضى على ذلك ثلاثة أشهر ، لم يأت الى القاهرة في خلالها الا مرتين ، واختلس الفرص فاجتمع بشوكار بعد استئذان شجرة الدر - وسمع غناءها ..

وفي المرة الثانية تواعدا على العقد بعد رجوعه ، فمكثت تنتظر ذلك بفارغ الصبر كأن قلبها دلها على سوء سيصيبها .



## - ٦٩ -

رسول الخليفة

أصبح أهل القاهرة والناس يتهامون عن رسول قادم من أمير المؤمنين العباسي ، وقد نصب فسطاطه في ضاحية القاهرة . وأخذوا يتكهنون عما عسى أن يكون مضمون رسالته . ويندر أن تأتي رسالة من الخليفة العباسي الا اذا كان هناك أمر مهم من عزل أو تولية ..

وكان ذلك الرسول حال اشرافه على القاهرة قد بعث رجلا من سعاته ينبيء القواد والأمراء بقدومه ، ليرسلوا من يستقبله على جارى العادة احتراماً للرسالة التي يحملها من خليفة الرسول. ولم يمض كثير حتى ضجّت المدينة وغصت الشوارع بالمارّة والوقوف ، ولاسيما في الشوارع الممتدة من باب النصر الى القلعة حيث يمر ذلك الرسول. واستعد الأمراء والقواد في القلعة للاجتماع وسماع الرسالة عند تلاوتها . وأكثرهم يظن انها تتعلق بسلطنة شجرة الدر ، والأرجح عندهم انها تثبت لها في المنصب على جارى العادة فيمن يولونه من السلاطين .. وتقاطر الأمراء والقواد الى الديوان ، وفي مقدمتهم عز الدين ايبك وغيره من الأمراء البحرية .. الا ركن الدين ، فانه كان لايزال غائبا في دمياط . أما شجرة الدر فقد كانت على سريرها في صدر الايوان

وعليها وثوبها الملكي الذي لبسته يوم الاحتفال بتوليتها منذ ثلاثه أشهر ومعها شوكار . وكانت هذه متأسفة لغياب ركن الدين فانها كانت تود حضوره

أما سلافة فكانت أعلم أهل القاهرة بفحوى تلك الرسالة ، اذ جاءها رسول خاص من قيمة قصر الخليفة المستعصم بالله ، كان مرافقا لرسول الخليفة .. وعلمت منه ان الرسالة تتضمن خلع شجرة الدر عن سلطنة مصر ، فكاد قلبها يطير من شدة الفرح .. وأجبت ابلاغ ذلك الى عز الدين ، وكان يتردد عليها في أثناء هذه المدة وقد تحابا وبلغ خبرهما الى شجرة الدر فاستاءت ، لكنها كظمت . فلما علمت سلافة بما تضمنته رسالة الخليفة ، بعثت الى عز الدين فجاءها فقالت له : « بلغنى انه جاءكم رسول يحمل كتابا من أمير المؤمنين فما هو فحواه ياترى ؟ .. »

قال عز الدين : « لا أعلم يا سلافة .. »

قالت سلافة : « وما ظنك أن يكون فحواه ؟ .. »

قال عز الدين : « قلت لك انى لا أعلم .. فهل أنت تعلمين ؟ »

فضحكت وقالت : « نعم أعلم .. وقد حدثتكَ عن فحواه منذ

ثلاثة أشهر .. ألا تذكر ؟ .. »

فأطرق وهو يفكر ، فتذكر حديثها الأول معه يوم جاءته الى

القلعة ، وقالت له يومئذ ان الخليفة لا يسلم بسلطنة شجرة الدر

فقال : « أظنك تعنين حديثنا عن شجرة الدر ؟ »

قالت بتهمك : « نعم .. عن ملكة المسلمين »

قال عز الدين : « أذكر أنك تنبأت بأن الخليفة لا يقبل سلطتها فهل جاء الرسول بهذه المهمة ؟ »  
 قالت سلافة : « جاء بهذه المهمة .. وفحوى رسالته خلع هذه المرأة عن المملكة »

فأدهشته هذه المفاجأة لأنه لم يكن ينتظرها ، واستغرب اطلاع سلافة على ذلك الخبر قبل أن يسمع به أحد ، والرسول لم يدخل القلعة بعد ، والكتاب لا يزال في حقيقته ، فقال لها :  
 « كيف عرفت ذلك يا سلافة ؟ .. هل أتاك علم الغيب ؟ .. »

فضحكت وقالت : « عرفته وتنبأت به قبل حدوثه لعلمي أن تلك السلطنة لا ترضى أمير المؤمنين . والآن كن حازما واعلم ان الرأى الذى ذكرته لك منذ ثلاثة أشهر هو الرأى الصواب ، هل تذكره ؟ .. »

فغلبت الدهشة على عز الدين وأحس بضعفه بين يدي تلك المرأة ، وأعمل فكرته فيما تطلبه منه ، فتذكر انها أشارت عليه يومئذ بأن يولى أحد أبناء الأيوبيين ويكون هو أتابكا ، ثم يغتنم الفرصة ويستقل بالسلطة بعد أن تستقر قدمه فيها ، فقال :  
 « أذكره .. نعم أذكره .. لكن ما هو السبيل الى اتمامه ؟ .. من الغلام الأيوبي الذى يمكننا تنصيبه ؟ »

قالت سلافة : « متى بلغتكم الى هذا الأمر أنا أدلك على واحد يصلح لذلك » ..

قال عز الدين : « قولى الآن اذ ربما لا تسنح الفرصة باعادة النظر » ..

قالت سلافة : « صدقت .. هل تعرف موسى بن صلاح الدين ابن مسعود بن الكامل ؟ »

قال عز الدين : « نعم أعرفه ، لكنه غلام لا يتجاوز سنه ثمانى سنين » ..

قالت سلافة : « لو كان عمره خمس سنوات لكان أصلح لما نريده .. هذا الغلام هو أولى الأيوبيين بهذه السلطنة ، ومتى كنت أنت أتابعه كان كل شيء فى يدك .. »

قال عز الدين : « ولكن من يضمن لى الأتابكية ؟ .. »

قالت سلافة : « أنا أضمنها لك بشرط أن لا تظهر ضعفا وأن تكون أنت المقترح لسلطنة موسى هذا .. وإتمام ذلك على .. »

قال عز الدين : « وهل تحضرين الاحتفال معنا ؟ »

قالت سلافة : « أحضر مع النساء من وراء الستار » فودعها وخرج من عندها ، وقد سيطرت على عقله بعد أن ملكت قلبه ..  
وحيثما وصل الى القلعة وجد الأمراء فى انتظاره ، وأكثرهم قلقا على غيابه شجرة الدر .. فقد علمت بغيابه وهى وراء الستار ، وكان قلبها دلها على تنافر بينهما . ومكثت تنتظر وصول الرسول وتلاوة الكتاب وهى لا تعلم ما هو مخبوء لها

## - ٢٠ -

أمر الخليفة

ونحو الظهر ماجت الأقوام في ساحة القلعة وجاء الخبر بوصول الرسول .. فتقدم الحاجب لاستقباله عند مدخل الايوان ، وقد وقف الأمراء من الجانبين وشجرة الدر على سريرها وراء الستار ومعها شوكار . وقد لاحظت شوكار اضطراب سيدتها وخوفها ، فأخذت تخفّف عنها وتطمئنها وتداعبها ، وهي تتجلد وتصغى لما يدور من الحديث في الخارج ، ثم سمعت عز الدين يقول : « أيها الأمراء .. هذا رسول مولانا الخليفة أمير المؤمنين المستعصم بالله - حفظه الله - ومعه كتاب من الخليفة سيتلوه علينا فاسمعوا له وأضربوا الطاعة لما يحويه لأنه من خليفة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) .. »

فصاح الجميع : « نحن مطيعون للرسول وخليفته »  
فتقدم حامل الكتاب ووقف على دكة وفضّته ، وأخذ يقرأ والناس سكوت كأن على رعوسهم الطير ، ويكاد الواحد منهم يوقف تنفّسه لئلا يشوّش عليه سمعه .. وهذا نص الكتاب :  
« من أبى أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر بالله أمير المؤمنين الى أمراء الجند والوزراء فى مصر . السلام عليكم . وبعد فقد بلغنا أنكم وليتم أمركم شجرة الدر جارية المرحوم الملك الصالح وقلدتوها أمور الدولة وجعلتموها سلطنة عليكم ، فاذا

لم يكن عندكم رجال يصلحون للسلطة فاخبرونا نرسل اليكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) لا أفلح قوم ولتوا أمرهم امرأة ؟ .. »

ولم يفرغ القارىء من تلاوة الكتاب حتى ضج الناس وعلت الضوضاء ، ولا تسك عن شجرة الدر وما أصابها حين سمعت ذلك .. لكنها كانت عاقلة حازمة ، فلما سمعت أمر الخليفة وعلمت انه لا مندوحة لها عن العمل به تجلدت وأومت الى الحاجب أن يزيع الستار المنصوب بينها وبين المجلس .. فأزاحه والتفت الناس نحو السرير وتهيئوا ، ولبثوا ينتظرون ما يبدو من شجرة الدر بعد تلاوة ذلك الكتاب فاذا هى تقول : « يا معشر الأمراء .. قد سمعتم ما أمر به أمير المؤمنين ، وطاعته فرض على كل مسلم .. لقد صدق - حفظه الله - ان النساء لا يصلحن للسلطة .. وأنا لم أقبل هذا المنصب الا عملا برأيكم .. أيها الأمراء والقواد .. ورغبة في استقرار الأحوال بعد اضطرابها . أما الآن وقد استقرت الأمور وسمعنا رأى مولانا الخليفة ، فانى أخلع نفسى وأطلب اليكم أن تختاروا من ترونه يتولى هذا الأمر .. وأنا أول خاضعة له »

فاستحسن مجبوها هذا التنازل منها لأنه دل على كبر نفسها وسعة عقلها .. ولم تستحسنه سلافة لأنها كانت تحب أن تتردد فيزولوها كرها ، على انها اكتفت بخلعها .. وحينما فرغت شجرة الدر من قولها ، خرج صوت من وراء حجاب يقول : « لا تقبل علينا سلطانا ان لم يكن من سلالة آل أيوب »

ولم يعرف الأمراء من أين خرج الصوت ، لكنه عبّر عن شعور كثيرين . فأمتنوا عليه - وهذا هو شرط النجاح في الاقتراحات العامة لمصلحة الأمة - يشترط أن يكون الاقتراح في محله يعبر عن شعور القوم .. أى أن يكون شعورهم بذلك سابقا للتصريح به . ولا عبرة فيمن هو المنادى به ، فإن الناس يتبعونه ويقولون قوله والغالب انهم مفلحون . أما اذا كان الاقتراح لم يسبقه شعور الأمة ، ولم تكن هى في حاجة اليه ، فيذهب صياح المقترح صرخة فى واد .. وقد يعود بالضرر

فالمصريون عند تولية شجرة الدر كان أكثرهم غير راضين عن توليتها ، ويطلبون تولية رجل من آل أيوب ، لكنهم أذعنوا خوفا من الجند . فلما خلعت وسمعوا صوتا يقترح ما يشعرون به أجابوا بالموافقة ، ولو لم يعرفوا المقترح .. وعلا الضجيج والصوت الذائب اختيار سلطان من آل أيوب . فتوجهت الأنظار نحو كبير الأمناء هناك ، وهو عز الدين أيبك ، كأنهم يستشيرونه فقال : « ان مولاتنا شجرة الدر قد برهنت بتنازلها عن الملك على انها مخلصة لمولانا أمير المؤمنين وانها حريصة على حقوق المسلمين . ونحن لم نكن وليناها هذا المنصب الا لأنها والدة المرحوم خليل من سلالة الأيوبيين . أما الآن فما علينا الا اختيار أحد أمراء تلك السلالة . واعلم ان منهم مولانا موسى بن صلاح الدين بن مسعود .. لكنه صغير السن » ..

فقاطعه حامل الكتاب قائلا : « لا يضره صغره فانك أتأبكه

وقائد جنده ومدير أموره .. فما رأيكم أيها الأمراء ؟ »  
فصاحوا جميعا : « هذا هو الصواب لا نرى أصوب منه »  
فاستغرب عز الدين قول صاحب الكتاب وهو قادم من بغداد  
كيف عرفه ورشحه لهذا المنصب .. فلما سمع مصادقة الجمهور ،  
وقف ساكنا .. فقال حامل الكتاب : « بما أنكم قد وافقتم على  
تولية موسى بن صلاح الدين فلنعمل ذلك الآن . وقد دفع التى  
مولانا أمير المؤمنين شارات السلطنة لألبسه اياها »  
قال ذلك ، وأشار الى أحد رجاله الوقوف هناك ، فدفع اليه  
حقيبة كالصندوق .. فأمره ففتحها ، وفرش ملاءة ، وأخذ يخرج  
ما فى الصندوق ويضعه فوقها والناس ينظرون . فكان أول شيء  
أخرجه خلعة سوداء هى شارة بنى العباس ، ثم عمامة سوداء ،  
وأخرج طوقا من ذهب للعنق وقيدا من ذهب للساق .. فلما صارت  
كلها على الملاءة قال : « هذه شارات السلطنة فأتوني بالسلطان  
موسى بن صلاح الدين لنلبسه اياها ، فقد أوصانى أمير المؤمنين  
أن لا أخرج من مصر الا وعليها سلطان من آل أيوب » ..  
فاهتم عز الدين باحضار ذلك الغلام ، ولم تمض مدة قصيرة  
حتى جىء به وهو طفل فى الثامنة من عمره .. فألبسوه تلك  
الشارات على قدر الامكان ونادوا به سلطانا ، على أن يكون  
عز الدين ابيك أتابكا له ومديرا لأموار الدولة عنه (١)

كل ذلك وشجرة الدر على سريها ترى وتسمع ، فلما فرغوا

(١) السيوطى - الجزء الثانى



من تنصيب السلطان الجديد وأرخوا الستار عليها تنفست الصعداء وأكبت على كتف شوكار ، وأخذتا في البكاء .. وشوكار تنجلد وتقول : « هلمى ياسيدتى نذهب الى غرفتك لئلا نفتضح » فأطاعتها ، ومشتا نحو الغرفة .. ولما وصلتا الى هناك ، أخذت شوكار تخفف عن سيدتها ، وهذه تتأوه وتتنهد ، وأخيراً قالت : « لا أعلم سبب هذا التغيير ، ولكننى أحسنت بالتنازل من تلقاء نفسى .. ولا تظنى اننى حزينة لاعتزال هذا المنصب الشاق ، وأنت أعلم الناس بما كنت أشكوه من ثقل أعبائه . ويكفينى انى أول امرأة تولت الحكم فى الاسلام، وأنت الآن تعزيتى الوحيدة » فلم يعجبها قولها لأنها أصبحت تفضل أن تكون تعزية ركن الدين ، فسكتت فابتدرتها شجرة الدر قائلة : « انما أتأسف لأنى لم أبق على كرسى الملك حتى ينال ركن الدين ما هو أهل له من الرتب العالية .. لكنه سينالها من سواى ، ولو كان هنا اليوم لنال شيئاً .. وربما كان هو المختار للأتابكية »

فانقبضت نفس شوكار عند سماع ذلك ، وتأسفت لفوات الفرصة ، لكنها عادت الى اطراء سيدتها ، وقالت : « انما يهمنى ياسيدتى أن تكونى سعيدة »

قالت شجرة الدر : « انى سعيدة بك يا شوكار كما تعلمين .. والحمد لله قد تخلصت من أعباء الحكم ، ولكننى ذقتها .. فلا أحسد أحداً عليها ولا أتمنى أن أعود اليها »

قالت شوكار : « صدقت ياسيدتى لأنى رأيتك منذ توليت

انسلطنة قلقلة خاطر ، وكنل قبلها منشرحة الصدر .. ملى يعول  
 ركن الدين ياترى ؟ .. »  
 قالل شجرة الدر : « سيعول قريبا .. انه حين يسمع بهذا  
 اللغير سوف يأتى .. وملى ألى تنالين ما وعدلك به » فأطرقل  
 وسكلك

## - ٢١ -

### لم يكن فى الحسابان

لم يمل ذلك النهار حتى خلعل شجرة الدر ، وولى موسى  
 ابن صلاح الدين ولقبوه بالملك الأشرف على أن ينوب عنه فى  
 تدبير الأمور عز الدين . وأما هذا فقد أحس ان ما ناله فى هذا  
 اليوم انما كان الفضل فىه لسلافة .. فلما انصرف القوم ، كان  
 أول شىء عمله أنه ذهب الى منزل سلافة ، فرآها جالسة جلوس  
 الملك الظافر وهى تضحك لنجاح مهمتها .. فلما دخل ألقى  
 اللحية ، فقالت : « ما رأيك أيها الأمير ؟ .. ألم تكن سلافة عاقلة  
 تفهم سرائر الأمور ؟ .. »

قال عز الدين : « صدقت والله انك جئت بالمعجزات .. ألا  
 تخبريننى كيف استطعلت الاطلاع على هذه الأمور قبل وقوعها ؟ »  
 قالت سلافة : « أما وقد علمل صدق مودلى لك ، فلا أخفى  
 عنك انى أنا السبب فىما رأىته من اللغير والتبديل بسبب  
 صداقتى لقيمة قصر اللخلفة المستعصم بالله .. فانى كنبت اليها

كتاباً ترتب عليه ما رأيت ، ولكنها اشترطت علىّ أمراً ضمنت لها تنفيذه ، ولم أقل لك عنه قبل الآن ، لعلمي انك لا ترى مانعاً من تحقيقه ..

قال عز الدين : « وما هو ؟ .. »

قالت سلافة : « هل تعدنى انك تفعله ؟ .. »

فقال فى نفسه : « ماذا عسى أن يكون طلبها ؟ .. » وخشى أن يكون فيه ما يسوءه ، لكنه لم يسعه الا الطاعة ، فقال : « انى فاعل ما تريدن .. »

قالت سلافة : « هذا كتاب قيمة القصر تقول فيه ان مولانا أمير المؤمنين بلغه وجود فتاة رخيمة الصوت تتمتع شجرة الدر بغنائها ، وهو يطلب اليّ أن أرسلها اليه حالا .. لأن أمير المؤمنين مغرم بالغناء وسائر وسائل الطرب .. هذا ما ضمنت لرسول الخليفة .. ضمنت له انى سأرسل معه جارية شجرة الدر هدية للخليفة .. »

قال عز الدين : « لعلك تعين المغنية شوكار ؟ »

قالت سلافة : « نعم .. اياها أعنى ، فماذا ترى ؟ »

قال عز الدين : « هذا هين علىّ .. وأظنه يسر تلك الجارية لأنها ستتقل من خدمة ملكة مخلوعة الى قصر خليفة عظيم » فأعجبها قوله : « ملكة مخلوعة » وابتسمت وقالت : « ولا يخفى عليك ان ارضاء الخليفة لا بد لك منه الآن ، وأنت ستحتاج

إلى رضا عنك اذا أحسنت التدبير وصرت سلطانا مستقلا ..  
أظنك فهمت مرادى »

فأوماً برأسه أنه فهم كل شيء ، وأسرع الى النهوض ، وأشار  
اليها مودعا وهو يقول : « ائذنى لى فى الانصراف للقيام بهذه  
المهمة »

قالت : « سر فى حراسة الله .. وشوكار ستسافر مع الرسول  
غدا .. أليس كذلك ؟ »

قال : « بلى .. » وتحوّل نحو القلعة وهو متتكر خوفا من  
أن يسترعى انتباه الناس . وكان فى أثناء الطريق يفكر فى سلافة  
واقنذارها وقد شعر بامتنان لها . وأحس بأنه لم يكن أمينا نحو  
حبيبته شجرة الدر .. ولكنه اغتفر لنفسه ذلك بما كان قد  
داخله من الشك من أمرها مع ركن الدين بالأمس . وكان يجب  
أن يؤجل مقابلة شجرة الدر الى الغد ريثما يهدأ روعها ، لكن  
الحاح سلافة بعثه على سرعة لقاءها

فلما دخل القلعة سار توا الى منزل شجرة الدر ، وكانت  
جالسة فى غرفتها مع شوكار ، وقد أخذت شوكار تعزف على  
العود وتغنى لتخفف عن شجرة الدر .. وحينما أقبل عز الدين  
على باب الدار ، سمع عزف العود فأشار الى الحاجب أن يخبر  
شجرة الدر بقدمه

## - ٢٢ -

العتاب والنفور

دخل الحاجب وأنبأها بذلك ، ولم ينتظر عز الدين جوابها  
علاذن فدخل بدالة الصداقة .. فلما أقبل على الغرفة رأى شجرة  
الدر بثياب المنزل وقد عصبت رأسها بعصابة مزركشة لا تريد  
بها الزينة ، لكنها أرادت تخفيف صداع ألم برأسها على أثر ما  
كابده في ذلك اليوم ، فلما رأته داخلًا ثققلت في النهوض وهي  
تألم من الصداع . ولم يكن الصداع وحده سبب ثققلها ، لكنها  
كانت قد شعرت بتغير قلبه وتحول محبته .. ولم يفنتها أمر سلافة  
وتردده عليها قبل خلوعها ، وتأكدت تغيره في ذلك اليوم لأنها كانت  
تراقب حركاته .. وعلمت انه حال انفضاض المجلس ذهب اليها  
توا ، وكان ينبغي له أن يبادر الى شجرة الدر يؤانسها ويخفف  
عنها . هذا ما كانت تتوقعه لو كان لا يزال على عهدہ معها . فلما  
رأته داخلًا انقبضت نفسها واختلج قلبها في صدرها عتبا وغيظا  
أما هو فأسرع اليها وهي تتحفز للوقوف ، وقال : « اجلسي  
ياسيدتي لا حاجة الى وقوفك .. اني أراك مريضة .. فماذا  
أصابك ؟ » ..

فعدت الى مقعدها وهي تصلح العصابة وتلنف بالمطرف  
وتتكمش كأن البرد يتمشى في عروقها .. وظلت ساكنة  
فجلس عز الدين على مقعد بين يديها ، وقال : « أظنك مصابة

بالصداع الذى كان يتردد عليك أحيانا .. «  
 فقالت شجرة الدر : « انه صداع شديد لم أصب بمثله من  
 قبل .. لا أراك لله مثله يا عز الدين وحمالك من غوائله » ..  
 فلم يعجبه قولها وأدرك انها تعنى شيئا تضرره ، فقال : « لا  
 ينجو أحد من الصداع يا شجرة الدر .. وليس الصداع ملة  
 يؤبه له ، ولا يلبث أن يزول »

قالت : « انه يختلف عما تعودته قبلا .. وتغيير العادة صعب  
 أليس كذلك ؟ » وظهر العتب فى عينها  
 فأدرك مرادها ، لكنه تجاهل وقال : « ان الانسان لا يستطيع  
 أن يتعود الآلام ، فاذا عاودته رآها فى كل مرة جديدة ، كأنه  
 لم يذوقها من قبل .. ولو علمت انك مصابة بالصداع لأسرعت  
 اليك قبل هذه الساعة »

قالت : « لا حاجة الى تعب قلبك مع هذه الملكة المخلوعة ،  
 وأنت الآن فى شغل بأمور الدولة وغيرها .. »

قال : « وهل تظنين مهام الدولة تشغلنى عن شجرة الدر ..  
 وقد كان يجب أن أبادر الى تهنئتك بالنجاة من أثقال هذه المهام ..  
 وأعجبنى منك ما أظهرته فى هذا الصباح من رباطة الجأش وسعة  
 الصدر . وقد أحسنت بكل ما صدر منك فلم تتركى لأمر الخليفة  
 بالخلع قوة أو أثرا .. » وتحننح وبلغ ريقه وقال : « والحق يقال  
 ان ذلك الأمر اذا ظل له أثر فانما يكون أثره موجها الينا .. أو  
 الى على الخصوص لأننا ألبانك الى قبول السلطة .. ولم يدر

في خلدنا أن يكون ذلك مخالفا لارادة أمير المؤمنين «  
فأحست من خلال أعذاره بثقل المن عليها بأنه هو الذى جعلها  
ملكة ، فقالت : « أنتم أخطأتم فى الاقتراح ، وأنا أخطأت فى  
القبول .. على ان نزولى عن عرش الملك لم يترك أثرا كبيرا فى  
نفسى بقدر ما ترك .. » وسكتت وهى تنظر اليه نظر العتاب  
فأدرك انها تشير الى تغييره ، فبادرها قائلا بلهفة : « أخشى أن  
يكون قد داخلك شك فى صداقتى و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « لا.. لا.. لم يداخلنى شئ .. ولكننى  
تعلمت ان الانسان لاينبغى أن تغره ظواهر الأمور دائما .. والذى  
أراه الآن أن تترك العتاب ونروِّح عن نفوسنا بلحن نسمعه من  
شوكار » والتفتت الى شوكار ، وكانت قد وضعت العود من بين  
يديها ، فتناولته وأصغت لما تأمرها به سيدتها فاذا هى تقول لها :  
« أنت يا شوكار تعزيتى الوحيدة الآن .. ولا أخشى تغييرك ..

غنى لحنا محزنا » قالت ذلك وتلألا الدمع فى عينيها  
فتأثر عز الدين من منظرها ، وخاصة بعد ما رآه من تعلقها  
بشوكار وهو قادم ليأخذها منها .. فظهرت البغته فى وجهه ،  
لكنه تشاغل بسماع الغناء ، وهو يظهر انه يسمع ، والحقيقة انه  
وقع فى حيرة .. ولم يعد يعلم ماذا يفعل ، والوقت لايساعده على  
تأجيل مهمته . قضى برهة وهو يفكر فى حيلة ينتحلها للدخول  
فى الموضوع وطلب شوكار منها .. فلما فرغت شوكار من الغناء  
التفت عز الدين الى شجرة الدر وهو يتنسم وقال : « يظهر انك

تحوّلت عن كل شيء الى شوكار .. أليس فى قصرک من يحسن  
العناء سواها ؟ »

قالت شجرة الدر : « لا أعنى العناء فقط ، لكننى أعنى انها  
تؤانسنى ، وأعتقد أنها تجبنى ولا أخشى أن تتحوّل عن محبتى »  
فأدرک عز الدين انها تشير الى تغييره عليها .. لكنه صمم على  
أن يصل الى مراده ، فقال : « ولكن ليس من الحكمة أن تعلقى  
آمالک بها الى هذا الحد .. أنا آتیک بمغنية أحسن منها متى  
شئت .. »

فقالت شجرة الدر : « لا .. لا أريد سواها .. »  
فقال عز الدين : « الأفضل أن تطلبى سواها .. »  
فقالت وقد أحست بشيء يضره : « هل تنوى أن تسلبنى  
هذه التعزية أيضا ؟ » واختنق صوتها

قال عز الدين : « لم أكن أحسب أن لها هذا المركز لديك ،  
ولولا ذلك لما وافقت على أخذها »

فأجفلت وصاحت : « أخذها .. من يأخذها منى ؟ لا .. لا ..  
انها جاريتى وأعزها معزة اولادى .. لا أسمح بها لأحد أبدا .. »  
فتشاغل بحك أنفه بسبابته وهو مطرق ، ثم قال : « صدقت ،  
يحق لك أن تحصى عليها ولا تسمحى بها لأحد.. ولكن الانسان  
لا يستطيع أن يفعل ما يشاء دائما .. ولا سيما اذا كان الطالب  
لا يمكن رد طلبه »



فنهضت ونظرت اليه بدهشة وقالت : « من طلبها ؟.. قل  
يا عز الدين .. »

قال عز الدين : « لا تغضبى ياسيدتى .. ان طالبا أعظم  
رجل بين المسلمين »

فجلست وقالت : « أظنك تعنى المستعصم بالله .. أمير المؤمنين.  
أما كفاه خلعى عن الملك حتى يطلب جاريتى اليه .. »

قال عز الدين : « يسوءنى انى لا أرى مندوحة عن اجابة طلبه  
وهو أمير المؤمنين ، ونحن تحت رعايته ، وهو خليفة الرسول.  
صلى الله عليه وسلم »

قالت شجرة الدر : « وكيف طلبها ؟.. ومن جاء ليأخذها ؟ »  
قال عز الدين : « رسول الخليفة حامل كتابه وقد رأيتـه

بالأمس » ..

فتناثر الدمع من عينيها رغم ارادتها ، والتفتت الى شوكار  
فأرتها مطرقة ساكنة ودموعها تتدحرج على خديها .. فأثر منظرها  
فى نفسها ، وهاج غضبها وقالت : « وهل وافقتـه على ذلك  
يا عز الدين ؟ .. »

قال عز الدين : « وهل فى الامكان رد طلبه ؟.. وقد رأيتـه

أمره نافذا فيما هو أعظم من ذلك كثيرا »

فوقفت وأخذت تمسح عينيها بمنديلها وهى تكاد تتميز من  
الغيظ ، ثم رفعت بصرها اليه ، وقالت : « ولكن هذه الفتاة  
مخطوبة ! » ..

قال عز الدين : « أعلم .. وانما أعلم ان طلب أمير المؤمنين يجب على أن أنفذه ، ومن كان له شأن فيه فليطالب أمير المؤمنين .. » قال ذلك ونهض وقد ظهر الاصرار والجد في حركاته ثم قال : « فلتستعد شوكار للسفر غدا صباحا ، واعلمى انها ستسافر معززة مكربة وانه لا خوف عليها فهى مطلوبة لأمر المؤمنين » وخرج ..

ولم يكذب يبلغ الدهليز حتى سمع بكاءها وشهيقها .. لكنه تجاهل وأوصى الحراس هناك أن يراقبوا لئلا تفر خلصة في أثناء الليل ..

### - ٢٣ -

#### ركن الدين وشجرة الدر

وقد أحسن بهذه الوصيَّة لأن شجرة الدر كانت قد عزمت على انقاذها ، فلما تحققت من استحالة ذلك عظم الأمر عليها ، وتمكنت البغضاء من نفسها ، وأصبح همها التخفيف عن شوكار والتهوين عليها ، وتجلدت أمامها وبينت لها ان ذلك الأمر لا مناص من الطاعة فيه ، ولكنها ستبذل جهدها في انقاذها ، وأكدت لها ان ذهابها لا خوف منه

أما شوكار ، فكان أكبر همها أن ترى ركن الدين ، وأن تعرف احساسه بعد أن يسمع ذلك الطلب .. وما الذى يبدو من غيرته أو فتوره ، ولكن لاسبيل اليه وهو بعيد .. والوقت لايساعد

على استقدمه في ذلك الليل ، فاستسلمت وتوكلت .. وكان ذلك في عرف تلك الأيام شيئا عاديا .. لما تمكن في نفوس الناس من امتياز الخلفاء والأمراء ، وان أولئك الجوارى مثل سائر المتاع لا ارادة لهن ولا رأى ، فتعودن الاستسلام لما يطرأ عليهن في الانتقال من سيد الى سيد . ولولا خوف شوكار أن تخسر ركن الدين لكان انتقالها الى بيت الخليفة يحسدها عليه كثيرات ومع ذلك فلم يكن لها أن تختار

وفي صباح اليوم التالي ، حملها بعض الخصيان الى معسكر رسول الخليفة ، بعد أن ودعت مولاتها وداعا يفتت الصخر .. لكن شجرة الدر أكدت لها انها لن تتركها ، ولا بد من أن تهبط لها أن تقترن بركن الدين ، فسافرت الى بغداد وقلبها في مصر أما شجرة الدر فقد شق عليها فراق شوكار كثيرا ، لكن غضبها من عز الدين انما كان سببه الغيرة من سلافة .. وحدثتها نفسها ان تلك الجارية هي سبب مصائبها ، لكنها تقمت على عز الدين خيائته المضاعفة ، فقد خانها في قلبها وأحب سواها .. وخانها في منصبها ، فسهل استبدالها بغيرها ، ولم يبد اعتراضا على خلعها وهو قائد الجند وضاحب القوة الفعالة ، فاضطرت الى الاذعان لحكم الزمان ، اذ لم تر حيلة الى غير ذلك على انها تذكرت ركن الدين وهو آت عما قليل الى القاهرة ، فكيف تقابله ؟ .. وماذا تقول له ؟ ..

أما هو فلما بلغه ماحدث من الانقلاب في القاهرة أسرع اليها .

فوصل بعد سفر شوكار ، وتوجه الى شجرة الدر قبل أن يقابل عز الدين . فأخبرته بما جرى واهتمت على الخصوص بمسألة شوكار ، وأكدت له انها بذلت جهدها في اقناع عز الدين لبيقيها ، فأبى وبالغت في وصف قخته وفضاظته كى توغر صدره عليه ..

وكان ركن الدين لا يزال بشباب السفر وهو يسمع حديثها فعظم عليه الأمر ، وقام في خاطره لأول وهلة أن عز الدين فعل ذلك نكاية فيه ليحرمه من شوكار .. لكنه كان رابط الجأش واسع الصدر حريصاً على سره ، فلم يجب بكلمة واحدة .. مع ان الغضب ظهر في عينيه ، وكانت شجرة الدر تلاحظ ذلك فيه فتعيد الشكوى وتتوقع أن يقول قولاً يشفى غليلها ، ولا يشفيه الا أن يتوعد عز الدين بالقتل .. فقد تحول حباها له الى كره بعد أن ظهرت خيائته ..

وبعد حديث طويل وهو ساكت ، ملكت سكوته ، فقالت : « ما بالك يا ركن الدين ؟ .. لملك سررت بذهاب شوكار من يدك كما سررت بذهاب الدولة منى .. وكلاهما من فضل ذلك الخليفة الخليع ! .. »

فعظم عليه ذلك التعبير عن الخليفة ، فقال لها : « وأى خليفة تعنين ؟ » ..

قالت شجرة الدر : « أعنى المستعصم صاحب بغداد الذى استعظم أن يتولى المسلمين امرأة ، ولم يستعظم أن يتولاها من رجل

عديم المروءة ضعيف الرأى ، مشتغل باللهو والجوارى والقيان  
وسماع الغناء » قالت ذلك وقد ظهر الغضب فى عينها ، وتاقت  
نفسها الى معرفة وقع هذا القول من ركن الدين ، فوجدته لم  
يزدد الا اطراقا وسكوتا

ولو أوتيت قراءة الأفكار لعلمت ان سكوت ذلك الأمير أدل  
على غضبه من الكلام ، وأنفذ لغرضه من السهام . وقد تنازعته  
عوامل كثيرة ، كل واحد منها يقيم ويقعد .. وقامت فى نفسه  
أمور لو اطلعت عليها شجرة الدر لاشتفى غليلها وخفت تقمتها ،  
لأنها كانت تستحثة على المسير ذراعا وهو يريد أن يمشى ميلا  
أو فرسخا ..

فلما رأته لايزال ساكنا ، أشكل عليها أمره .. فقالت : « تكلم  
ياركن الدين ، تكلم لقد ضاق صدرى من سكوتك ، لعلك لم  
تصدق قولى ، تمهل انى سوف آتيك برجل يعرف هذا الخليفة  
حق المعرفة ، وقد جاء من بغداد أمس ، اسأله وهو ينبئك عن  
أفعال ذلك الخليفة .. تفضل اجلس وأنا أبعث به اليك الساعة »  
فجلس وهو يلعب شاربه ولجيته بيده ، ويوشك أن يقتلع  
شعرهما بأنامله من فرط التأثر ، وهو لا يشعر .. وبعد قليل  
دخل البغدادي ، فلما رآه ركن الدين عرفه فانتبه له وناداه  
قائلا : « سبحان »

فصاحت شجرة الدر : « قد أنطقك الله بعد طول السكوت ،  
الحمد لله .. الفضل فى ذلك لسبحان حفظه الله ، قل ياسبحان ما

الذى تعرفه عن المستعصم صاحب بغداد.. ولا تخف من التصريح  
فإن ركن الدين صديقنا ، قل ما قلته لى البارحة ..

## - ٢٤ -

### التردد

وكان سحبان قد عاد من المهمة التى بعثته فيها سلافة ،  
وقضاها كما تريد .. فلما جاء الى بيتها وقص عليها ما فعله لم  
يجد منها عطفًا ، ثم لاحظ تردد عز الدين ورأى جفاء منه أيضا ،  
فتحوّل حبه لسلافة الى بغض ، وتقم عليها وعلى عز الدين .. وهو  
ناقم على تلك الدولة بأسرها لأنه شيعى من أهل بغداد ، وقد  
برحها فرارا من ظلم العباسيين واضطهادهم الشيعة بحيث لم يعد  
فى امكانه الصبر على الضيم هناك .. فجاء الى القاهرة منذ بضعة  
أعوام ، واجتمع بمن فيها من الشيعة ، فاشتركوا فى التشاكى  
وهم صابرون حتى تسنح الفرصة لعلهم يستطيعون أن يستعيدوا  
الأمر للعلويين ، كما كان فى أيام الفاطميين . وكان سحبان ذا  
ثروة وتجارة واسعة ، وقد أحب سلافة وكلفته بتلك المهمة كما  
علمت ، فلما عاد شق عليه تغييرها ، ولم يجد خيرا من أن يثير  
غضب شجرة الدر عليها ، وعلى العباسيين ، وعلى سلطانهم بمصر  
جملة .. وهو يعلم انه سهل انقيادها اليه لما هى فيه من الغضب  
على منصبها ، وعلى خيانة عز الدين لها .. فجاء بالأمس بوصفه  
تاجرا ، وكانت تعرفه كما تعرفه سلافة.. فأظهر انه قادم من بغداد

بسلع جديدة تليق بها ، وتطرق في الحديث حتى أثارها على الخليفة ، وأكد لها خيانة عز الدين .. فكتمت ذلك

فلما جاء ركن الدين قصت عليه ما عرفته ، ولأجل التأكيد استقدمت سحبان كما رأيت ..

فلما رآه ركن الدين بشراً له فألقى التحية ، فدعاه ركن الدين الى الجلوس ، فقالت شجرة الدر : « كيف فارقت أمير المؤمنين يا سحبان ؟ » وضحكت

فقال سحبان : « فارقت رجلا لا هم له الا سماع الغناء والاشتغال بالطعام واللهو » ..

قالت شجرة الدر : « وكيف ترى دولته ؟ »

قال سحبان : « انى أخشى على دولته من أهلها .. ان لم أخف عليها من المغول ، فقد أوشكوا أن يحملوا عليها والناس خائفون . أما الخليفة فلا يهमे غير الطرب واللهو ، واذا ظل على هذه الحالة فالدولة ذاهبة لا محالة .. »

فضحك ركن الدين وقال : « هل تذهب دولة الباسيين ؟ .. قد سمعت أصحاب الأخبار يؤكدون انها تبقى أبد الدهر ولا يمكن أن تخلو الأرض منها »

قال سحبان : « يقولون .. ولكن الواقع انها ذاهبة لا محالة »

قال ركن الدين : « هل تخلو الدنيا من خلافة ؟ »

فقال سحبان : « كلا يامولاي .. »

قال ركن الدين : « فمن أين نأتى بالخليفة ؟ .. ومن يشبت

سلاطيننا على مصر ؟ »

قال سحبان : « ألا يصح التثبيت الا اذا كان من العراق ؟  
ألا يصح أن يكون من مصر؟.. ألم تكن مصر هذه خلافة زاهية  
منذ أقل من مائة سنة ؟ ألم تكن أحسن حالا وأوسع جاها ؟ .. و.. »  
فلم يصبر عليه ركن الدين حتى يتم كلامه ، فقال له : « أظنك  
تعنى دولة العبيدين ، ولكن أولئك من الشيعة »

فقال سحبان : « وماضى انهم شيعة أو سنة ، أليسوا مسلمين  
من قريش ؟ وانما الفرق ان الخلافة يكون مركزها في هذه  
البلاد ، فيزداد عمرانها وتتسع تجارتها وتعمر أساطيلها وتمتد  
فتوحها ، وتصير العراق امارة من اماراتها بدلا من أن تكون  
صاحبة الأمر عليها »

وكان سحبان يتكلم وركن الدين شاخص اليه مستغرق فيما  
يهدف اليه من كلامه ، ليستطلع حقيقة ما يضمرة .. وهو  
يعلم غرض الشيعة ضد السنة ، فصدق من كلامه ما يوافق  
غرضه ، ولم يبد ملاحظة ولا صريح بما جال في خاطره .. وما زاد  
على قوله : « لقد أفدتنا يا سحبان جزاك الله خيرا » ونهض يريد  
الانصراف فنهض سحبان واستأذن ، وانصرف وقد أدهشه  
سكوت ركن الدين وتكتمه ، وقال في نفسه : « انه رجل لا  
يؤمن جانبه » ..

أما شجرة الدر فلم تكن أقل دهشة من سحبان ، فلما خرج  
قالت : « يا ركن الدين قد آن لك أن تتكلم ولا أزيدك شيئا على



ما سمعته من تضعع العباسيين في بغداد ، ولا عن حال السلطنة المصرية ، فان سلطانها غلام سنه ثمانى سنوات.. والحكومة كلها في يد أتايكه عز الدين » قالت ذلك وصرّت على أسنانها غيظاً قال ركن الدين : « أراك غاضبة على عز الدين .. لعلك غضبت لأنه سمح بإرسال شوكار الى الخليفة لتكون عنده في جملة المغنين ؟ » ..

قالت شجرة الدر : « نعم .. هذا هو سبب غضبي الرئيسى ، ولى على عز الدين أمور أخرى تخصنى »

فقال ركن الدين : « وهل ذهبت شوكار راضية ؟ »

قالت شجرة الدر : « كلا .. انها ودعتنى باكية وهى تذكر ركن الدين ، وأوصتنى بأن أقول لك انها باقية على حبك لاترضى عنك بديلا ولو كان الخليفة نفسه ، وأنا أكدت لها انك لن تتخلى عنها .. ان البطل ركن الدين سيكون ركنا قويا لنا ، وأعنى بقولى ( لنا ) أنا وهى ، لأنى أصبحت الآن وحيدة .. وهذا عز الدين قد شغل بسواى وبمنصبه ونسى الصداقة .. لا بأس ليكن كما يشاء ، والله مع الصابرين .. »

قال ركن الدين : « اذن .. شوكار ما زالت على حبها لى .. فهل ترين أن لا أكون أنا مثلها ؟ »

قالت شجرة الدر : « لاشك عندى انك ستفانى فى سبيل انقاذها والانتقام لها .. كيف وجدت قول سبحان من حيث الخلافة الفاطمية ؟ »

قال ركن الدين : « لم يعجبني قوله .. ان الرجل يطلب خلافة  
شيعية ، وهذا لا يصح ولا يليق بنا .. ولكنني لم أجه سلبا  
ولا ايجابا . ولا أقول شيئا الآن على كل حال بل أترك ذلك الى  
حينه ، والأمور مرهونة بأوقاتها .. أستأذنك ياسيدي .. » قال  
ذلك وهم بالخروج ..

فقال شجرة الدر : « في حراسة الله »

- ٢٥ -

### المناجاة

ذهب ركن الدين من بين يدي شجرة الدر ، وقد خلف أثرا  
عميقا في قلبها .. رأت منه في ذلك الموقف ما لم تره من قبل ،  
وعظم أمره في خاطرها .. وقد زادها تهيئا منه ، تكتمه لما يجول  
بخاطره .. فما هدد ولا توعد ولا نقم ، ولكنها كانت تقرأ ذلك  
كله على أساريه وفي عينيه ..

أما هو فسار توا الى غرفته في القلعة .. ولم ينبه أحدا الى  
مجيئه .. وأجل لقاء الأتابك عز الدين الى الغد .. دخل غرفته  
وأغلق بابها وأخذ في نزع ثيابه وهو غارق في التفكير فيما سمعه  
في ذلك اليوم من الأمور الغريبة . وهو لا يزال في مقتبل العمر  
قليل الاختبار . وتلك أول مرة فطن فيها الى مطامع الرجال  
الكبار على أثر ما سمعه عن قلب السلطنة بمصر ، وما هي عليه

الخلافة في بغداد ، ولم يفته غرض سحبان من ذم الخلافة العباسية والثناء على الخلافة الفاطمية .. ولا انطلى عليه قصد شجرة الدر من المبالغة في سيئات المستعصم والتحريض عليه . وأدرك ما في نفسها من النقمة على عز الدين ، وانها اذا أحبت فوز ركن الدين فانما تريده انتقاما من الذين أساءوا اليها .. مرّ كل ذلك في خاطره وهو يبدل ثيابه ويلبس ثوب المنزل ويتخفف بعمامة صغيرة .. وجلس على فراشه وهو لا يزال يفكر ..

فرسخ في ذهنه ان شجرة الدر وسحبان انما حرصاه على طلب السيادة ، لا حبا له بل انتقاما لنفسيهما .. ولم يجد ضيرا في ذلك ولا رآه غريبا ولا عده خداعا لأنه كان عاقلا حكيما ينظر الى الأمور من حيث حقيقتها . فلم يكن يرجو من صديقه مساعدة ليس له من ورائها مصلحة ، لعلمه ان الناس لا يأتون عملا بلا قصد ، ولا يقدمون على أمر ان لم يتوسموا من ورائه نفعا لهم . ومن زعم انه يفعل الخير بغير مقابل ولمجرد نفع الآخرين ، فقد أخطأ أو وهم أو كذب . فاذا علمنا هذه الحقيقة سهل علينا أن نعامل أصدقاءنا معاملة سليمة ، فلا نتوقع منهم فوق المستطاع .. ولا نستتبع منهم أن ينظروا الى مصلحتهم فيما يخدمون به مصلحتنا ..

كان ركن الدين واثقا من هذه الحقائق .. وأدرك غرض صاحبيه من ذلك التحريض ، فقبله شاكرا وعزم على الانتفاع به ، لكنه فضل كتمان مقاصده الى حين الحاجة . فلما جلس على

فراشه وهو وحيد في تلك الغرفة ، طفق يحدث نفسه قائلا :  
« أخذوا شوكار منى .. أخذها الخليفة اليه في بغداد ليسمع  
غناءها ، وهى نعمة قلّ من ينلنها من الجوارى الحسان .. أرادت  
شجرة الدر أن تثير غضبى على المستعصم لأنه فعل ذلك ، وهل  
يلام لأنه طلبها اليه وقد رفع قدرها وزادها نعمة ؟.. لا يحق لى  
أن أقم عليه ، أو أعد عمله اساءة لى ، لأنه لم يتعمد أخذ شوكار  
وهو يعلم انها خطيبتى أو زوجتى . وقد يقال ان هذا الخليفة  
ضعيف أو محب للهو يجب قتله أو خلعه لأجل ذلك .. اذن هذا  
معقول . ولكن من يضمن أن خلفه لا يكون أكثر ضعفا منه ؟..  
ومن يعترض نفسه للخطر فى سبيل خلعه أو قتله وهو لايرجو أن  
ينال حظا لنفسه من السيادة . وقد أضحكنى رأى ذلك الشيعى  
باحياء الدولة العبيدية أو غيرها من العلويين بمصر، اذا ما الفائدة  
لنا من احيائها ؟.. فمتى صارت مصر خلافة لايبقى مجال لطلاب  
السلطنة ، أى لا تبقى حاجة الى السلاطين .. أما اذا بقيت  
الخلافة العباسية فى بغداد تثبت السلاطين بمصر - وكان سلطان  
مصر يكاد أن يكون مستقلا - غير ان ذلك لا يمنع مجاراة  
الرجل ومصانعته لعل فى سعيه نفعا يأتى عن غير قصد منه . واذا  
لم ننجح فلا ضير من مسيرته »

ولما بلغ الى ذكر سلطنة مصر ، نهض من الفراش وقد هاجت  
مطامعه ، وتمشى فى الغرفة لحظة وهو مطرق ثم قال : « سلطنة  
مصر ؟ انها أفضل من خلافة بغداد .. هل أطمع فيها أنا ؟.. نعم

انى طامع فيها ، ولكن لو قلت ذلك للناس استجهلونى .. وقد  
 أكون متطرفا فى مطامعى ، لكننى يجب أن أسعى منذ الآن .  
 احذر يا ركن الدين أن تجعل أحدا يشعر بذلك »  
 وسمع وقع حوافر جواد مار أمام غرفته فانتبه لنفسه ، وتذكر  
 سفر شوكار ، فقال : « هل أتغافل عن شوكار لا أطلبها ؟ .. انى  
 أحبها ، وان كان ذلك الحب جاءنى فى أول الأمر تكلفا ، لكنه  
 تمكن من قلبى .. ويكفى انها تحبى وتتوقع منى اتقادها ،  
 هذا اذا ظلت هى على ودادى بعد دخولها قصر الخليفة .. »

## - ٢٦ -

### ضوء القمر

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فعزم على أن يقضى بقية  
 يومه مرتاحا ، على أن يبكر فى الصباح لمقابلة عز الدين والسلطان  
 الجديد وتهنئته بما ناله ، ثم ينظر فيما يفعله ، فتناول العشاء  
 واستراح قليلا .. فلم يشعر بحاجة الى النوم لشدة ما جاش فى  
 صدره .. واستولى عليه الأرق  
 فلما أسدل الليل نقابه تامل بعباءته وخرج يتمشى فى فناء  
 القلعة نحو الجبل ، والجو صحو ، والقمر قد تكبد السماء ،  
 وظهرت الطبيعة بأبهى ما يكون من الجلال والهيبة ، ويحلو  
 للمفكر فى مثل تلك الليلة أن يقف على جبل أو فى واد أو حديقة

يناجى نفسه فى هدوء وسكينة كأنه يعهد بسره الى القمر ، أو يخاطب الطبيعة ويباحثها

وقد علمت ما كان فيه ركن الدين من الهواجس على أثر ما تراحم فى ذهنه من المشاريع والمطامع .. فخرج وهو ملتف بالعباءة فلم يعترضه الحرس ، وتسلق الجبل فى ضوء القمر حتى بلغ الى سطحه ، فوقف والتفت الى القاهرة وما فيها من الحدائق وخلفها النيل ينعكس ضوء القمر على مائه ، وخلف ذلك الأهرام وقمها تناطح السحاب ، وحولها بساتين النخيل والجميز، لا يظهر منها الا أشباحها كالظلال ، فجلس على صخر خلف بناء خرب أصله مسجد أو قنعة ، ولبت هادئا ساكنا كأنه يتأمل مناظر الطبيعة وقد يتهيب من سكوتها ، وأفكاره تنتقل به من موضوع الى موضوع ونصب عينيه شوكار وأين هى ، ويعترض تفكيره فيها مطامعه فى السلطنة وهل ينالها .. وضوء القمر يكبر أشباح الفكر فتتعاظم الأوهام حتى تظهر كالحقيقة

وبينما هو ساكت مطرق، اذ سمع خفيفا يشبه انسياب الثعبان على التراب فلم يخش ذلك ، لكنه لفت انتباهه الى انفراده هناك واستغراقه فى هواجسه .. فهممّ بالنهوض ، واذا هو يسمع قهقهة على مقربة منه .. فالتفت فلم ير أحدا ، فأوشك أن يتوهم ذلك الصوت من أصوات الجان .. وكانت هذه الخرافات شائعة فى تلك الأيام ، لكنه ما لبث أن سمع وقع أقدام خلف البناء الخرب من الجهة الأخرى ، فسكت .. لا خوفا ، ولا تلعصا ، لكنه لم

يكن يريد أن يشعر أحد بخروجه في تلك الليلة من القلعة  
وأصاخ بسمعه فاستنتج من مجمل ما سمعه ان هناك أناسا  
يتسامرون .. فساقه حب الاستطلاع الى الاستماع ؛ وان يكن  
ذلك مخالفا لما فطر عليه من البسالة والانفة . لكن حب الاطلاع  
على المخبات من جملة طبائع الانسان .. وهو لم يسع اليه  
بالتجسس ، وانما سيق اليه مصادفة ..

وقد زاده رغبة في التصنت انه سمع صوتا يشبه صوت  
سحبان ، وهو حديث العهد بسماعه في ذلك اليوم .. سمع ذلك  
الرجل يقول لمخاطبيه : « ان سلافة هذه قد أدهشتني بدائها  
ومكرها » ..

فأجابه الآخر : « أظنك تعنى قيمة قصر الملك الصالح .. هل  
هى من دهاة النساء ؟ .. »

فقال سحبان : « مهما قلت فيها لا تستطيع أن تحيط بوصفها ،  
أما أنا فقد خبرتها بنفسى .. أرأيت هذا الانقلاب الذى جرى أمس  
والتبديل الذى حصل فى السلاطين ؟ .. أرأيت خلع شجرة الدر ،  
وتنصيب الملك الأشرف ؟ .. انها هى وحدها السبب فى ذلك كله »  
فقال الآخر : « هذه مبالغة منك ياسيدى .. كيف يتأتى لها  
ذلك ، وهى هنا والخليفة فى بغداد ؟ .. لملك توهمت هذا فيها  
حين رأيت عز الدين ايبك يتردد عليها حتى أفسدت ما بينه وبين  
شجرة الدر ، ولكن هذا .. » ..

فقطع سحبان كلامه قائلا : « أنا أقول لك عن ثقة .. ان

سلافة وهى فى القاهرة قلبت الحكومة وبدلت السلاطين «  
فقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « يظهر ان نموذها هناك عظيم جدا ، وكلامها مسموع  
فى قصور الخلافة »

فقاطعه الآخر قائلا : « صدقت لأنها هى فى الأصل من جوارى  
ذلك الخليفة وقد أهديت للملك الصالح .. ولكن قد يكون فى  
قولك مبالغة » ..

قال سبحان : « انى أقول لك شيئا خبرته بنفسى » وخفت  
صوته وقال : « أنا أخذت كتابها بيدى الى بغداد .. فلم يكن  
الا مسافة الطريق حتى جاء الجواب بخلع شجرة الدر .. و .. »  
فضحك الرجل وقال : « ولكن ما الذى أدخلك فى هذه  
المهمة ؟ وما هو شأنك مع هؤلاء الأتراك يا سبحان ؟ .. »  
قال سبحان : « لا يهمك أن تعرف تفصيل ذلك ، ولكننى  
وجدت هذه المهمة قد تساعدنا فى مشروعنا ، وكنت أحسب ان  
خلع شجرة الدر على هذه الصورة يفضى الى ثورة تحقق لنا  
الأهداف المعروفة » ..

- ٢٧ -

كشف السر

فلما سمع ركن الدين هذا الحديث رأى فيه فائدة له ، فاغتفر



تصنته ومكث لسماع بقيته ، فسمع رجلا آخر يقول : « لقد أسأت ياسيدي بهذه المهمة لأنك أخرجت الدولة من يد امرأة الى يد رجل قوى ، أعنى عز الدين .. لأنه لا يلبث أن يخلع ذلك السلطان الغلام ويقبض هو على الدولة بيد من حديد .. والحقيقة على ما أرى انك قمت بهذه الخدمة طمعا فى رضى سلافة .. انها فى الحقيقة بارعة الجمال .. »

قال سحبان : « صدقت .. انها جميلة .. وربما خطر لى أن أنال رضاها ، لكن المهمة فى أصلها خدمة للغرض المعروف »

فقال الآخر : « وهل نلت ما كنت تأمله من رضاها ؟ .. »

قال سحبان : « لا أدرى .. ان هذه المرأة شر من أسرار الخليفة أو هى لغز لا يمكن حله .. يظهر أنها بلا قلب ، أو هى ذات خلق خاص .. أعترف لكم انى كدت أنال رضاها وسمعت من تقربها وتلففها ما أكد لى حبها . ثم ما لبثت أن رأيتها تغيرت فرجعت من بغداد بالأمس ، واذا هى قد اختصت نفسها باللاتابك عز الدين .. وقد ملكت قلبه ولبته ، حتى شعرت شجرة الدر بذلك وغضبت عليه . لكن هذه أصبحت بعد خروج الملك من يدها لا تستطيع غير العتاب والشكوى »

فتصدى رجل للسؤال قائلا : « كل ما تقوله صحيح وأزيد عليه ان السبب فى اهتمام المرأة بخلع شجرة الدر وتنصيب غيرها انما هو غيرة منها ، لأن شجرة الدر صارت ملكة ، وهى تحسب نفسها أحق منها بذلك لأنها كردية من قبيلة الملك الصالح .

ففعلت ما فعلته انتقاما وليس فيه شيء من الدهاء ، لأنها نقلت الدولة الى يد أخرى .. واذا صدقنا انها فعلت ذلك بدهائها ، فما الذى عاد عليها من هذا العمل ؟ .. ثم انى لم أفهم كيف توصل الخليفة فى بغداد الى خبر شوكار المغنية حتى يطلبها .. « فقال سحبان : « هى التى أوغزت اليه أن يطلبها نكايته فى شجرة الدر لأنها مغنيتهها »

فلما سمع ركن الدين اسم شوكار خفق قلبه وزاد ميلا الى السماع ، وحمد الله على تلك المصادفة التى أسمعته هذا الحديث وهو فى أشد الحاجة الى معرفته ، لأنه كان غائبا عن مصر فى أثناء حوادثه ، فأنصت فسمع رجلا يقول : « وهذا لا شىء فيه من الدهاء .. لأن شجرة الدر يمكنها الاستعاضة عن شوكار بعشرات مثلها . ولكن السر الحقيقى فى نجاح هذه المرأة ان لها صداقة متينة مع قيمة قصر المستعصم ، ولها عليها حقوق مختلفة ، فكتبت اليها بما رأته ، وتلك صاحبة النفوذ هناك فأنفذته .. دعنا منها انها امرأة متلونة مناققة .. والسلام »

فضحك سحبان وقال : « صدقت .. انها مناققة لأنها خدعتنى ، وأظنها ستخدع سواى . ولكن لاشك انها صاحبة نفوذ عظيم فى قصر الخليفة .. ما لنا ولها .. هيا بنا .. »  
فقال آخر : « لا تطاوعنى قدامى على الابتعاد عن ضوء القمر الجميل . ولكن قد حان وقت النوم .. فلا حول ولا .. »  
وسمع ركن الدين وقع خطواتهم وهم خارجون من ذلك

الموضع المهجور ، فانزوى ريثما يتعدون .. وعاد الى التفكير فيما سمعه عن سلافة وعن سر الانقلاب الذى جرى ، فانجلت له أمور كثيرة يرجو الانتفاع بها ..

ثم عاد الى غرفته يطلب النوم ، وقد أنهكه الأرق فضلا عن التعب .. فتوسد الفراش على أن ينهض فى الصباح لمقابلة الملك الأشرف وعز الدين اتابكه . فلما أصبح لبس ثيابه وذهب الى الايوان فلقى عز الدين ، فأخبره انه وصل أمس ، لكن التعب منعه من القيام بهذا الواجب ، فقدمه عز الدين الى الملك الأشرف فقص عليهم نتيجة مهمته فى دمياط ، وقد انتهت باخراج الافرنج من هناك بشروط مناسبة

فأثنى عز الدين على همته ورسالته ووعدته بالمكافأة ، فشكر له غيرته ، لكنه لم ير فيه ما كان يعلمه من غيرته عليه .. أو لعله أحس بذلك بسبب ما خامره من المطامع وما سمعه من الأقوال ، وعلى كل حال فانه بالغ فى الكتمان ، ولبث يتوقع سنوح القرص

— ٢٨ —

شوكار

ثم عاد الى التفكير فى شوكار ، وهو لا يدري هل يبحث عنها أو ينتظر ريثما يتأكد من بقائها على حبه ، لأنه كان كثير الشك فى ذلك لما ستلاقيه فى قصر الخليفة من التقدير والاعجاب .. ولم يكن من ذوى العواطف القوية الذين يضحون بمصالحهم المادية

في سبيل الحب . ولكنه كان قوى العقل كبير المظامع ، ويغلب في هؤلاء أن ينظروا في كل شيء من حيث ما يحقق لهم مظامعهم .. ولذلك لم يصدق ان شوكار سوف تبقى علي وده بعد ذلك الانتقال ، على انه كان يشعر بميل شديد اليها وعطف عظيم عليها ، وانما يعزيه نوعا انها هناك في نعيم لا خوف عليها من الاهانة ، ولا عس شرفها بما يبعث على غيرته لأنها جارية مغنية فقط .. قضى برهة وهو يفكر فيما يعمل ، هل يسافر الى بغداد للبحث عنها .. أم يبعث أحدا في طلبها ، وشغل أيضا بمهام منصبه ، لكنه لم يستطع الصبر على الفراق ، وهو لا يعلم ماذا يكون من حال شوكار هناك ..

فأصبح ذات يوم وقلبه قلق على شوكار ، وقد رآها في منامه على غير ما يريد . فاهتم بأمرها وهو غير قادر على السفر اليها ، فخطر له أن يكلف سحبان بذلك ، وأن يطمئنه ويظهر له انه يؤيده في رأيه .. فبعث اليه ، فجاءه وهو مستبشر طمعا فيما يرجوه ، فلما لقيه قال ركن الدين : « صدقت يا سحبان .. ان هؤلاء القوم لا يصلحون للخلافة وهم في هذا الفساد »

قال سحبان : « ألم أقل ذلك ياسيدي ؟ »  
 قال ركن الدين : « نعم .. وأنا أعرفه . وقد خبرته بالأمس مما فعلوه معي .. لا أعلم اذا كنت سمعت بأخذهم شوكار »  
 فقال سحبان : « كيف لا ؟ .. سمعت ، نعم سمعت .. وهذا لا يفعله الخلفاء العلويون .. و ... »

فقطع ركن الدين كلامه قائلاً : « ولكن هل تعلم من هي شوكار ؟ .. »

قال سحبان : « نعم .. انها جارية شجرة الدر ومعنيها .. »

قال ركن الدين : « وهي فوق ذلك خطييتي .. »

فأظهر سحبان الدهشة وقال : « خطييتك ؟ .. وأخذوها

منك ؟ .. لله هم من قوم ظالمين .. ! »

قال ركن الدين : « لم يأخذوها وهم يعلمون ذلك .. ما لنا

ولهم ، وانما يهمنى الآن أن أعرف حال شوكار هناك ، وأنا

لا أستطيع السفر ، وأنت تسافر دائماً في تجارتك ، فهل تقضى

هذه المهمة لصاحبك ركن الدين ؟ .. »

فاستأنس سحبان بذلك التلطف وقال : « أفضيها على الرأس

والعين .. وأسافر في الغد لأجلها .. قبجهم الله .. انهم مضيعون

هذا الملك عن قريب .. » وهز رأسه هزة الاستغراب ..

فقال ركن الدين : « أشكر لك اخلاصك يا سحبان ، والأيام

بيننا .. »

فقال سحبان : « ان خدمتك يامولاي واجبة عليّ .. اني

مسافر غدا ولا أسألك عما تطلبه ، فاني أعرف كل شيء .. كن

مطمئناً » قال ذلك وخرج بعد أن ودّع ركن الدين

وعاد ركن الدين الى شئونه وقد اطمأن باله نوعاً ، وصبر

نفسه ريثما تنقضى المدة اللازمة لذهاب سحبان الى بغداد

ورجوعه منها ، وهي أكثر من شهر

لكنه لم يمض أسبوعان على سفره حتى جاءه رسول بكتاب من بغداد وصل في المساء ، فلم يصبر على تبليغ رسالته الى الصباح .. وكان ركن الدين في تلك الليلة عند شجرة الدر ، وقد أكثر من التردد عليها ليبدد عنها ما أصابها من الوحشة بعد وقوع الفتور بينها وبين عز الدين ، ولم يدر أن تردده يزيد تلك الوحشة ..

كان ركن الدين في تلك الليلة عند شجرة الدر ، وجاءه الحاجب يقول : « ان بالباب رسولا يحمل كتابا الى الأمير ركن الدين ولا يرغب في تسليمه الا اليه بيده »

فقال ركن الدين : « ليدخل » ولم يطاوعه قلبه على الصبر فوثب كالسهم حتى لقي الرسول وصاح فيه : « ما وراءك ؟ » فقال الرسول : « وهل الذى يكلمنى الأمير ركن الدين بيبرس ؟ » ..

قال ركن الدين : « نعم .. من أنت .. ومن أين أتيت ؟ .. » قال الرسول : « أنا رسول الى الأمير من فتاة تريد أن يصل كتابها اليه سرا .. »

فخفق قلبه وقال : « هاته .. »

فمد الرجل يده الى جيبه ، وأخرج الكتاب ودفعه اليه .. فتناول الكتاب ودخل الى القاعة وأخذ يقرأه ، وشجرة الدر تنظر اليه وترقب حركاته وما يبدو على وجهه من التغيير . ولم يفرغ من قراءته حتى بلغ الغضب منه مبلغا عظيما وقلب

شجرة الدر يخفق ، وعيناها شاخستان فيه . فلما فرغ من تلاوة الكتاب صاحت فيه : « ماذا قرأت ؟ .. ماذا جرى ؟ .. » فرمى الكتاب إليها .. فتناولته وقرأته فإذا فيه :

« من المسكينة شوكار الى سيدها وحبيها ركن الدين . اختطفوني من بين ذراعى شجرة الدر وأنت غائب ، ولم تجد مولاتى حيلة لاستبقائى لحين حضورك . فبرحت القاهرة وقلبى فيها .. ولم أزل منذ برحتها وأنا أندب حياتى ، لا أجد لى سلوى رغم ما كان يبذله صاحب هذا الركب من أسباب الراحة لى .. وهم يستغريون البكاء من جارية طلبها أمير المؤمنين لتكون فى مجلسه ، على انى ما لبثت أن وجدت بكائى كان فى محله لأنى حين أشرفت على بغداد تغيرت حالى ، اذ نقلونى الى قوم جاءوا من قصر الخليفة ، وكنت أحسبهم جاءوا ليستقبلونى ، وعزمت على انى حينما أستأنس بهم أطلب اليهم أن يعيدونى الى مصر ، أو أوسط أحدا للخليفة كى يأمر بارجاعى بعد أن أقص عليه خبرى لكننى لم أكد أقع فى أيديهم حتى عاملونى معاملة الأسيرة ، وساقونى لا أدرى الى أين . وكان فى الركب الذى حملنى من مصر الخصى عابد البصرى حامل هذا الكتاب اليك . وكنت قد استأنست به وأحسست بعطفه على ، فاغتنمت فرصة كتبت فيها هذا الكتاب على عجل ، ورجوته أن يوصله اليك .. فاكرمه ما استطعت الى الاكرام سبيلا وأستودعك الله ، ولا أظننا سوف نلتقى فى هذه الدنيا . وقد ختمت هذا الكتاب بدموعى .. »

وكانت شجرة الدر تقرأ وركن الدين يخاطب حامل الكتاب على حدة ، فسأله عما يعرفه من التفاصيل

فقال عابد البصرى : « لا أدري ياسيدى سوى انى كنت فى خدمة الركب الذى أتى بكتاب الخليفة ، ولما عاد ومعه هذه الجارية رأيت فيها لظفا ، وكنت أنا المكلف بخدمتها . والمفهوم بيننا انها محمولة الى أمير المؤمنين لتكون مغنية فى قصره . وكنا نبذل جهدنا فى خدمتها وراحتها . فلما وصلنا الى ضواحي بغداد جاءنا وفد من الجند وقالوا انهم قادمون من قصر الخليفة ، وطلبوا الينا أن نسلّمهم شوكار .. فلم يسعنا الا الطاعة ، لكننا لاحظنا انهم ذاهبون بها الى غير قصر الخليفة . فأشفت عليها وأخذت فى تعزيتها وسألتها عما تريد أن أفعله ، فقالت : « لا أريد شيئا سوى أن توصل هذا الكتاب الى الأمير ركن الدين وتسلمه اليه بيده .. وقد فعلت »

فقال ركن الدين : « وأين هى الآن ؟ .. وما ظنك ماذا يفعلون بها ؟ .. وما غرضهم من أخذها على هذه الصورة وهى لا تعرفهم ولا علاقة لها بهم ؟ .. »

قال عابد البصرى : « لا أدري ياسيدى .. وأنا أيضا أدهشتنى هذه المعاملة .. »

فأطرق ركن الدين وأخذ يفكر .. ماذا عسى أن يكون سبب ذلك ؟ .. فلم يوفق الى رأى ، فقال : « والآن يا عابد اذا دفعت اليك كتابا هل توصله اليها ؟ .. وأين تجدها ؟ .. »



قال عابد البصرى : « أبحث عنها جهدى ، ولا انفك حتى أجدها ، وأكون طوع ارادتها فيما تريده وأفديها بروحى .. انها يامولاي تنفدى بالروح للطفها وأدبها » ..  
 فأثنى ركن الدين على مروءته ، وقال : « تعال اليّ فى صباح الغد ، وسوف تجدنى فى غرفتى بالقلعة .. هل تعرفها ؟ »  
 فأجاب باحناء الرأس أن : « نعم .. » وانصرف

- ٢٩ -

### الاغراء

ووقف ركن الدين مطرقا ، وقد أخذته الدهشة .. ثم انتبه لشجرة الدر ، فتحول نحوها فرآها قد فرغت من تلاوة الكتاب وتغير وجهها ، وظهرت امارات الغضب فى عينيها .. فلما التفت اليها بادرتة قائلة : « تلك هى أعمال الخلفاء الذين لم يعجبهم أن يتولى الحكم امرأة .. هذا المستعصم أمير المؤمنين .. ووالله لو أن امرأة سليطة تولت هذا الملك لدبّرتة أحسن من تدبيره .. شغل نفسه بالغناء واللهو .. يأخذ نساءنا من بين أيدينا .. ونحن صابرون .. »

فأدرك ركن الدين انها تستحث غيرته على شوكار للانتقام من المستعصم ، فقال : « ولكن ما أصاب شوكار الآن لم يكن من المستعصم » ..

قالت شجرة الدر : « ممن اذن ؟ .. ألم يكن هو الذى بعث فى طلبها اليه ؟ .. وهب ان الذين اختطفوها الآن لم يفعلوا ذلك بأمر الخليفة .. ولكن ألا يدل وقوع ذلك على ضعف الرجل وقلة هيئته ، حتى يجرؤ الناس على اختطاف مغنية آتية اليه فى موكب حافل ؟ .. على اننى أعتبر أكثر الحق على .. »  
 فقطع كلامها قائلاً : « الحق كله على عز الدين .. هذه هى الحقيقة .. ولو شاء هو لاحتال فى استبقاء شوكار .»

فقالت شجرة الدر : « صدقت .. وهذا هو رأى .. لا أدرى ماذا غير هذا الأمير .. ان مطامع الدنيا تغير الناس .. طمع عز الدين فى السلطنة ، فضحى بكل شىء فى سبيلها .. ضحى بأصدقائه وخلانه و ... » وغصت بريقها وسكتت .



لم يكن ركن الدين يجهل ما فى خاطر شجرة الدر على حببيها من الغيرة والنقمة ، فأراد أن يخالفها لاكتشاف ما يكنه ضميرها ، فقال : « لا أظنه فعل ما فعله طمعا فى الملك لأنه كان فى نفس هذا المنصب ، وأنت سلطانة .. بل كان معك أقرب الى السيادة والنفوذ مما مع سواك .. ويظهر انه لم ير بدا من الطاعة لأمر الخليفة فى شوكار .. »

فضحكت ضحكة مفتتحة ، وقد امتقع لونها من شدة التألم والغضب وقالت : « لعله أطاع بذلك غير أمر الخليفة .. »  
 وبلعت ريقها وتشاغلت بمنديلها تمسح به فمها وجبينها

فلاحظ ركن الدين انها تعنى سلافة ، فقال : « وهل تلومينه لأنه يبحث عن مصلحته ؟ .. ليس في الدنيا أحد لا ... »  
 فقطعت كلامه قائلة : « كلا .. لا ألومه لذلك ، ولكنني ألوم غيره لأنه لا ينظر الى مصلحته أيضا .. ان هذا الأمير ضحى بشموكار ، وركن الدين ، وشجرة الدر في سبيل مطامعه ، ولم يبالي بنا ونحن لا نزال نحافظ على عهده ونلتمس وده »  
 وتزحزحت من مجلسها وعلى ملامح وجهها انها لم تتم حديثها بعد

\*\*\*

فأراد ركن الدين أن يستزيدها بيانا ، فقال : « أنا ناقم على هذا الأمير كما تعلمين ، لكنني لا أراه يستحق هذا الغضب منك .. لأن ما حدث لك ولشوكار لم يكن هو فاعله ، ولم ينل من فعله شيئا جديدا لم يكن يرجوه وأنت سلطانة »  
 قالت شجرة الدر : « قد أخرجتني يا ركن الدين .. فأستأذنك في كشف ما في قلبي . قد يتبادر الى ذهنك اني كرهت عز الدين لأنه أحب تلك الجارية الكردية ( سلافة ) ، وهي التي ساعدته على ما فعل . وكنت أحسبها فعلت ذلك جبا له ، ولكنني عرفت الآن انه لم يكن يجبها ، ولكنه خدعها كما خدعني ، فلما نال بغيته منها تخلى عنها .. هل علمت بما عول عليه وأوشك أن يفعله بمشورتها ومساعدتها ؟ .. »  
 قال ركن الدين : « كلا .. »  
 قالت شجرة الدر : « قد عزم عزمًا أكيدا على أن يستقل

بالسلطنة ..

قال ركن الدين : « أليس هو مستقلا بها الآن ؟ .. وليس السلطان الملك الأشرف الا صورة لا معنى لها .. »

قالت شجرة الدر : « صحيح .. ولكنه سيخلعه ويطلب من الأمراء أن يبايعوه سلطانا بدله »

فهر رأسه هزة الانكار ، وقال : « هذا لن يكون .. وكيف يتأتى له ذلك ، والناس يحتجون بأنهم لا يخضعون لملك ليس من آل أيوب .. »

فقالت وهي تضحك ضحك الاستهزاء : « انك لا تزال قليل الاختبار يا ركن الدين .. لكنك لا تلبث أن تعلم ان هؤلاء القوم لا رأى لهم ولا صوت ، ينقضون اليوم ما قرروه بالأمس . والظاهر ان عز الدين قد تمكن من اغراء الأمراء المقربين له وأنت غائب وقبلوا مبايعته . وبلغنى انهم اختاروا له لقب أول الخلفاء الفاطميين بمصر وسموه « المعز » (١) فهل بعد ذلك شك ؟ .. ولعله لو طال بقاؤك في دمياط لأمضى هذا الأمر في غيابك .. أو أظنه أمضاه منذ ذلك الحين .. ألا تشعر انه تغير معك عما كان عليه من قبل ؟ .. »

(١) السيوطى ٢٧ الجزء الثانى

### الانتقام

فشارت الغيرة في نفس ركن الدين ، وأوشك أن يبوح بما في خاطره ، لكنه تجلد وتماسك .. وقد فتح أمامه بعد هذا الحديث باب جديد . لم يكن بالأمس يتصور انه يمكن لغير الأيوبيين أن يستقلوا بالسيادة ، فإذا هو يرى عز الدين استطاع ذلك ووافق عليه الأمراء .. فازداد رغبة في السلطة ، لكنه ظل حريصا على كتمان ذلك المطمع خشية الفشل ، وهو يعتقد في القول المأثور : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .. » لكنه غلب على ظنه بعد أن سمع من حديث القوم عن سلافة في تلك الليلة أن عز الدين لم يفعل ذلك الا بنفوذها ، فأراد أن يستطلع رأى شجرة الدر في ذلك ، فقال : « ألا تظنين أن لسلافة دخلا في هذا الأمر ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « لاريب عندي انها ساعدته في ذلك ، نظرا لنسبها الكردي وعلاقتها الودية مع بعض الأمراء أصحاب النفوذ من آل أيوب وغيرهم . ولعلها ارتكبت أمورا دنيئة في هذا السبيل ظنا منها انها اختطفت عز الدين من شجرة الدر . ولكن خاب ظنها لأن هذا الرجل ليس لأحد منا وسوف ... » قالت ذلك وابتسمت وعيناها تلمعان

ولاحظ ركن الدين في عينيها معنى لم يكن فيهما من قبل ..  
 رأى الغيرة والنقمة والغيظ والشماتة تتزاحم فيهما ، فقال :  
 « لمن هو اذن يامولاتي ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « أتريد أن أبوح لك بكل ما أعرفه عن  
 هذا الخائن مرة واحدة ، لقد سألتني لمن هو .. فأجيبك : انه  
 يزعم انه لامرأة ثالثة »

قال ركن الدين : « من هي ؟ .. »

قالت شجرة الدر : « امرأة لا تعرفها .. ليست في مصر .. »  
 فاستغرب قولها ، وقال : « أظنك تمزحين ! .. »

قالت شجرة الدر : « كلا .. اني أقول الصدق .. ان عز الدين  
 يزعم انه ساع في خطبة بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل » (١)  
 قال ركن الدين ، وقد ظهرت الدهشة في عينيه : « ان صاحب  
 الموصل له مقام رفيع عند الخليفة .. وهل تظنينه يفوز بها ؟ »  
 فلم تتمالك عن النهوض من عظم التأثر والغضب ، وقالت  
 وهي تشير بيدها اشارة الانكار : « لا.. لا.. لن يفوز بها . انه  
 ليس لاحدى هؤلاء النسوة ، بل هو نصيب الرابعة » وأشارت  
 بيدها اشارة رجل بيده خنجر يطعن به آخر الى جانبه . ففهم  
 ركن الدين أنها تنوى قتله ، وتأكد ذلك بما ظهر في عينيها من  
 الاحمرار . فضحك وأظهر الاستخفاف بهذا الرأي ونهض وقد  
 عزم على الانصراف ، وقال : « لا أظن ان الأمر يبلغ بك الى هذا

(١) ابن اياس ١١ الجزء الاول

الحد .. قد انتصف الليل وآن لى أن أنصرف .. أستودعك الله»  
وتحول يريد الخروج فصاحت به : « ويلك ياركن الدين.. تذهب  
على هذه الصورة وتتركنى على هذه الحالة.. ماذا جرى لك ؟ »

قال ركن الدين : « ماذا أصنع يامولاتى ؟ .. »  
قالت شجرة الدر : « قد رأيت من أمرك عجبا .. تكلمنا فى  
نواح كثيرة ، وصرحت لك بأمر كثيرة كنت آكتمها عن كل  
انسان ، وأنت جامد كالصخر الأصم لا تقول شيئا .. اذا كنت  
تفعل ذلك عن دهاء فنعم الفعل ، والا فانك صلب بارد . وعلى  
كل حال فانى كنت أتوقع منك أن تقول كلمة .. ولو بشأن  
شوكار المسكينة التى ذهبت ضحية حبك وهى تقاسى العذاب ،  
وقد تقطر قلبى من كتابها .. ولو كنت خطيبها لركبت الساعة الى  
بغداد ، ولم أرجع الا وأنا منتقمة لها من ذلك الخليفة الظالم الذى  
لا يهمه الا التمتع بملذاته » قالت ذلك وهى تنفرس فى عينيه ..  
فكان لكلامها وقع السهام فى قلبه ، وأوشكت أن تخرجه  
وتضطره للتصريح بما فى ضميره .. لكنه تراجع وتمالك  
وتشاغل بالضحك ، وقال : « الله أنت من خطيب غيور شجاع .  
أما أنا فأظن عندى مثل ذلك .. لكننى سأنظر فيه واعمل ما  
يسرك وان لم أقل شيئا » قال ذلك وأبرقت عيناه وظهر العزم  
والجد فى جبينه ..

فتقدمت اليه ووضعت يدها على كتفه ، وقالت : « هذا عهدى  
فيك وقد فهمت من هذه العبارة مجلدا كاملا .. واعلم انى فاعلة

ما يتم عملك هنا .. أقتل المستعصم وأنا أقتل عز الدين ، وأنت  
السلطان صاحب الأمر والنهي «  
فتجاهل ما سمعه وقال : « أتأذنين لى بالانصراف الآن ؟ »  
فأشارت اليه مودعة ، فخرج وهو ينتفض من الغضب وقد  
تضاربت المشاريع في خاطره ، ولم يعجبه تصريح شجرة الدر  
بقتل المستعصم لاعتقاده ان مثل هذا الأمر الخطير لا ينجح الا  
اذا ظل مكتوما في ذهن صاحبه ، عدا الشكوك التي تحوم  
حواله لصعوبة تحقيقه ، بل انه يكاد يكون مستحيلا

— ٣١ —

رسول آخر

مشى ركن الدين وقد اتصف الليل ، وأخذ منه التأثر مأخذا  
عظيما ، حتى أصبح لا يرى طريقه من فرط ما تجاذبه من الهواجس .  
وأسرع في خطاه رغبة في الاختلاء بعرفته لمناجاة نفسه .. لكنه لم  
يكد يصل الى باب منزله في القلعة حتى تصدى له أحد الحراس ،  
وحياه فرد التحية ومشى ، فتقدم اليه الحارس قائلا : « ان خادما  
في انتظار مولاي هنا منذ ساعتين » وأشار الى رجل واقف بجانبه  
فالتفت نحوه وقال : « من الرجل ؟ .. » وظنه لأول وهلة  
رسول شوكار جاء يأخذ جوابه اليها .. فاذا هو سواه  
فتقدم الرجل ودفع الى ركن الدين كتابا مختوما .. فتناوله وأمر



خادمه أن يسرع الى غرفته ويضئ فيها المصباح .. ففعل  
 فدخل ركن الدين وحده وفض الكتاب أمام المصباح ، وقد  
 أدهشه ما فاح من رائحة الطيب .. فترجح لديه انه من امرأة  
 فأخذ يقرأ .. فاذا هو من سلافة جارية الملك الصالح ، فاستغرب  
 ذلك وقرأ فيه : « سلافة جارية الملك الصالح وقيمة قصوره  
 ترغب في مقابلة الأمير ركن الدين ببيرس ساعة وصول كتابها  
 هذا اليه ، وحامل الكتاب يرشده الى المكان .. »

فوقع في حيرة وتولته الدهشة .. وأخذ يسأل نفسه ماذا عسى  
 أن يكون غرضها من تلك المقابلة ، وليس بينها وبينه سوى معرفة  
 بسيطة . وتذكر ما سمعه عنها من سبحان وما جرى من ذكرها  
 بين يدي شجرة الدر وعلاقتها بجز الدين ابيك . فأصبح شديد  
 الميل الى معرفة حقيقة نوايا هذه المرأة .. ولعل التعرف بها ينفعه  
 في تحقيق هدفه ..

ورآها تطلب اليه مقابلتها ساعة وصول كتابها ، فقال في نفسه :  
 « ماذا عسى أن يكون سبب هذه السرعة .. » ورغم ما كان فيه  
 من التعب والقلق فقد عزم على اجابة الدعوة حالا ، فنادى  
 الرسول اليه فدخل ، فقال له : « هل المكان بعيد من هنا ؟ »

قال الرسول : « كلا ياسيدى .. انه قريب جدا .. »

قال ركن الدين : « وهل أنت هنا من زمن طويل ؟ .. »

قال الرسول : « منذ نحو ساعتين .. »

قال ركن الدين : « ولماذا انتظرت كل هذه المدة ؟ .. »

قال الرسول : « لأن مولائى صاحبة الكتاب أمرتنى أن لا أعود الا بالجواب .. »

فازداد ركن الدين دهشة واستغرابا وصمم على الذهاب . فلبس ثيابه وخرج والرسول يمشى بين يديه ، وقد أخذ القلق منه مأخذا عظيما .. ومتر بباب القلعة فعرفه الحراس ولم يعترضوا سيره ..

خرج الى القاهرة والطريق مظلم ، الا بعض المصابيح التى على أبواب المنازل ، وما زال ماشيا حتى وصل الى باب كبير وقف الرسول عنده ، واستوقف الأمير ريثما يطرق الباب ، فطرقه ففتح له جزء منه ( الخوخة ) وأطل عبد خصى يسأل : من الطارق ؟ فأوماً اليه الرسول فوسع له ولرفيقه . فدخل ركن الدين الى حديقة مظلمة ، ولولا شموع مضيئة فى المندرة لكان الظلام حالكا . على ان ذلك النور الضعيف زاد المكان وحشة لأنه جعل ظلال الأشجار تظهر متكاثفة متلبدة على ما وراءها .. فلما رأى نفسه فى ذلك المكان ندم على مجيئه ، وتوهم أشياء كثيرة بعضها يوجب القلق .. لكنه تجلد ومشى بقدم ثابتة لايبالى بما قد يهدده وهو لم يتعود الخوف ، لكنه خشى الفضيحة لعلمه بما بين صاحبة هذا المنزل وعز الدين من العلاقات .. وكان الرسول قد تقدمه بالبشارة .. ولم يكد ركن الدين يتوسط الحديقة حتى عاد الرسول وأشار اليه أن يتبعه ، فتحول به الى قاعة منفردة قد أضيئت فيها الشموع على منائر

فى وسطها . وفرشت أرضها بالسجاد والوسائد .. وأدهشه ، على الخصوص ، ما شاهده بين ذلك الأثاث من الآنية التى كان يراها فى قصور الملك الصالح قبل هدمها وتخريبها .. وتأكد أن عز الدين هو الذى أحضر لسلافة هذا الرياش ، لأنه هو الذى خرب تلك القصور واستأثر بأقاضها ورياشها (١)

استقبلته سلافة بباب القاعة ، وقد لبست أثمن ما عندها من العلى والثياب ، ولم تنتقب الا قليلا .. وكان قبل وصوله اليها قد تنسم رائحة الطيب ، فلما تلاقى بصره ببصرها زاد ندمه لمجيئه لأنه توهم شركا يخشى الوقوع فيه ..

## - ٣٢ -

### ركن الدين وسلافة

أما هى فابتدرته بالسلام والترحيب ، وقالت : « قد أزعجناك أيها الأمير .. »

قال ركن الدين : « العفو يا سيدتى .. انى سعيد بهذه الفرصة ، فعسى أن تتاح لى خدمة أؤديها لك .. »

فمدت يدها للسلام عليه ، فمد يده وصافحها .. فوجد أناملها باردة كالثلج وفيها رعشة أثمرت فيه ، لكنه تشاغل بالثناء على ترحابها .. ثم مشت به وهى تتقدمه ، ولا تزال قابضة على يده

(١) السيوطى ٢٦٩ - الجزء الثانى

حتى وصلت الى مقعد في صدر القاعة . فأشارت اليه أن يجلس فجلس ، وقد اقمشعر بدنه من لمسها . فأقلت يده وجلست بين يديه على وسادة وهي تنظر اليه وترحب به ، وهو ينتظر أن تفتحه بما دعته من أجله ، فلم تزد على الترحيب والمؤانسة . فلما أبطأت عليه قال : « جئت طوعا لأمرك .. فهل من خدمة أقضيها لك ؟ .. »

قالت سلافة : « بل أنا في خدمتك يا ركن الدين ، ولعلك لم تكن تعلم بوجودي قبل هذه الليلة ، ولم أخطر ببالك .. وأما أنت فلم تبرح من فكرى لحظة وأنا أتتبع خطواتك منذ أعوام.. » قالت ذلك واحمرت وجنتاها وأبرقت عيناها ، وكانت جميلة فزادها ذلك جمالا ..

أما ركن الدين فلم تعجبه هذه الفتاحة لأنه في شغل عن المغازلة . وكان يسمع بجمال هذه المرأة ويعرف عنها بعض الشيء في حياة الملك الصالح . ولم يكن أمرها يهمه ولا سيما في تلك الليلة وهو في ذلك الاضطراب . فلما سمع قولها أطرق ، وقال : « العفو يامولاتي .. كنت أسمع بمنزلتك الرفيعة عند المرحوم مولانا الملك الصالح ، ولكن الأحوال لم تأذن بالتعارف .. » قالت سلافة : « هذا صحيح بالنظر اليك وحدك ، أما أنا فقد عرفتك جيدا . وطالما راقبت دخولك قصر الروضة وخروجك منه . وكثيرا ما كنت أسهر الليل بطوله أنتظر مرورك في الحديقة لأراك من خلف الستائر » قالت ذلك بخجل ..

فاستغرب ركن الدين هذه المشاكاة وتجاهل وقال : « ان ذلك فضل منك يا سيدتى وأتأسف لأنى لم أكن أعلم به .. »  
 فقالت سلافة : « ألم تعلمه الآن ؟ .. أرجو الاغضاء عن جسارتى يا ركن الدين ولا تكن قاسيا .. »

فلما سمع هذا التعريض أجفل وأسف لمجيئه ، وقال : « العفو ياسيدتى ، لم أكن أتوقع أن أسمع هذا التلميح وأنا اعلم ان مولانا الأتابك عز الدين يتردد على هذا المكان وهو صاحبه »  
 فتنهدت وقالت : « مولاك .. أو مولاي الأتابك لا يستحق هذه الحظوة ، دعه وشأنه ما لنا وله .. »

فظن ركن الدين انها تريد أن تلقى به فى الفخ لتستخدمه فى مهمة لها ، كما فعلت بسحبان .. فصمم على الرفض وسرعة التخلص ، فقال : « هل لهذا دعوتى يا سلافة فى هذا الليل ؟ »  
 فأجابته ، وعيناها ذابلتان قائلة : « وهل هذا أمر قليل الأهمية فى نظرك يا حبيبي ؟ .. »

فنهض وهو يقول : « ليس قليل الأهمية ، ولكننى فى شغل عنه الآن ياسيدتى » وهم بالاستئذان فى الانصراف  
 فنهضت ووقفت فى طريقه وقالت : « ما الذى يشغلك عنى ؟ .. لم يبق الآن ما يشغلك يا قاسى القلب .. أين القاهرة من بغداد ؟ »  
 فأدرك انها تشير الى شوكار وأخذها الى بغداد ، فنفرت نفسه منها وقال : « لا أزال فى شغل .. أرجو ياسيدتى أن تأذنى بانصرافى ناشدتك الله »

فأمسكت يديه بكلتا يديها وقالت : « تمهل يا ركن الدين لا تسرع فى الرفض .. واتبه لنفسك واعلم ان سلافة وحدها تستطيع أن تحقق لك بغيتك .. مالك وللغناء ؟ أنت فى حاجة الى من يضع يده فى يدك .. واذا ألقيت الوقود فى النار ، نفخ فيها وأشعلها حتى تنضج الطبخة » ونظرت فى عينيه وابتسمت . فعلم انها تشير الى تفضيل نفسها على شوكار ، فقال : « بالله دعيني أنصرف لأنى فى شغل ذى بال »

قالت سلافة : « أنا أعلم الناس بشواغلك .. أما شوكار فلا سبيل اليها أبدا .. و ... »

فلما سمع تصريحها فجأة اجتذب يديه من يديها وقد غضب ، وقال : « ما الذى حملك على الحديث عن هذه المرأة الآن ؟ .. مالنا ولها ؟ .. »

قالت سلافة : « كيف لا أذكرها وهى سبب قلقى وعلة شقائى ، لكنها الآن بعيدة عنا .. »

فقال ركن الدين : « اذا كانت بعيدة الآن ، فانها ستكون قريبة باذن الله .. »

قالت سلافة : « من قال لك ذلك فقد خدعك . ان شوكار أصبحت فى غير هذا العالم ياركن الدين .. وقد نصحتك فانتصح » فاقشعر بدنه عند سماع هذا الكلام وحملق وقال : « أتوسل الى مولاتى أن تكف عن هذا القول وتدعنى وشأنى .. دعيني أذهب بسلام » قال ذلك وقد مال الى تصديق قولها لكثرة ما

عرفه من دهائها وعلاقتها ببغداد ونفوذها هناك . وخصوصا انها لم تستقدمه اليها الا في الليلة التي جاءه فيها ذلك الكتاب من شوكار تشكو فيه الخطر .. فقام في ذهنه ان سلافة تعرف حقيقة حال شوكار . فجلس وأشار الى سلافة أن تجلس وأظهر الجبد وقال : « ياسيدتى أتوسل اليك أن تصغى لما أقوله لك .. قد علمت من كثيرين بما لك من المنزلة العالية والكلمة النافذة في قصور أمير المؤمنين ببغداد ، فأرغب اليك أن تساعدني في أمر يهمني هناك .. »

فقطعت كلامه وقالت : « انى طوع ارادتك في كل ما تريد . ولا أنكر علبك ما لى من الكلمة النافذة .. ولعلك تعلم ان ما حدث من العزل والتنصيب بمصر انما كان على يدي .. »

فلم يخامرهم شك فيما تقوله ، واعتقد انها تستطيع أن تفعل كل ما ادعته وهو طامع فى السيادة .. لكنه أحسّ بشيء حال بينه وبين تلك المطامع . وأصبح همه انقاذ شوكار ، فقال : « أشكر لك تفضلك . ولا ريب عندى فى صدق ما تقولين . ولا أظننى أستغنى عن معاومتك فى بعض هذه الأمور ، لكننى أتوسل اليك الآن فى أمر واحد .. هل تقضينه لى ؟ .. »

قالت سلافة : « أقضيه على الرأس والعين .. » فقال ركن الدين : « شوكار .. أريد أن أسترجعها من بغداد الى هنا .. »

فتغيرت سحتها وقطبت حاجبيها ونظرت اليه شزرا وصاحت :

« لله أنت من أمير عاقل .. أبعد ما ذكرته لك تعود فتسألني  
استرجاع هذه المعنية من بغداد؟.. وقد قلت لك انها ليست  
هناك »

فقال ركن الدين : « أين هي ؟ .. في مصر ؟ .. »  
قالت سلافة : « ولا في مصر .. انها غير موجودة في مكان ..  
ألم يأتك خبرها ؟ .. »

- ٣٣ -

### التصريح

فلما سمع سؤالها أجفل وتحقق انها تعلم بما أصابها ، فصاح  
فيها : « لم يجئني خبر بسوء أصابها كما تقولين .. »  
قالت سلافة : « انها لن ترجع اليك أبدا ، ولو علمت انها  
ترجع لأعدتها بيدي .. وهل قذف بها الى تلك الديار غيرى ..! »  
فاعتدل في مجلسه واستغرب تصريحها ، وقال : « انت أرسلتها  
الى هناك ، ما الذي كان يضيرك لو بقيت هنا ؟ .. انها لاتزاحمك  
في نعمة ! » ..

فنهضت وهي تشير بأصبعها اليه ، وقالت : « انها تزاحمني  
عليك يا ركن الدين » وغصت بريقها وظهر الهيام في عينيها  
فظنها تتقرب اليه تزلنا لغرض تريد أن يقضيه لها ، فقال :  
« بالله يا سلافة لا تطيلي تعذبي .. اذا كنت تريدين منى خدمة  
أقضيها لك قضيتها حبا وكرامة . وانما أطلب منك أن تساعدني



في استرجاع شوكار .. »

فنظرت في وجهه نظر المتفرس ، وقالت : « ويلى منك يا رجل  
ويا لشقائى.. أترامى عليك وأصرّح لك بما في قلبى وأنت تصم  
أذنيك عنى .. مع علمك ان اكبر أمرائكم يتمنى رضاي » ثم  
أمسكت عن الكلام لأن الدموع أوشكت أن تغلبها وحولت  
وجهها عنه خجلا ..

فأشفق عليها وقال : « انى مقدر تنازلك حق قدره وأشكرك  
عليه شكرا جزيلًا ، لكننى تقدمت اليك بخدمة أنت قادرة عليها  
و ... »

فقطعت كلامه قائلة : « انى رهينة أمرك في كل شيء ألا في  
هذا .. يهون على أن أجعلك سلطانا على مصر .. وأنا استرجاع  
تلك المرأة فلا يمكن .. ألم تفهم بعد ؟ »

وكان ركن الدين صاحب مطامع كما علمت ، وليس هو  
شديد التعلق بشوكار ، فكان المنتظر فيما تعرضه عليه سلافة  
أن ينصاع اليها ويستعين بها في مطامعه .. لكنه بعد ما سمعه  
منها ضد شوكار أحس بميل جديد نحوها ، وخاصة لأن ارسالها  
الى بغداد انما كان بسببه ، لأن سلافة قالت له بصراحة انها  
أبعدتها ليبقى ركن الدين لها وحدها . فأصبح في حيرة وأطرق  
يفكر فيما رآه وسمعه ، وفيما مرء به في تلك الليلة من الغرائب .  
واستعظم ما سمعه من تصريح سلافة وتحجيبها له ، وحدثته نفسه  
لحظة أن يسايرها حتى تساعده في تحقيق مطامعه .. لكنه تذكر

كتاب شوكار الذى جاءه فى ذلك المساء ، وما فيه من دلائل  
التعلق به ، فأبت نفسه أن يساير عدوتها اللدودة

وكان هو مطرقا يفكر ، وسلافة تنظر اليه وترقب حركاته  
وتكاد تتلقفه ببصرها . ورفع نظره اليها فرأى فى عينيها معنى  
لا يعبر عنه بالكلام ، وأحس بحرج الموقف ، ولم ير بدا من  
تأجيل الكلام الى فرصة أخرى لأنه لفرط ما اتتبه من التأثيرات  
المتضاربة أحس ان عقله قد أصيب بالكلل . فأحب أن يؤجل  
الحديث ريثما يستريح ويفكر ماذا يجب

فتهض وقد ظهرت الحيرة فى عينيه ، ونظر الى سلافة وابتسم  
ابتسامة شكر وقال : « أشكر لسيدتى حسن ظنها بى ، فانى  
لا أستحق شيئا من هذا الالتفات وأستأذنها فى الانصراف »  
قال ذلك وانحنى مودعا ، ومدَّ يده ليصافحها ..

فأبعدت يدها عنه وخبأتها خلف ظهرها وتراجعت ، ولم تجب  
بفمها ، لكنها أجابت بنظرة أفصح من خطاب .. انها عاتبة آسفة  
لسوء حظها وان قلبها لا يطاوعها على الفراق

فخطا خطوة أخرى نحوها وقال كالمستعطف : « بالله يامولاتى  
ائذنى بانصرافى الساعة ، فقد تعبت وأصبحت فى حاجة الى  
للراحة » ..

قالت وهى تهز رأسها : « لله ما أسوأ حظى .. أشكو لك  
غرامى وأنت تشكو النوم . وكم فى شكواك هذه من دلائل  
الحب والهيام .. » قالت ذلك وتحولت عنه ومشت خطوة . ثم

التفتت نحوه ورمته بنظرة كالسهم أصابت صدره ، لكنها لم  
تؤثر فيه كثيرا ، وقالت : « سر في حراسة الله .. سر الى فراشك  
أيها الأمير .. ولا تظن ان فشلى هذا سوف يذهب هباء »  
ودخلت مخدعها مسرعة ..

### — ٣٤ —

#### الانصراف

فلم ير ركن الدين بدا من الانصراف .. وقضى معظم الطريق  
وهو يردد كلامها ويفسر نظراتها ويعلل حركاتها . وقد عظم أمرها  
في عينيه ولاسيما بعد أن تذكر ما سمعه عن نفوذها في بغداد .  
وأصبح في خوف على شوكار منها ، ولم يبق عنده شك ان  
شوكار انما أصابها ما أصابها في سبيله .. فهو السبب في شقائها ،  
وان وجودها في بغداد أصبح بعد هذه المقابلة أكثر خطرا .  
وخيل له ان سلافة لا تلبث أن تبذل جهدها في ايصال الأذى  
اليها ويكون ذلك بسببه فأحس بالتبعة التي تحملها بمجافاة  
سلافة لأنه بعثها على تعمد الأذى لشوكار . وشعر بقشعريرة  
وقف لها شعره ..

وكان قد دخل باب القلعة ودنا من غرفته ، ففتحتها له الخادم  
وأضاء المصباح فأخذ في خلع ثيابه  
ثم وقع نظره على كتاب شوكار .. فأعاد قراءته ، فكان تأثره

بهذه القراءة أشد من تأثيره الأول كثيرا .. وغلب عليه العطف على شوكار ، وأصبح لا يرتاح باله الا اذا نجاها من ذلك الضيق .. ولا يستطيع أن يعهد بهذا الأمر الى أحد ، ولا سيما بعد تهديد سلافة .. فأخذ يفكر في السفر الى بغداد ..

وبينما هو في ذلك ، اذ سمع آذان الفجر .. فتوسد الفراش التماسا للراحة ، وكان نومه مضطربا منقطعاً ولم تبرح صورة شوكار من خاطره لحظة . ولما نام رآها في الحلم حزينة باكية وقد عاتبته لأنه شغل عنها بسلافة .. فأثر هذا الحلم في خاطره تأثيرا شديدا ، وحين أفاق من نومه كان قد اعتزم أن يأخذ بناصرها ..



وأصبح في اليوم التالي واذا برسولها يبابه يطلب جوابه على كتابها فأدخله اليه وسأله عن السفر الى بغداد وكيف يكون ؟ .. وكان ركن الدين قد سافر اليها مرة وعرف أهم شوارعها وأحيائها ثم زوده بكتاب الى شوكار ، وبالغ في اكرامه وملاطفته .. فسأله الرسول عما اذا كان عازما على السفر الى بغداد فقال : « سأنظر في ذلك » وصرفه بعد أن عرف المكان الذي يجده فيه اذا سافر الى هناك

أما سلافة فلا تسلم عن غضبها لما لقيته من تردد ركن الدين ، لأنها كانت تحبه من كل قلبها . وكانت تحسب مكاشفتها اياه بحبها كافيا ليجعله أسير هواها .. فاذا هو يتردد ويظهر ميله

الى شوكار . وهى لا تستطيع أن تتصورها لأنها تعرف أنها منافسة لها على ركن الدين  
وكانت سلافة تعرف ركن الدين ، وقد تعلقت به وهو لا يعلم ،  
وكانت تتوقع فرصة لمفاتيحه فى أمرها .. فرأت شجرة الدر حين  
صارت ملكة قد اجتذبتة نحوها .. فكان ذلك فى جملة ما حملها  
على مقاومتها ، وبلغها أمر خطبته شوكار .. فجعلت رسالتها الى  
بغداد تتضمن النجاة من الاثنتين معا  
فأنزلت شجرة الدر عن العرش ، وأبعدت شوكار الى بغداد .  
وانما أرادت بتقريب عز الدين أن تفسد ما بينه وبين شجرة الدر  
عدوتها ومناظرتها ، فأفلحت فى ذلك . ولم يبق لاتمام سعادتها  
الا أن تسترضى ركن الدين ليكون لها

\*\*\*

وكانت الأخبار تأتيا من بغداد متواصلة ، فوصلها فى صباح  
ذلك اليوم خبر ما أصاب شوكار فى بغداد ، فتسلحت به بحيت  
يقطع ركن الدين كل أمل فى بقائها فيتحول الى سلافة . وكانت  
قد عزمت على بذل جهدها فى اسعاده وتقديمه ، ووطنت نفسها  
على الاكتفاء به . فلما رأت منه ما رأته غضبت وانقلب حبها الى  
حقده ، وعزمت على مناوآته ان لم يرجع الى صوابه ويسترضيها  
فلنترك القوم بمشاغلهم فى مصر ومنتقل الى بغداد

## - ٣٥ -

بغداد

بلغت بغداد معظم عمارتها في أيام المأمون حتى امتدت أبينتها  
 وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٧٥٠ جريبا ، منها  
 ٢٦٧٥٠ جريبا في الجانب الشرقي ، و ٢٧٠٠٠ في الجانب الغربي .  
 والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ونسبته الى الفدان كنسبة ١٠٠  
 الى ٣٣٣ ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦٠٠٠ فدان ، وهو  
 شيء كثير .. ولكن يظهر انها كانت عبارة عن مدن متلاصقة .  
 قال الخطيب البغدادي في تاريخه : « انها أربعون مدينة وان  
 الحمامات بلغ عددها في أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام » وقد أراد  
 صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد ، فقال : « وكان  
 عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام ، وأقل  
 ما يكون في كل حمام خمسة أشخاص : حمامي ، وقيّم ، وزبال ،  
 ووقاد ، وسقاء .. فيكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل . وذكر بأن  
 يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد ، ويكون ذلك ثلاثمائة ألف  
 مسجد ، وتقدير ذلك ان أقل ما يكون في كل مسجد خمسة  
 أشخاص ، فيكون ذلك مليون وخمسمائة ألف نسمة » ومع ما  
 في هذه الأقوال من المبالغة الكثيرة فانها تدل على كثرة العمارة  
 وقد وصفها الأضطخري الرحالة كما شاهدها في القرن الرابع

للهجرة فقال : « وتفرش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعا على دجلة الشمالية نحو خمسة أميال ، وتحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية . فيمتد نازلا على دجلة الى آخر الكرخ الخ » ثم قال : « وبين بغداد والكوفة ( أو بين دجلة والفرات ) سواد مشتبك غير مميز ؛ تخترقه أنهار من الفرات » .. ثم عدد الأنهار التي تمتد من الفرات الى دجلة

وكانت بغداد في ذلك العصر واقعة في الجانب الغربي ، ولا تزال المدينة التي بناها المنصور هناك باقية بشكلها المستدير ، وحولها الأحياء فيها الأسواق والشوارع  
 أما في زمن روايتنا في القرن السابع للهجرة ، فقد تبدل حالها وانتقلت أكثر عمارتها الى الجانب الشرقي حيث قصور الخلافة ، ومحيت مدينة المنصور

أما من حيث حالتها الاجتماعية فكانت بغداد في القرون الأولى من بنائها أم المدائن ومركز التجارة ، ومجتمع العلماء والشعراء وموئل طلاب الثروة والوجاهة .. على انها ما أن ضعف شأن الخلافة حتى تسربت اليها الدسائس ، وقامت الفتن بين أهلها ، وأهمها الشقاق بين السنة والشيعة ، وتكررت في أواخر الدولة . فلم تكن تضى سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تنوسط الحكومة في شأنه .. ولأن الحكومة كانت سنية ، فالضغط كان

يقع غالبا على الشيعة ، وكانوا يقيمون في الكرخ والكاظمية ، وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد ، والحكومة مع ذلك توليهم مصالحها وتعهد اليهم بتدبير شئونها وكان هذا الشقاق سببا في سقوط بغداد ودخولها في حوزة التتار على يد هولاء ، وذلك طبعيا في تاريخ الدول .. واذا تدبرت أسباب الانقلابات السياسية التي تنتقل بها السيادة من دولة الى دولة ، وجدت السبب غالبا اقسام أبناء البلاد فيما بينهم بالمشاحنات الدينية أو الأغراض السياسية ، حتى يستولى القنوط على الفئة الضعيفة اذا غلبت على أمرها .. فتستجد بقوم غرباء يأخذون بناصرهم ، ثم لا يزالون يتحينون الفرص حتى تصير الدولة اليهم .. وتكاد لا تجد انقلابا سياسيا في تلك العصور يخرج في سببه عن نحو ما تقدم

- ٣٦ -

### قصور بغداد

وكان على دجلة جسران موصلان بين شرقي المدينة وغربها ، كل منهما مبنى من أخشاب مثبتة على سفن مستديرة الشكل ، أهمها منصوب بين حى قصر عيسى والرصافة .. ينتقل عليه الناس والدواب .. وكان على ضفاف دجلة في البر الشرقي قصور الخلفاء وأهم



أبنية بغداد .. أشهرها قصر التاج ، والقصر الحسيني ، والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله والد المستعصم بالله ، والمدرسة النظامية ، وقصر الريحانية ، وقصر الفردوس .. وأقرب هذه المباني من طرف الجسر الشرقي قصر لا اسم له ، كان يقيم فيه مؤيد الدين بن العلقمي وزير المستعصم ، وكان من أهل الكفاءة والدهاء ، ولكنه كان نضوحا مخلصا يرى ما في الدولة من الاضطراب ، ويبدل جهده في النصح للخليفة وتبنيه الى ما يعود بالصلاح له وللدولة . وكان المستعصم ضعيف الرأي ، لكنه حسن الظن بوزيره ، فكان يصغى لنصائحه في أكثر الأحيان . غير ان ذلك لم يكن ضامنا للخير منقذا من الخطر ، لأن الرأس اذا كان مختلا اضطربت سائر الأعضاء وان كانت سليمة . ويغلب في مثل هذه الحال أن ينقاد الى المتلقين ، وذوى الأغراض من أهل الدولة ، أو العصية .. وهم المفضلون عنده ، فيغتنمون ضعفه ويعيثون في الأرض فسادا لاشباع مطامعهم .. ولا يسمع الرئيس فيهم لوما ولا يصغى الى انتقاد تلك كانت حال المستعصم في ذلك الحين ، حتى أصبح العوبة بين أيدي أعوانه ورؤساء قصوره .. لأنه كان غارقا في ألوان الترف ، شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني ، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة .. وكان ندماءه وأعوانه منهمكين معه في التعميم والملاذات لا يراعون له صلاحا (١)

وزد على ذلك انه اتتهج طريقا لم ينتهجه أسلافه من الخلفاء .  
 نعى أن الخلفاء قبله كان أكثرهم يضيّقون على أولادهم وأقاربهم ..  
 تلك كانت سنتهم الى آخر أيام المنصور . فلما تولى ابنه المستعصم  
 أطلق أولاده فكان اطلاقهم سببا في زيادة الاضطراب .. أكبرهم  
 اسمه أبو العباس أحمد ، لكن العامة كانت تسميه أبا بكر .. وكان  
 هذا الشاب مغرورا بمنصب والده فاتخذه ذريعة لأغراضه . وكان  
 شديد التعصب على الشيعة يجاهر بذلك على رءوس الأشهاد .  
 ولعل بعض المحيطين به من أرباب المطامع أثاروا فيه هذه العاطفة  
 لأغراض لهم ، وهو لا يدرك ذلك .. فكان يطارد الشيعة ويلحق  
 بهم الأذى . وكان ابن العلقمى يتحمل منه ويصبر عليه مكرها ،  
 وكثيرا ما شكاه الى أبيه

وزاد الطين بلة ان هولاء التتري حفيد جنكيزخان ، كان  
 قد أسس دولة عرفت بدولة ايلخان أو مغول الفرس . فلما استقر  
 له الأمر في فارس طمع في بغداد ، وأخذ يتهيأ للهجوم عليها ..  
 فاتفق انه كان يحارب الاسماعيلية في فارس ويحاصر قلاعهم ،  
 فكتب الى المستعصم يستنجد به ، فأراد أن ينجده .. فمنعه  
 أمراؤه من ذلك مخافة أن يكون قصد هولاء الخديعة لتخلو  
 بغداد من الرجال فيملكها بسهولة . ثم فتح هولاء تلك القلاع  
 وبعث الى المستعصم يعاتبه ، فأشار عليه الوزير ابن العلقمى أن  
 يسترضيه بالهدايا والأموال ، فأطاعه وأخذ في تجهيز هدية من  
 الجواهر والماليك والبنات .. فاعترض الدوادار « قائد الجند »

وطعن في نية الوزير وقال : « انه يروم تسليم الدولة الى التتر » فكف الخليفة وأرسل هدية يسيرة . فغضب هولاءكو وبعث الى الخليفة ، انه لايرضيه الا اذا أتى هو بنفسه للاعتذار أو أن يتيب عنه الوزير أو الدوادار ، فلم يفعل وأرسل اليه أناسا لم يقبل هولاءكو نيابتهم ، واتخذ ذلك ذريعة للحملة على بغداد ولم يدرك المستعصم حقيقة مركزه ، فوقع ابن العلقمي في حيرة من أمره .. فكان يكثر من التفكير في مصير هذه الحال ، ويرى الخطر محققا بالدولة ، فينصح ويحذر بلا فائدة . وكانت رسل هولاءكو تأتيه سرا تحمل اليه كتب التحريض على الخروج اليه ، أو الاذعان في تسليم بغداد ، ويعدده بالوعود الكثيرة . وهو يتردد ويصبر لعل الخليفة يصغى لنصحه ، وكان اذا لقي المستعصم وخاطبه في ذلك وعده أن يعمل برأيه ، ثم لا يلبث أن يفارقه حتى يرجع عن وعوده بما يدسه بعض الأعوان من الدسائس على ابن العلقمي ، ويتهمون به بالخيانة لأنه شيعي وكان كبار الشيعة من جهة أخرى يحومون حول ابن العلقمي ، يشكون اليه ما يقاسونه من الاضطهاد والتعسف من ابن الخليفة ( أبي بكر ) ، حتى أصبحوا لا يأمنون على أموالهم ولا على أعراضهم . وهم يقيمون في الجانب الغربي من بغداد ، وأكثرهم في الكرخ والكاظمية . وابن العلقمي يخفف عنهم ويعددهم خيرا . لكنه كان يتجنب الاجتماع بهم جهارا ، خوفا من الاشتباه في أمره ، فلم يكن يأذن لأحد منهم أن يزوره الا خلسة ، لأن

جواسيس المستعصم كانوا يحيطون به ، يعدون عليه أنفاسه

- ٣٧ -

### ابن العلقمى

وأصبح ابن العلقمى ذات يوم وقد عظم ذلك الأمر فى نفسه ، ونفر من العمل وهو لا يرى فيه مصلحة له ولا للدولة .. فأحب أن يبقى فى منزله وهو بملابس البيت ، وفى قصره شرفة مرتفعة تطل على دجلة والجسر والرصافة والكرخ جميعا ، كان قد بناها لهذا الغرض . فصعد إليها وأمر الخدم أن لا يزعموه بطلب .. كأنه مريض لا يستطيع مقابلة أحد

صعد الى الشرفة وقد التف بعباءة خفيفة ، وتعمم بعمامة صغيرة . وكانت الشرفة كالمصطبة أو المنطرة عليها الوسائد والطنافس ، وبعض أدوات التسلية لمن شاء من زائريه التلهى بها . وبينها رقعة شطرنج موضوعة على وسادة فجلس بجانبها . وكانت هذه اللعبة كثيرة الشيوع فى بغداد تلذ لأصحاب العقول المفكرة . ولا سيما الذين يهتمون بالسياسة ويحتاجون الى الحيل العقلية ، وهو يومئذ فى تردد واضطراب ، فأخذ ينظر فى تلك الرقعة ويتسلى بنقل أحجارها على سبيل التجربة ، فلم تجد نفسه راحة فى ذلك ..

فاتقل الى مقعد فى صدر المنطرة يطل على بغداد . وكان الجو صافيا فألقى نظره على تلك المدينة التاريخية يخرقها نهر دجلة

المبارك ، وعلى ضفتيه العمارة من القصور والمدارس ،  
 والمستشفيات ، والمساجد ، والجوامع ، والحمامات ، والبساتين ،  
 والترع ، والجسور ، والشوارع ، والدروب ، والأسواق ..  
 مما يشغل الخاطر ، واستحضرت ذاكرته تاريخ بناء هذه المدينة  
 وسبب بنائها منذ نيف وخسمائة سنة ، ومن توالى عليها من  
 الخلفاء ، وما تقلب عليهم من الأحوال ، وما بلغت اليه في أيام  
 الرشيد من أسباب الحضارة .. يوم كانت عاصمة الاسلام في  
 أقطار الأرض تجبى اليها الأموال من معظم العالم المعمور ، من  
 تركستان الى المحيط الأطلسي .. يتوافد اليها ملوك الأرض  
 يخطبون ود صاحبها ويتزلفون اليه

ثم صدمته فجأة نكبة البرامكة وما كان من ذلهم بعد عزهم ،  
 وهم أصحاب الفضل الأول في تلك الحضارة .. وما عقب ذلك  
 من الفتنة بين الأمين والمأمون ، وما قتل في سبيلهما من الأنفس ..  
 الى آخر ما حدث من تقلبات السياسة حتى صارت الدولة  
 العباسية الى التقهقر ، وغلبها الأمراء في الأطراف على أمرها ،  
 وأخذوا يستقلون عنها .. ثم طمع طلاب السيادة فيها ، فحملوا  
 عليها حتى دخلوا بغداد في زمن البويهية والسلاجقة وغيرهم .  
 وأخذ نفوذ الخلفاء في الأفول .. وأصبحت سيادتهم محصورة في  
 بغداد ، تكاد لا تتعداها ، وصاروا آلة في أيدي دولتهم . وقد  
 تصاغرت أحلامهم وانحصرت مطامعهم في الملذات الجسدية ،  
 وقضاء الوقت في اللهو والغناء كما هو حال المستعصم

ولما تذكر المستعصم اتبته لنفسه ، واستحضر ما فى خاطره من أمره .. فوجه التفاته الى قصور الخلافة ، فرأى قصر التاج على ضفة دجلة اليسرى .. وبينه وبين مجرى النهر مسناة مرصوفة بالرخام ترسو عندها الزوارق .. وحوله البساتين فيها أنواع الأشجار والرياحين .. بينها قصور عديدة فى مثل ما هو فيه ، وتذكر ما كان عليه قصر التاج قبل مائة سنة ، يوم أن كانت واجهته مبنية على خمسة عقود ، وكل عقد عشر أساطين من الرخام فى عرض خمسة أذرع .. وكيف شبت فيه النار وصيرته كالفخم ، فأبدلت أساطين الرخام بالأجر (١)

وانتقل بعتة الى الحجارة التى بنى منها ذلك القصر . فتذكر ان المكتفى بالله حالما تولى الخلافة فى أواخر القرن الثالث للهجرة أمر باتمام بنائه بأقناض القصر الأبيض الكسروى . ولم يبق منه الآن الا الايوان . فحملوا أقناض ذلك القصر الفخم وأتموا بها بناء قصر التاج . ومن أقناضه ما وضع فى المسناة . فوقعت هذه الذكرى من خاطر ابن العلقمى موقع اعتبار وقال فى نفسه : « هكذا شأن الانسان والدنيا دول .. نقض العباسيون قصور الأكاسرة وبنوا بأقناضها قصورهم ، وهذه قصور هؤلاء تؤول الى الخراب الآن .. فسبحان الباقي »

وبينما هو فى ذلك اذ سمع ضوضاء لم يحفل بها ، لأنها ضوضاء تلاميذ المدرسة المستنصرية بجانب قصره . وهى يومئذ

في ابان عزاها ، وفد بناها المستنصر بالله والد المستعصم من عهد قريب .. وأقام فيها الأساتذة والمعلمون لتعليم الفقه ، والحديث ، والرياضيات ، والطب والحيوان ، وتقويم البلدان وغيرها (١) ، فالتفت اليها فرآها لا تزال في رونقها لقرب عهدها من البناء . وحوّل نظره عنها الى سائر أبنية بغداد ، وكثرة ما فيها من الحمامات ، فرأى أكثرها سوداء اللون . وهو يعلم ذلك ويعلم ان سببه كثرة وجود القار في عين ما بين البصرة والكوفة ، فأهل بغداد يطلون حماماتهم به ، فتظهر كأنها مكسوة بالرخام الأسود (٢) لكنه لم يسبق له أن رآها وهو في تلك الحال ، فأثر منظرها في نفسه وتشاءم من سوادها

— ٣٨ —

قادم مفاجيء

ثم سمع لفظا في داره على صورة لججاج وجدال .. فأصغى فسمع رجلا يطلب أن يقابله والخدم يقولون له : « ان مولانا الوزير في شاغل عن المقابلة »  
فاستأنس ابن العلقمي بذلك الصوت لأنه يعرفه .. فجذب جبلا بجانبه متصلا بالطبقة السفلى من القصر ، فدق جرسا هناك — وهي اشارة الاستدعاء عندهم — فجاءه غلام من غلمانه

(٢) ابن جبير ٢٢٩

(١) سيرة الملوك ٢٢١

فسأله عن سبب الضوضاء ، فقال : « ان رجلا غريبا يطلب أن يرى مولانا ولم يصغ الى رفضنا »  
 فقال ابن العلقمي : « قد سمعت صوته وأظنني عرفته ، لا بأس من ادخاله »

فعاد الغلام ، وبعد قليل جاء ووراءه رجل عليه ثياب الفرس ووجهه فارسي . فلما رآه مؤيد الدين عرفه فرحب به وقال :  
 « سبحان .. »

فأكب سبحان على يد الوزير يهم بتقبيلها ، فمنعه الوزير من ذلك وصافحه وأجلسه بجانبه ، وأمر الخدم بالانصراف وقال :  
 « سبحان .. منذ متى أنت هنا ؟ »

قال سبحان : « جئت بغداد مساء أمس ياسيدي »

قال ابن العلقمي : « من أين أتيت ؟ »

قال سبحان : « من القاهرة »

قال ابن العلقمي : « جئت من القاهرة ؟ .. أذكر اني رأيتك هنا من عهد غير بعيد » ..

قال سبحان : « نعم يامولاي .. كنت هنا وسافرت ثم عدت »

قال ابن العلقمي : « سرعان ما سافرت ورجعت .. »

قال سبحان : « ألسنت تاجرا أحمل السلع بين بغداد ومصر ؟ فاذا نفذت بضائعي عدت لأشترى سواها ولا يهمني تعب السفر كثيرا » ..

فابتسم مؤيد الدين وقال : « انقطعت للتجارة يا سبحان ؟ »



فضحك ضحكة مصطنعة وقال : « وهل ترى فائدة في سواها  
أيها الوزير ؟ » ..

فأدرك ابن العلقمي انه يشير الى الوزارة التي هي عمله فقال :  
« صدقت .. لا فائدة في سواها . ولا خير في أعمال الحكومة -  
حتى الوزارة فان صاحبها متعب القلب بغير فائدة - مضت  
أيام الوزارة الحقيقية و .. و .. » وسكت كأنه خشى التصريح  
بما في خاطره ..

فقال سبحان : « كل شيء الا الوزارة .. فانها أرقى مناصب  
الدولة والوزير هو صاحب الحل والعقد .. لكن يشترط أن .. »  
وبلع ريقه وسكت .. وهو يخرج منديله من كفه ليتشاغل به  
فقال مؤيد الدين : « ماذا يشترط يا صاحبي ؟ هل تحسب  
وزير اليوم كما كان في صدر هذه الدولة ؟ »

فقطع سبحان كلامه قائلاً : « بل ينبغي أن يكون اليوم أقدر  
منه في تلك الأيام لضعف الخلفاء وتقييد أيديهم .. »

فهز رأسه وقال : « ولكن هؤلاء الضعفاء لا يسمعون نصيحة  
لأنهم يصغون الى خدمهم وخصيانهم .. »

قال سبحان : « أليس عندك علاج لهذا الضعف يا وزير ؟ »  
قال ذلك وظهر الجذ في عينيه

فقال مؤيد الدين : « وأى علاج تعنى ؟ »

قال سبحان : « أعنى علاج هذا الضعف .. هذا الرجل عضو  
فاسد ، والجراح يشير بقطعه لثلا ينتقل الفساد الى سائر البدن »

وحدق في وجه الوزير يستطلع رأيه  
 فأكبر ابن العلقمي هذه الجسارة بين يديه ، فنظر اليه نظر  
 المنكر العاتب . وقبل أن يقول كلمة تصدى سبحان وقال : « انك  
 تعد قولى جسارة ، أو وقاحة كما تشاء .. ولكننى أقول ما أشعر  
 به ، ونحن مشتركان في المصلحة ويبدنا مفاتيح النصر لا ينقصنا  
 غير الحزم .. تشبه اذا شئت بخلفاء صدر هذه الدولة وكفى »  
 فالتفت مؤيد الدين الى ما حوله كأنه يحذر أن يسمعها أحد ،  
 ثم نظر الى سبحان قائلاً : « لا أوافقك على ما تقول ولم أفهم  
 ما تشير اليه » ..

قال سبحان : « أجلك عن أن يفوتك مرادى .. ولكنك ترى  
 من السياسة أن تتجاهل .. انى أشير الى ما فعله الرشيد بجعفر ..  
 ألم يقتله ويقتل سائر البرامكة لأنهم شيعة ، ولأنه خشى أن  
 يكون منهم سوء على سلطانه .. فقتلهم بمجرد التهمة . وقد أساء  
 بقتلهم لدولته ولنفسه .. أما أنت فاذا انتقمت الشيعة بهذا الحزم  
 فانك تنجى هذه البلاد من الخراب »

فاستعظم مؤيد الدين هذا التصريح وقال : « دعنا من هذا!  
 الكلام يا صاحبي .. اذ لا فائدة منه . والظاهر انك متألم من  
 أمير المؤمنين أو بعض أهله فأردت ... »

فقطع سبحان كلامه قائلاً : « كلا .. لا أقول ما أقوله عن  
 غضب أو نقمة ، وليس بينى وبين هؤلاء علاقة شخصية ، لكننى  
 غضبت لقومى وملتى .. غضبت للنفوس التى تقتل ، والأعراض



« فأكبر ابن العلقمي هذه الجسارة بين يديه ، فنظر إليه نظر المنكر العاتب . . .  
وقبل أن يقول كلمة تصدى سحبان وقال : انك تعد قولي جسارة » . . .

«لنى تنتهك ، لا لشىء آخر سوى خبها للامام على وسائر أهل البيت » .. قال ذلك وغصص بريقه لعظم التأثر ..

ولم يكن مؤيد الدين أقل منه غضبا ونقمة ، لكنه كان حذرا متأنيا فقال : « خفف ما عندك يا سبحان ودعنا الآن من هذا الحديث ، ان الأمور مرهونة بأوقاتها »

قال سبحان : « لا أرى وقتا أنسب من هذا .. ان هذا الأمر اذا كان مرهونا بوقت فهذا هو وقته .. اسألنى وأنا أجيبك .. » قال مؤيد الدين : « لست أجهل ما يجول فى خاطرك ، لكننى لا أرى هذا وقته .. »

قال سبحان : « لا أظنك فهمت مرادى تماما .. عندى مشروع آخر غير الذى تعرفه .. غير هولاءكو .. »

فلما سمع هذا الاسم أجفل لأنه ما برح نصب عينيه منذ أشهر وهو سبب تردهه .. فقال : « ما هو ؟ »

قال سبحان : « أشكر لك اصفاءك ياسيدى .. الأمر الذى عندى يوصلنا الى المطلوب رأسا . أعنى اننا نحببى الدولة العلوية فى بلد ظل مقر العلويين نحو مائتى سنة ، وهم دولة عظيمة الشأن » فقال مؤيد الدين : « أظنك تعنى مصر .. أين نحن منها ؟ .. وقد تسلط عليها الأتراك .. و .. و .. »

قال سبحان : « أنا أعلم منك بحالها لأنى جئت من هناك أمس .. وأنا لا أسافر وأجىء للتجارة ، لكننى أريد حياة قومى ونصرة الأئمة المظلومين .. أنا فى مصر منذ أعوام وقد عرفت

دخائلها وهي في يدى كما أشاء »

فضحك ابن العلقمى وقال : « ما أوسع أحلامك ، وما أكثر أوهامك .. كيف بلغ بك الغرور أن تنوهم أن مصر في قبضة يدك ؟ .. وهي ائى ذلك سنية المذهب ، ورجال دولتها جميعا من الأتراك السنيين .. »

قال سحبان : « أنا أعلم ذلك ياسيدى .. ولكنهم منقسمون على السيادة ، وطالب السيادة الآن رجل حازم ناظم على السلطان الحاضر ، لأنه أساء في أمر له ارتباط بقلبه .. فهو يبذل جهده في تحقيق غرضنا .. وهو ناظم أيضا على خليفتك هذا لأنه أخذ خطيئته منه ، ولا يلبث أن يأتى للانتقام ، فاذا ساعدناه على قتل هذا الخليفة وبايعناه سلطانا على مصر أطاعنا في اعلان الخلافة الفاطمية بمصر .. فنعود الى عزنا وتخلص من هؤلاء الظالمين » وأبرقت أسرته كأنه نال ذلك فعلا

ولا بد أن يكون القارىء قد لاحظ ما ذكرناه من مساعى سحبان فيما تقدم ، انه كان من أهل الخيال وأصحاب الأوهام الذين يستسهلون الصعب ويتوهمون وقوع المحال .. فاذا تصور أحدهم أمرا يتمنى حدوثه تذرع الى تصديقه بأوهن الأسباب ، وأغضى عما يعترضه من العقبات ، أو يحول دون الحصول عليه من الموانع الطبيعية . وهذه الفئة من الوهميين كثيرة خصوصا في بلاد الشرق .. ولعل الفرق بين الناس في أسباب النجاح متوقف على تقديرهم للحقيقة حق قدرها ، والاحتياط للحوادث قبل

## - ٣٩ -

الضوضاء

أما مؤيد الدين فانه كان من أهل التدبير والحزم ، ينظر في العواقب ويتدبرها ولا تتملكه الأوهام .. ولولا ذلك لم يبلغ الى منصب الوزارة في دولة مذهبا ضد مذهبه ، وبين قوم يكرهون الشيعة ويفتكون بهم .. فلما سمع كلام سحبان استخف برأيه ، وخاصة لأن ابن العلقمي لم يسرف في مطامعه الى هذا الحد لعلمه بعجز الشيعة عن الفوز .. ولكنه كان يقنع بأن يستبدل الخليفة بآخر، فلم يشأ أن يفتح سحبان بهذا الأمر، وعمد الى الاختصار في الحديث ، فقال : « سننظر في ذلك في وقت آخر »

فأحس سحبان بما يضره من احتقار رأيه ، فقال : « يظهر انك لم تكثرث نقولى أو لعلك استبعدته .. ولو عرفت الأسباب التى عندى لوافقتنى .. »

قال مؤيد الدين : « نعم يا صديقى .. رأيت مطمعك عسيرا ، بل يكاد يكون محالا »

وكان سحبان يحترم رأى مؤيد الدين ، فقال : « اذا كان رأبى ضعيفا فأسمعنى رأيا خيرا منه .. أم أنت ترى أن نبقى في هذا الذل حتى الموت ، ونحن سكوت ؟ »

قال مؤيد الدين : « كلا .. لا ينبغى أن نبقى كذلك .. لكن

علينا أن نفكر ونقيس ونحتاط ، لا أن نلقى الكلام على عواهنه ، ونطلب الحال .. »

قال سحبان : « حسنا ياسيدى .. ما هو الممكن اذن .. ؟ ما هى الطريقة للنجاة ؟ »

قال مؤيد الدين : « لقد أخرجتنى فى الكلام يا سحبان ، ولم أكن أحب التصريح بما فى خاطرى الآن .. فاعلم اننا نحن الشيعة لا ينبغي لنا أن نطمع فى إعادة دولتنا اليوم لأن الظروف لا تساعد على ذلك . ولا بد من أن يأتى يوم يتمكن فيه أبناؤنا منه . أما الآن فيكفينا ابدال هذا الخليفة الضعيف المشتعل باللهو والغناء بخليفة عاقل حازم ينصفنا . هذه هى الخطة التى يجب أن نضعها نصب أعيننا .. »

فأطرق سحبان وهو يعمل فكرته ، وقد استصغر نفسه واستضعف رأيه ، وكان مع اسرافه فى الوهم سريع القلب سهل الانقياد ، فاستصوب رأى ابن العلقمى وقال : « صدقت ياسيدى .. انك فى الحقيقة وزير مدبر عاقل . قل لى ما هى المعدات التى أعددتها لتنفيذ هذا المشروع ؟ .. »

فنهض مؤيد الدين ، وهو يظهر أنه مل الحديث ، أو انه لا يريد التصريح بأفكاره لسحبان ، ووجه التفاته الى جسر بغداد القائم على السفن المستديرة ، فاذا هو يعج عجيجا بالناس على غير المعتاد .. وقد تراحت عليه الأقدام ، وأكثر المشاة يركضون كالهاريين من حرب ، فلم يستطع أن يتبين الوجوه ، لكنه توسم

في الأمر شيئاً هاما .. والتفت نحو سحبان فرآه أكثر منه دهشة ، وكان أقوى منه بصرا .. فصاح : « ألا ترى يامولاي ؟ ألا ترى ؟ .. هؤلاء جنود الخليفة عائدون من غنيمة يجرون وراءهم الأسرى والسبايا »

فقال وقد أجفل : « وأى حرب ؟ »

قال سحبان : « لا أدري ، ولكنني أرى جندا وهذه راياتهم أمامهم . واذا صدق ظني فاني أرى راية الدوادار في مقدمتها ، وقد ذكرني ذلك بما كنت أراه من تعدى هؤلاء الجنود على قومنا في الكرخ والكاظمية »

فحدق مؤيد الدين في المارة ، فلم يستطع أن يتحقق شيئاً .. واذا به يسمع ضوضاء في داره أشبه بالعويل منها بالصياح ، فأطل من نافذة تشرف على فناء الدار ، فرأى جماعة من النساء يبكين ويعولن ، وقد تلطخت أثوابهن بالدماء والتراب .. ومعهن شيخ أحنى ظهره الكبر وهو يتوكأ على عكاز ويكي ، فنظرت قلبه لهذا المنظر ، لكنه لم يعرف القوم ، وكان سحبان واقفا بجانبه ينظر الى الدار ، ولم يكذب يتفرس فيه قليلا حتى صاح : « وا .. والداه .. »

فأجفل ابن العلقمي وقال : « من هذا ؟ .. لعله أبوك ؟ » قال سحبان : « نعم .. هو والدي ياسيدي .. أعهدده مقيما في الكرخ بسلام وأمان ، ماذا جرى له ؟ » قال ذلك واستأذن في النزول فنزل مؤيد الدين في أثره



ولم يكد يصل سحبان الى الدار حتى سمع اياه يقول :  
« أين الوزير ؟ .. أين مؤيد الدين ؟ » ولما وقع بصره على مؤيد  
الدين صاح فيه : « أنت وزيرنا ويصينا ما أصابنا ؟ .. اذا كان  
ذنبنا اننا نجب أهل البيت الكرام فقد قبلنا العقاب على الرأس  
والعين . والله يجزى كل نفس بما فعلت »

وكان سحبان قد وصل الى أبيه ، وقال : « أبى .. ماذا  
جرى ؟ .. ماذا أصابكم ؟ .. كيف خرجتم من البيوت على هذه  
الصورة ؟ .. »

فالتفت الشيخ الى ابنه ، ولما تبينه ألقى عصاه وأكب عليه  
وقبله وأخذ في الشهيق والبكاء وقال : « ولدى .. سحبان ..  
هل أنت هنا ؟ .. متى جئت ؟ .. آه .. يا ليتك جئت عندنا قبل  
مجيئك الى هنا .. أو لعلك أحسنت بعدم مرورك بنا لئلا تصاب  
بما أصيب به اخوتك »

فاقشعر بدنه وقال : « اخوتى ؟ .. ماذا أصابهم ؟ .. من فعل  
بكم هذا ؟ .. ولماذا ؟ .. قل .. قل .. يا أبى .. »  
فأخذ يلهث حتى يسترد قواه ثم قال : « تسألنى من فعل بنا  
ذلك ؟ .. ألا تعلم ممن تأتي مصائبنا ؟ .. انها تأتي من .. »  
والتفت يمينه ويسرة وهو خائف وعيناه يغشاها الدمع ، وقال :  
« انت تعلم ممن تأتي مصائبنا .. »

فقال سحبان : « لعل هذا الجند المار الآن على الجسر كان  
عندكم ؟ .. »

فصاح : « اننا هاربون منه وجئنا الى هنا نلتجىء الى مولانا مؤيد الدين ، آه ياسيدى ( والتفت الى الوزير ) ألقذنا من هذا العذاب .. أخرجنا من هذا البلد » والتفت الى سبحان وقال : « انت تفر من هذه المصائب كل سنة وتتجو بنفسك وتتركنا أنا واخوتك معرّضين لهذا الخطر .. يا الهى متى نخلص من هذا العذاب ؟ .. »

فأجابه سبحان وهو يرتعد من الغضب : « عن قريب ان شاء الله » والتفت الى مؤيد الدين فرآه واقفا يسمع ويتجلد ، وقد أوماً الى النساء أن يدخلن دار الحريم . ونظر الى الشيخ وتلطف فى خطابه وقال : « تفضل يا عماء واجلس هنا .. خفف ما عندك وقص على ما جرى .. »

قال ذلك وجلس وأجلس الشيخ بين يديه ، وسبحان واقف لا يريد أن يجلس من شدة الغضب . فأخذ الشيخ يقص حديثه فقال : « انت تعلم يامولاي حالنا مع هؤلاء القوم كيف يناوئوتنا ويعذبوتنا ، ونحن صابرون ننتظر الفرج .. لكنهم لم يرتكبوا من قبل ما ارتكبوه هذه المرة من القتل والسبى .. فانهم لم يبقوا على الأموال ولا الأعراس .. » وصاح ثانية : « ولا الأعراس .. » وغص بريقه وشفته تترعشان فتشاغل بالبحث عن عصاه ..

فتأثر مؤيد الدين من منظره ونظر الى سبحان ، فرآه يمسح عينيه ، ويخجل أن يراه الناس باكيا .. فتجلد وأخذ يخفف عن

الشيخ ، فقال : « يا عماء .. هون عليك .. لكل شيء نهاية ..  
والله مع الصابرين .. ثم ماذا جرى ؟ .. »  
قال الشيخ : « لا تسألنى يا بنى عما جرى فانه يفتت الأكباد  
يكفى ما ترونه .. » وجعل يمسح عينيه وأنامله ترتجف  
فأجابه سحبان : « قد تعودنا هذه الشدائد منهم ، ولكن .. »  
فقاطعه أبوه قائلاً : « لا .. لا .. ها أنا قد أدركت الشيخوخة  
في هذا البلد مع هؤلاء القوم ، وشاهدت نكبات عديدة ليس  
فيها واحدة مثل هذه ، كانوا يعتدون على بعض المارة أو يتهمون  
بعض الرجال بأمر يسوغون به لأنفسهم مصادرة أمواله أو أهاته ..  
أما الآن فانهم قد دخلوا المنازل بلا حجة ولا سبب ، واتهكوا  
حرمة النساء ، وارتكبوا الفاحشة ، وقتلوا الأطفال .. دعنى ، لم  
أعد أستطيع الكلام ولا أبالى اذا مت .. وانما أطلب الى الله أن  
ييقينى حيا لأرى زوال هذه الدولة » قال ذلك وأسرع تنفسه  
وأوشك أن يغمى عليه .. فرشوه بالماء ، وبادر سحبان فأعانه حتى  
أدخله غرفة استراح فيها ، وذهب توا الى دار الحريم ، وكلف أحد  
الحصيان أن يجمعه بأخته ، وكانت مع النساء .. فأتته وهى تبكى  
وتندب وقد قطعت شعرها فقال لها : « اخبرينى يا صفة .. ماذا  
جرى لكم ؟ .. هل أصيب أحد منكم بسوء ؟ .. أين اخوتك ؟ .. »  
فلطمت كفا بكف وقالت : « لا أدرى أين هم .. هل هم  
أحياء أم هل هم أموات .. لست أدرى .. ويلاه .. أين كنت  
لتشهد المذابح ؟ .. انهم دخلوا مخدعى وأوشكوا أن يمسونى

أعوذ بالله .. »

فأشعر بدنه من هذه الكلمة ، ولم ير بدا من التجلد بين يديها ، فقال : « الله كريم يا أخية .. سوف ينتقم من القوم الظالمين .. » قال ذلك وتحول الى الدار ، فلم يجد مؤيد الدين هناك .. فسأل الخدم عنه فقالوا انه في حجرته يلبس ثيابه ، فعلم انه عازم على الذهاب الى قصر الخليفة في هذا الشأن .. فسرّه انه غضب ، وودّ أن لا يفلح في مهمته لعله يعمل بمشورته ويعزم على التخلص من هذه الدولة

وذهب الى أبيه فرآه قد أفاق واستراح ، فجلس اليه وأخذ يخفف عنه ، ويسأله عن تفصيل ما حدث ، فلم يزد الا دهشة .. لكنه أخذ يهون عليه بأنه سينتقم له أضعاف الأضعاف ، وان الله لا بد أن يبيد الظالمين .. ونحو ذلك ، من عبارات التعزية وقد تعودها الشيعة في بغداد لكثرة ما توالى عليهم من المحن ..

— ٤٠ —

### المستعصم

أما مؤيد الدين ، فانه لبس قلنسوته وقبائه الأسود .. وركب بغلته الى قصر التاج ليرى الخليفة ، ويشكو اليه ما فعله جنده مما لا يحتمل .. والعلام يركض بين يديه ، فمرّ بالمدرسة المستنصرية والقصر الحسنى حتى بلغ قصر التاج ، فدخل بساتينه

والخدم يوسعون له .. فلما وصل الى بابه الأكبر ، ترجل ودخل مسرعا والغضب باد على محياه ، حتى انه لم يحسن رد التحية على من لقيه فى طريقه من الخاصة

فلما وصل الى باب العامة ، مشى الحرس بين يديه .. فسأل صاحب الباب عن الخليفة فقال : « انه جالس على منظره المسناة فهل أستأذن لمولاي الوزير ؟ »

قال مؤيد الدين : « هل هو وحده هناك ؟ .. »

قال : « عنده بعض الخاصة والمغنون .. »

فشق عليه ذلك لأنه طالما فكر فيه وتكدر منه فقال له : « استأذن لى عليه أو قل له انى أحب لقاء أمير المؤمنين حينما يشاء .. »

فذهب الغلام وعاد وهو يقول : « لايرى أمير المؤمنين بأسا من دخولك الى المنطرة » فلم تعجبه هذه الدعوة لأنه كان يحب أن يراه على حدة .. لكنه لم ير بدا من الطاعة ، فدخل من دهليز الى دهليز والخصيان توسع له حتى أطل على المنطرة . وهى كالعريش ( أو الكشك ) تشرف على دجلة .. فوقها قبة من الخشب مزخرفة بالنقوش المذهبة الجميلة ، وأرض المنطرة مفروشة بالسجاد الثمين عليه الرسوم البديعة . وفوق السجاد الوسائد المطرزة . وفى وسط المنطرة مائدة عليها ألوان الفاكهة والحلوى ، وفى صدر المكان المستعصم وقد اتكأ على مرتبة عالية كالسرير . وعليه ثوب أبيض شبه القباء برسوم من ذهب . وعلى

رأسه قلنسوة مذهبة مطوقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة الخاصة بملايس الملوك.. كأنه يتعمد التشبه بزي الأتراك.. وكان المستعصم أسمر اللون مسترسل اللحية ، ربع القوام ، ليس بالطويل ، ظاهر الحياء ، لين الكلام ، سهل الأخلاق (١) ، الا انه ضعيف البطش قليل الخبرة بأمر المملكة يطمع فيه كثيرون ، وأمام المنطرة نهر دجلة يجرى ، وفيه الزوارق المعدة لركوب الخليفة متى شاء ..

فاستعاذ مؤيد الدين من هذه المقابلة ، وود لو انه لم يأت في تلك الساعة ، لكنه لم يسعه الا القاء التحية بالاحترام اللائق . فأشار اليه المستعصم أن يتفضل بالجلوس على وسادة بالقرب منه وقال : « مرحبا بوزيرنا الهمام »

فتأدب في الجواب وتقديم الاحترام ، والتفت الى الحاضرين فلم يجد بينهم من يحترم مجلسه أو يعتد بوجوده ، وانما هم طائفة من خاصة الخليفة العائشين في داره بين قيم القصر ، وأستاذ الدار ... وهذا يعرف بالصاحب وله قدر كبير عند الخليفة ، ويدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة . وقلما يظهر للعامة اشتغالا بما هو في سبيله من أمور تلك الديار ومراقبتها ، والتكفل بمغالقتها وتفقدتها ليلا ونهارا . فقد كان فيها من النساء عدد كبير فيهن سبعمائة امرأة باشرهن هو وأولاده .. وتصور عدد من في خدمتهن من الخصيان . وزينة الملك عندهم القتيان

(١) سيرة الملوك ٢١٤

والأحباش المجاييب ، فانهم تقدموا فى تلك الدولة تقديما عظيما حتى ان أحدهم قد يمشى وبين يديه وخلقته أمراء الجنود من الأتراك والديلم ، وحوله نحو خمسين سييفا مسلولا وله القصور والمناظر ..

فكان فى تلك الجلسة غير واحد من هؤلاء ، وهم مهمما ببلغ من مقامهم فى الخارج اذا مثلوا بين يدي الخليفة أحضوا الرءوس ، وتخشعوا ، فلا يسمع فى المجلس الا صوت الخليفة أو من يخاطبه فى شأن من الشئون ويطلب الجواب منه

وما أن جلس الوزير ، حتى أشار الخليفة الى المعنى أن يعيد ما غناه ، وهو يطرب لذلك طربا شديدا حتى يخرج به عما يقتضيه منصب الخلافة من الوقار .. وأعوانه يعرفون ذلك فيه ، فيعده بعضهم لظفا وظرفا .. ويعده الآخرون ضعفا وتهاونا .. وكان هذا رأى مؤيد الدين فيه ، على انهم أجمعوا على حسن طوية الخليفة ، ولعل ذلك من أسباب ضعفه التى جعلت لأرباب الدسائس سبيلا اليه

— ٤١ —

أستاذ الدار

وكان مؤيد الدين يسمع الغناء ، وهو مطرق يفكر فيما جاء من أجله ، وينتظر أن يسأله الخليفة عن شأنه . فلما أتم المعنى دوره

التفت المستعصم الى الوزير وقال : « هل سمعت أشجى صوتا وأرق نغما .. ان هذا اللحن يطربنى كثيرا . وهناك لحن آخر قريب منه لم أجد من يجيده في بغداد . فبلغنى عن مغنية في دار سلطان مصر تجيده فبعثت في استقدامها ، لكنها لم تصل الى .. » قال ذلك وسكت ، وقد انقبض وجهه .. ثم استطرد قائلاً : « وكان في عزمى أن أبعث اليك منذ أيام لأخبرك بذلك ، وأستعين بك في البحث عن هذه المغنية لأنى على ثقة من أنها وصلت بغداد ، لكن بعض اللصوص أخذوها من الركب الآتى بها من مصر .. فهل تبحث عنهم ؟ »

فأشار مؤيد الدين مطيعا وقال : « لا بد من البحث عن كل لص ومعاقبته .. اذ لا يلبق أن يجسر أحد على ارتكاب جريمة في عهد مولانا أمير المؤمنين أيّده الله » وأحب أن يتطرق الى ما جاء من أجله فتصدى أستاذ الدار وقال : « ان تجرؤ هؤلاء اللصوص على مغنية محمولة لمولانا أمير المؤمنين لم يسمع بمثله . وهو يدل على ضعف سطوة الحكومة وقلة هيبتها في عيون الناس . وكان المرجو من الوزير - حفظه الله - أن لا يترك سبيلا لمثل ذلك .. » فوقع هذا الكلام وقوع السهم في قلب مؤيد الدين ، ولم يطق صبرا على السكوت عنه . وعلم ان الأستاذ الخصى يريد أن يظهر لدى مولاه بمظهر الغيور على مصالح الدولة . فاستثقل ذلك منه وعده جسارة خارجة عن حدود اللياقة في مجالس الخلفاء ، فالتفت انيه وقال : « صدقت يا أستاذ .. لا ينبغي أن



يقع مثل ذلك وتبعته تلقى على الوزير اذا كان الأمر راجعا اليه..  
فان أرواحنا فداء أمير المؤمنين في الدفاع عن الدولة وبذل الجهد  
في طاعته ، ولكن هذه الأمور وأمثالها تقع أحيانا ولا حيلة للوزير  
في دفعها .. ثم حوّل بصره الى المستعصم وقال : « وهذا كثيرا  
ما يقع وتلافاه بدون أن يبلغ الى سمع مولانا أمير المؤمنين ..  
حتى الجند فانهم يرتكبون أمورا لا يليق بالجند ارتكابها ، ولا  
أدرى هل يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم .. » قال ذلك وقد تغير  
وجهه وظهر للخليفة انه يحمل شكاية يريد ابلاغها ..

فقال المستعصم : « لا ينبغي أن يقع شيء من ذلك الا باذن  
منا أو من وزيرنا أو من أستاذ دارنا . وهل وقع شيء من هذا  
القبيل قريبا ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « أرفع الى سمع مولاي أمير المؤمنين أن  
جماعة من أهل الكرخ أتوني الساعة وفيهم الشيوخ والنساء  
يكون ويندبون . وقالوا : ان شرذمة من الجند نزلوا عليهم  
ونهبوا منازلهم ، وقتلوا من وقف في طريقهم ، وارتكبوا  
الفاحشة وغير ذلك .. »

فتصدى أستاذ الدار ، وقال وهو يهز رأسه بسخرية  
واحتقار : « أهل الكرخ ؟ .. أهل الكرخ تعودوا هذه الشكاية ..

فلا يمضى عام أو شهر الا سمعنا هذه الشكاية منهم .. »  
فاستبج مؤيد الدين تعرضه ووقاحته واستغرب اعتراضه  
فقال وهو يخاطبه : « تعود أهل الكرخ الشكوى لأن الجند

تعودوا أن يؤذوهم .. و .. »  
 فقطع الأستاذ كلامه وقال : « وان لم يؤذوهم .. انهم يجبون  
 الشكوى .. هذه عادة الشيعة .. » ونظر الى الحاضرين وضحك  
 ضحك الاستخفاف ..

فأثر ذلك في نفس ابن العلقمي تأثيرا سيئا جدا ، وحوئل  
 وجهه عن الرجل وهو يقول : « لم آكن أظن ان أحدا يجسر على  
 هذا القول في حضرة مولانا أمير المؤمنين .. » وسكت  
 فتصدى المستعصم للكلام وقال : « لا أستحسن ما جرى  
 بينكما .. ولا حق للأستاذ أن يتكلم بهذه اللهجة ، فاذا اشتكى  
 أهل الكرخ أو غيرهم فعلينا أن ننظر في شكواهم وننصفهم اذا  
 كانوا مظلومين ، أو نعاقبهم اذا كانوا مذنبين » ووجه خطابه  
 الى مؤيد الدين وقال : « ماذا جرى أيها الوزير ؟ .. »  
 فاتجه بكليته نحو الخليفة وقال : « بلغني يامولاي أن شرذمة  
 من الجند سطت على الكرخ في هذا الصباح وأمعنت في أهله  
 قتلا ونهبا . وقد رأيت جماعة من المصايين وفيهم الشيوخ  
 والنساء والأطفال ، فلم أشأ أن أفعل شيئا قبل أن أستطلع رأى  
 مولاي .. »

قال المستعصم وهو يظهر الاهتمام : « ان هذا يتعلق بالدوادار  
 قائد الجند ، فينبغي أن نسأله عما بعثه على ذلك .. لعل له عذرا »  
 وصفق فجاء الحاجب ، فأمره أن يستقدم الدوادار حالا ..  
 وعاد الخليفة فأشار الى المعنى أن يعود لغنائه .. واقترح عليه

لحنا خاصا غناه وهو يعزف على العود ، فطرب الجميع الا ابن العلقمى فانه كان يغلى من شدة الغضب وهو يتجأد ..  
وبعد قليل جاء غلام وقال : « ان الدوادار بالباب » . فأمره الخليفة أن يذهب به الى دار العامة ينتظر حضوره . قال ذلك ونهض وأشار الى الحاضرين بالانصراف ، وأوماً الى الوزير أن يتبعه فسار في أثره نحو دار العامة .. وهى قاعة الاستقبال الخاصة بالأعمال ..

ودخل الخليفة أولا الى غرفة الملابس ، وجاء صاحب الثياب فألبسه ما تعود لبسه اذا جلس لمقابلة الناس بالعمامة الكبرى والجبّة وغيرها ..

ثم أقبل على دار العمامة من باب داخلى .. وهى مزودة بالستائر والنمارق والأرائك الثمينة .. يقلدون بها ما كان من أسباب البذخ فى صدر الدولة العباسية

فلما دخل الخليفة القاعة جلس على سريره ، وأوماً الى ابن العلقمى أن يجلس ، ثم أمر الحاجب أن يدخل الدوادار . وكان ابن العلقمى قد سرى عنه فدخل الدوادار وألقى التحية ، ووقف متأدبا فقال له الخليفة : « يقول وزيرنا — حفظه الله — ان الجند سطوا على الكرخ وقتلوا ونهبوا .. فهل تعلم بذلك ؟ »

قال الدوادار : « نعم يامولاي .. »

قال الخليفة : « وتقول نعم ؟ .. وكيف أذنت بوقوعه ؟ .. »  
قال الدوادار : « فعلته بأمر من مولاي الأمير أبى بكر نجل

مولانا أمير المؤمنين .. »

قال الخليفة : « اذا قال لكم أحمد « أبو بكر » اقتلوا الناس  
تقتلونهم بغير سبب ؟ .. »

قال الدوادار : « لم أسمح بارسال الجند الى الكرخ بغير  
سبب .. فقد قال مولاي أبو بكر ان جماعة من أهل الكرخ  
خطفوا جارية من جواريه وخبأوها عندهم ، فذهبنا للبحث عنها  
عند صاحب الشأن فمنعونا من الدخول وجردوا علينا السلاح ،  
فأمرني الأمير بالدفاع والتفتيش وقد فعلت »

فقال الخليفة : « ذهبتم للتفتيش عن جارية أخذت من بيت  
أحمد فقتل بسببها عشرات من الناس .. فلو فعلت مثل فعلكم  
بسبب الجارية المغنية التي أخذت مني لحدث مثل هذا وأعظم  
منه .. ان هذا لا يليق بنا .. أين أحمد ؟ .. »

فأجاب الدوادار : « أظنه في قصره يامولاي .. » ..  
فقال الخليفة : « ادعه اليّ حالا .. »

فلما شاهد مؤيد الدين غضب الخليفة من ابنه على هذه  
الصورة ، استبشر بنجاته من تعدياته وتطاوله وتدخله في أمور  
الدولة .. ونظر الى المستعصم ، فرآه مطرقا والغضب يتجلى في  
وجهه ، لكنه لم يتبين من ذلك الغضب حزما وعزيمة - تلك  
كانت علة ذلك الخليفة - لم يكن ينقصه حسن القصد ، وانما  
كان ينقصه الحزم ..

فظل مؤيد الدين صامتا مطرقا حتى دخل الحاجب وأنبا

مجيء الأمير أحمد ، فأمر الخليفة بدخوله ..

## - ٤٢ -

### أحمد بن المستعصم

فدخل أبو بكر وهو شاب في مقتبل العمر قد أخذه الغرور ،  
وتمازج حركاته خيلاء لا تظهر الا على أصحاب الرعوس الفارغة ،  
ولا سيما في أوائل الشباب - حوالى السنة العشرين من العمر -  
ذلك هو سن الغرور عند كل شاب يتوهم انه بلغ الكمال في كل  
شئ .. اذا مشى حسب ان الناس ينظرون اليه اعجابا بجباله ،  
وبسالته ، ويكادون يتلقفونه بأبصارهم .. واذا قال قولا توقع أن  
يكون له وقع الوحي على قلوب الناس ، فاذا آانس منهم فتورا  
أو احتقارا غضب وأنحى عليهم باللائمة ، ورماهم بالجهل أو  
الحسد لأنهم بخسوه حقه ، وانهم انما فعلوا ذلك تقليلا من  
فضله ليظهر فضلهم .. ونحو ذلك من غرور الشباب

فاذا كاز ذلك شأن الشباب على اختلاف طبقاتهم ، فكيف  
بأبناء الملوك أو الخلفاء الذين لا يسمعون الا المدح والثناء ..  
ولا سيما اذا أحاط بهم المتملقون في مثل ذلك العصر ، وخاصة  
اذا كان في الشباب خفة وصغار مثل أحمد هذا . وقد زاده  
غرورا ان أباه أطلق سراحه من سجنه على غير المعتاد عند الخلفاء  
قبله . فأصبح لذلك لا يحسب للعواقب حسابا .. بل انه لا يدرك

حقائق الأمور ، وانما يهيمه أن تنفذ كلمته وينال مشتهاه مهما  
كلفه ذلك ..

دخل أبو بكر وألقى التحية وتلفت يمينا وشمالا ، فوقع  
بصره على مؤيد الدين فنظر اليه باحتقار ، ومؤيد الدين لا يبدى  
ملاحظة . وجلس أبو بكر قبل أن يأذن له أبوه في الجلوس فقال  
له المستعصم : « يا أحمد .. هل أنت أمرت الدوادر بالهجوم  
على أهل الكرخ ؟ .. »

فأجاب وهو يتنسم نكاية في مؤيد الدين : « نعم يا أبى .. »  
قال المستعصم : « وكيف ذلك ؟ .. ولماذا ؟ .. »

قال أبو بكر : « لأن جارية من جوارى هربت من قصرى  
واختبأت في منزل أحدهم هناك ، ولا شك انهم هم حملوها على  
الفرار وخباؤها .. فبعثت من يأتى بها فشتوا رسولى وضربوه ،  
فأمرت الدوادر أن يؤدبهم فتمردوا عليه ، فاضطر للدفاع عن  
نفسه بأن يضربهم ، وقد فعل .. وما المانع من ذلك ؟ .. »

فقال المستعصم : « المانع انه لا يليق أن تحدث مذبحه يقتل  
فيها عدة رجال من أجل جارية ، وأنت تعلم ان فى قصورنا ألوف  
من الجوارى ، فلو طلبت منى عشر جوار بدل الجارية لكان  
ذلك أهون على ما أسمع ، والجوارى كلهن سواء .. »

فاعتدل فى مجلسه وهو يصلح منطقته بدلال وانفة وقال :  
« اذا كانت الجوارى سواء وفى قصورنا ألوف منهن فما الذى  
حمل أمير المؤمنين على أن يبعث فى طلب جارية من سلطان مصر؟! »

وكان مؤيد الدين يلاحظ ما يبدو على وجه المستعصم من الملامح ليرى ما يكون من تأثير قول ذلك الغلام عليه . فاذا هو حالما سمع اعتراض ابنه ، غلب عليه ضعف العزيمة ، وعمد الى الاسترضاء ، وقال : « أنا لم أطلب تلك الجارية من سلطان مصر الا لتفردنا بغناء لا يستطيعه سواها .. وأما .. »  
 فقطع كلام أبيه بكل وقاحة واستخفاف ، وقال : « وما أدراك أن لا تكون جاريتي هذه تتصف بمناقب لا توجد في سواها ؟ .. وما أجدرني أن أقتدى بوالدي وهو أمير المؤمنين قدوة سائر المسلمين .. »

فحمل المستعصم هذا القول محمل التهكم ، وخجل من أن يسمعه أمام مؤيد الدين والدوادار ولا يجيب عليه ، فقال : « هكذا تجيبني يا أحمد ، وهل يحق لكل واحد أن ينال ما يناله أمير المؤمنين ؟ .. ان عملك هذا لا يرضيني .. »  
 فهز أحمد رأسه ، وقال : « يكفي أن يرضيني أنا .. وهل أعمال أبي ترضى كل انسان ؟ .. لا يطلب من المرء أن ترضى أعماله كل الناس .. »

وبعد أن كان المستعصم قد صرح بانكاره تهكم ابنه ، حمله ضعفه على المغالطة .. وأظهر ان ابنه لا يريد التهكم بما قاله فابتسم ، وقال : « وبعد تلك المذبحة .. هل ظفرت بالجارية ؟ .. »  
 قال أحمد : « كلا .. لا تزال مختبئة .. ولا بد من استئناف البحث عنها » ..

قال المستعصم : « لا يا ولدى .. لا تبحث عنها على تلك الصورة ، أنا أكلف وزيرنا مؤيد الدين أن يتحرى عنها حتى يقف على مكانها ويعيدها إليك .. »

فنظر أبو بكر الى مؤيد الدين لحظة ، ثم حوّل وجهه عنه نحو الدوادار وقال : « اذا لم يقف على مكانها نحن نستطيع اخراجها من مخبئها ، ولو كانت فى جيب الوزير أو بين أهله » قال ذلك ونهض ، ثم قال : « استأذن سيدى الوالد فى الانصراف الآن ، لأنى على موعد مع بعض القواد للخروج الى الصيد .. » وخرج ولم ينتظر اذن والده وأوماً الى الدوادار أن يتبعه فتبعه . والمستعصم ينظر الى ابنه وهو خارج وقد ظهر اليأس على وجهه ، ثم حوّل بصره الى مؤيد الدين وتنهّد وقال : « صدق القائل : وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض » ودمعت عيناه ..

فأطرق مؤيد الدين وهو يتعجب من ذلك الضعف . ولبث فى انتظار حديث الخليفة حتى سمعه يقول : « يا مؤيد الدين انك وزيرى وموضع ثقتى .. وقد رأيت ما أظهره أحمد من الاستخفاف بقولى .. وأظننى أخطأت باطلاق سراح أولادى فخالفت بذلك تقاليد أجدادى .. فلو كان أحمد محجورا عليه كما كان أبناء الخلفاء قبله ، لكننا فى غنى عما نحن فيه » وتشاغل باصلاح لحيته ..

فلم يشأ مؤيد الدين أن يخوض فى هذا الموضوع خوفاً من



تغلب عاطفة الحنان على هذا الولد الضعيف ؛ فيتحول غضبه الى  
الوزير وهو يدرك مدى ضعفه ، ولا سيما ازاء ابنه هذا ..  
فقال المستعصم : « نطلب الى الله أن يهدى هذا الغلام الى  
صوابه .. انت أب تعرف قلوب الآباء ، فأرغب اليك أن تساعدني  
في البحث عن جارية أحمد ؛ وأن تعوض على أهل الكرخ  
خسائرهم ، واني متأسف لما وقع وعسى أن لا يتكرر .. » ثم  
تنحى وهممٌ بالنهوض وهو يقول : « لا يبرح من بالك أيضا  
أن تبحث عن الجارية شوكار المغنية التي استقدمناها من مصر  
وخطفها للصوص قرب بغداد

فنهض مؤيد الدين وطأطأ رأسه مطيعا ، وقال : « انى عبد  
أمير المؤمنين وفقنى الله فى خدمته ، ولكننى ... »  
فقطع الخليفة كلامه قائلا : « أنا أعلم أن أحمد لم يكن ينبغي  
له أن يقول ما قاله .. لكنه لا يزال شابا قليل الاختبار ، ولا يلبث  
أن يهتدى الى الصواب » وتحوّل كل منهما فى طريقه ..

— ٤٣ —

### شوكار

خرج مؤيد الدين بن العلقمى من قصر التاج ، وركب بغلته  
عائدا الى قصره وهو غارق فى التفكير تتنازعه عوامل مختلفة ،  
لكن الخوف أقواها جميعا ..

ولما دنا من قصره تقدم غلامه نحو الباب ، فرأى فى موقف الدواب بعلتين : احدهما بغلة سحبان .. وقد عرفها ، والثانية لم يعهد رؤيتها من قبل .. لكنه تقدم الى الباب وقرعه ففتح له على سعتة ، ودخل مؤيد الدين بيغلته الى مدخل الباب وترجل هناك .. فتناول الغلام رسن البغلة وساقها الى مكانها ، ومشى مؤيد الدين ، والبواب يسرع بين يديه ، فقال له مؤيد الدين : « من هو صاحب البغلة الأخرى المربوطة هنا ؟ .. »

قال البواب : « ان صاحبها امرأة جاء بها سحبان من عهد قريب ، وهو فى انتظار مولانا الوزير فى الشرفة ولا يلبث أن ينزل للقاءه .. »

قال مؤيد الدين : « اذا نزل ، اطلب اليه أن يأتى الى غرفتى .. من هى المرأة التى معه ؟ .. »

قال البواب : « لا أدرى ياسيدى .. لكنه بعد خروجك أخذ أباه وأخته الى الكرخ ، ثم عاد الساعة ومعه هذه المرأة وأظنها جارية .. »

وكان مؤيد الدين قد وصل الى غرفته فدخلها ، وأهل بيته يعلمون انه اذا دخلها لا يدخل عليه أحد الا باذن خاص ، وسأله الطاهى اذا كان يريد الطعام ، فقال : « هبى لى مائدة مختصرة أدخلها الى هنا .. وليأت سحبان للأكل معى .. »

ودخل فبدل ثيابه ، ولم يكذب يفرغ من ارتداء ملابسه حتى جاء سحبان وعلى وجهه امارات البشر ، وكان قد فارقه فى ذلك

الصباح واليأس غالب عليه ، فاطمأن خاطر مؤيد الدين بعض الشيء .. وابتسم ابتسامة لم تتجاوز شفقيه ، وقال : « ما وراءك يا صاحبي ؟ .. »

قال سحبان : « يظهر انك غضبت مما شاهدته في قصر التاج .. ليس عند القوم ما يدعو الى السرور » وابتسم .. فقال مؤيد الدين : « وهل عندك شيء يدعو الى ذلك يا سحبان ؟ .. بالله قل .. ان صدرى ضاق مما أراه وأسمعه .. تقدم للأكل معي .. »

فأنتى على دعوته ، وتناول مكباجة وتشاغل بتقطيعها وهو ينظر الى وجه الوزير ، ويقول : « لدى خبر يسرك ويوجب استغرابك ودهشتك .. »

فاشتاق مؤيد الدين الى معرفة ذلك الخبر ، فتوقف عن المضغ وقال : « ما ذلك ؟ .. قيل لى انك جئت ومعك امرأة .. من هى ؟ .. » ثم عاد الى المضغ ..

فضحك سحبان ، وبادر الى قطعة من السكباجة أدناها من فمه وهو يقول : « هى طلبة الأمير أحمد ، وهى الجارية التى فتك بأهل الكرخ من أجلها .. »

فقال مؤيد الدين : « كيف ظفرت بها ؟ .. الحمد لله على ذلك لقد تخلصنا من شر هذا الغلام .. أين كانت ؟ .. » قال سحبان : « كانت مخبأة عند جيراننا .. وأختى تعلم ذلك لكنها كتمت أمرها وتعرضت للخطر من أجل كتمانها ، كما

علمت ، لأنها رأت الجارية تكره أن تعود الى أحمد هذا . فلما جرى ما جرى وعدت أمس مع أهلى ، قصت على أختى خبر هذه الجارية وأرتنى اياها .. فأتيت بها الى هنا «

قال مؤيد الدين : « حسنا فعلت لأن الخليفة ألح فى التوصية أن نبحث عن هذه الجارية ونعيدها الى ابنه خوفاً من جهله ، وقد حيرنى هذا الوالد بضعفه وحنانه » ..

فقال سبحان : « لكن الجارية لا تريد أن تعود اليه .. »

قال مؤيد الدين : « هى وشأنها .. نحن ندفعها الى الخليفة وتتخلص من تبعه أمرها »

فقال سبحان : « انها أشد كرها للخليفة .. ولا تريد أن يعرف بوجودها هنا .. »

قال مؤيد الدين : « وكيف ذلك ؟ .. لم أسمع ان الجوارى يرفضن التقرب من الخلفاء »

قال سبحان : « لهذه الجارية شأن خاص لايعرفه أحد فى بغداد سوى .. »

قال مؤيد الدين : « لله أنت ما أكثر ما تعرفه .. »

قال سبحان : « لا أعرف ذلك لذكاء خاص ، أو لكرامة ، أو ولاية .. ولكن الأسفار تعلم الانسان أشياء كثيرة »

فقال مؤيد الدين : « وما علاقة ذلك بالأسفار ؟ .. »

قال سبحان : « لأنى رأيت هذه الجارية بمصر وعرفت

حديثها ، وهو ذو شجون ، لو عرفته لتولتك الدهشة من غرائب الاتفاق ..

فازداد رغبة في الاستطلاع وقال : « قل يا سبحان .. لا صبر لى على التظويل »

قال سبحان : « ألم تسع شكوى الخليفة من جارية طلبها من سلطان مصر وخطفت قبل وصولها الى قصره ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « بلى .. سمعت ذلك منه »

قال سبحان : « هى هذه الجارية نفسها »

قال مؤيد الدين بدهشة : « هى نفسها الجارية التى فرّت

من ابنه الى الكرخ ؟ »

قال سبحان : « نعم ياسيدى هى بعينها .. هى شوكار جارية

شجرة الدر التى سعى الخليفة بصوتها الرخيم وبراعة عزفها على

العود ، فبعث الى سلطان مصر يطلبها منه . وقبل دخولها بغداد

سطا عليها بعض الناس بحجة انهم قادمون من قصر الخليفة

لحملها اليه وفرّوا بها . وتحدث أهل بغداد بذلك مدة ، ثم

سكتوا ، وكان الباعث على ذلك السطو أن أبا بكر هذا لما سمع

بالجارية القادمة الى أبيه ظن نفسه أولى بها ، فبعث من قبله أناسا

أخذوها من القادمين بها بدعوى انهم آتون من قصر التاج

لاستقبال مغنية أمير المؤمنين ، فلما صارت فى أيديهم أخذوها

الى قصر أعده هذا الشاب لمثل هذه الحاجة ، وكان أهل قصر

التاج فى انتظارها .. ثم علموا انها أخذت خلصة ، لكنهم لم

يعلموا أين هي .. ولا يزالون يجهلون ذلك حتى الآن .. »  
 فاستغرب مؤيد الدين وقاحة ذلك الشاب وتعدّيه على أبيه ،  
 وقال : « وماذا فعلت شوكار بعد ذلك ؟ .. ألم تجد مقامها عند

هذا الشاب أفضل مما عند أبيه ؟ »

قال سحبان : « ان هذه الفتاة لا يطيب لها المقام في غير مصر  
 لأنها مخطوبة لأمير من أمراء المماليك .. »

قال مؤيد الدين : « مخطوبة ؟ .. وبعث الخليفة يأخذها من

خطيبها ؟ .. »

قال سحبان : « لم يعلم الخليفة انها مخطوبة ، وانما يعلم انها  
 جارية شجرة الدر الملكة السابقة ، وانها تحسن الغناء فطلبها  
 من السلطان الجديد ، فلم يسعه مخالفة أمر الخليفة »

قال مؤيد الدين : « من هو خطيبها ؟ .. »

قال سحبان : « هو ركن الدين بيبرس البندقدارى »

قال مؤيد الدين : « ركن الدين بيبرس .. انه بطل باسل ،  
 ورجل حكيم ، اجتمعت به مرة في مصر ونحن شابان وتكاتبنا  
 غير مرة .. انى أعرفه شجاعا لا يصبر على الضيم ، فماذا هو  
 فاعل ؟ .. »

قال سحبان : « انه يكاد يتقد غيظا .. ولا أخفى على مولاي  
 انه أسرء الى أمر هذه الجارية وأنا في مصر . وقد تعجلت السفر  
 الى بغداد في سبيل خدمته .. لعلى أقف على خبر خطيبته ، وكان  
 قد جاءه كتابها تنبئه فيه باختطافها من رجال الخليفة . ولم تكن

تعرف من اختطفها .. وربما جاء هو بنفسه للبحث عنها «  
فأطرق مؤيد الدين مدة وهو يفكر في حال ذلك الخليفة وابنه ،  
وفي اشتغالهما باللهو عن الحكم وقال : « هل تظن ركن الدين  
يأتى الى بغداد ؟ .. »

قال سبحان : « لا يبعد أن يأتى .. والآن اذا أذنت فلتبق  
شوكار عندنا ، ريثما يأتى هو أو نكتب اليه عن نجاتها ، ونتنظر  
رأيه فيها .. »

قال مؤيد الدين : « وكيف استطاعت الفرار من قصر أبي بكر  
وهي غريبة هنا ؟ »

قال سبحان : « ساعدها على ذلك خصى كان في خدمتها  
يعرف أهل المنزل المجاور لمنزلنا فحملها اليه بحيلة . ولما علم  
أبو بكر بذلك جاء الكرخ كما علمت ، لكنه لم يستطع الوقوف  
على خبرها . ولما علمت اليوم بوجودها أتيت بها الى هنا لأرى  
رأيك فيها .. »

فأخذ مؤيد الدين يفكر فيما سمعه وهو حذر يقظ ، فخشى  
أن يكون في بقاء تلك الفتاة عنده باعثا على سوء الظن ، لعلمه  
بوجود الجواسيس حوله ، فقال : « انظر يا صاحبي .. ان أمر  
هذه الفتاة أهمنى كثيرا وفرحت بنجاتها من الأسر ، وأحب  
استبقاءها ، لكنى لا أرى أن تبقى في منزلى .. »

فبادره سبحان قائلا : « صدقت .. ولا أنا أطلب ذلك ، وانما  
أستشيرك في الأمر .. وأحب أن يعلم ركن الدين أن نجاتها كانت

على يدك . وهو قائد عظيم نتفع برأيه وحزمه في الأمر الذي  
تكلمنا فيه .. ولا بد من الوصول اليه .. ان هذا القائد وعدني  
وأنا في مصر انه يستطيع أن يقب هذه الحكومة ويقتل الخليفة  
ويقيم لنا الدولة العلوية الشريفة بمصر ، وعند ذلك .. »  
فأسكته مؤيد الدين بالإشارة وهمس في أذنه قائلاً : « لا  
تتطرف في أفكارك يا أخى .. دعنا من التخيلات الى الممكنات »  
فتعجب سبحان من انكاره ذلك عليه لأنه كان يعتقد انه  
ميسور .. ويعتقد أن ركن الدين وعده به ، مع ان ركن الدين  
لم يبد في هذا الشأن غير السكوت .. ولكن سبحان كثير  
التعويل على الأوهام ، كما علمت ، فيبنى من الحجة قبة ..  
وهؤلاء الواهمون يخلقون الأفكار ويصيغونها من عند أنفسهم  
على ما يلائم رغباتهم .. يطلب منك أحدهم طلباً فتجيبه انك  
ستنظر فيه ، فيعتقد انه ناله .. وقد تظل ساكناً أو تقول قولاً  
آخر في موضوع آخر ، فيتوهم لرغبته في ذلك انك وعدته وعدا  
أكيدا يقرب من الواقع . ولم يكن مؤيد الدين كذلك ، بل كان  
عكس سبحان على خط مستقيم .. فلما أنكر عليه قوله ، اضطر  
سبحان الى السكوت والتظاهر بالاعتناع ، وقال : « هب ان أملى  
بعيد .. ألا ترى في مجيء ركن الدين نفعا لنا ؟ .. »  
قال مؤيد الدين : « قد يكون حضوره نافعا لنا اذا أحسنا  
استخدامه .. وليس ثمة الآن مجال للكلام في ذلك »  
فقاطعه قائلاً : « ما لى أراك لا تجد مجالاً للكلام .. هب انى



وافقتك على رأيك واكتفيت بإبدال خليفة بخليفة .. ألا يجوز أن نبحث في هذا ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « يجوز يا صاحبي .. وتراني في حيرة من أمر هذا الخليفة .. تارة أراه معتدلاً يمكن إصلاحه وآونة أقطع الأمل من إصلاحه .. سنفكر في ذلك »

قال سبحان : « ما رأيك ؟ .. على فرض أن المستعصم هذا لم يمكن إصلاحه .. هل ترى الامام أحمد بن الظاهر أهلاً ليقوم مقامه ؟ .. »

فبغت مؤيد الدين لهذا الاقتراح لأنه طالما فكر فيه ، ولم يخطر له أحد سوى الامام أحمد أهلاً له ، لكنه لم يكن ليُبوح به لأحد .. فلما سمع اقتراح سبحان أجفل وظهرت البغته في عينيه وزادت ألمعانا وقال : « لا بأس منه ، لكنه محبوس في قصر الفردوس كما تعلم ولا سبيل إليه .. »

قال سبحان : « متى تم رأينا على أمر لا يقف الحبس في طريقنا .. وانما أطلب اليك أن تصرح لي برأيك .. يكفيني منك تكتمنا .. ان التكتم حسن ، لكنه قد يسبب اخفاق صاحبه .. قل لي .. ألا ترى الامام أحمد أهلاً ليقوم مقام المستعصم هذا ؟ »

قال مؤيد الدين : « انه نعم الخلف ، ولكن دون الوصول اليه خرط القتاد ، وسننظر في الخطوة الأولى .. وأفضّل اصلاح حال المستعصم ، فذلك يغنيننا عن التغيير والتبديل .. »

قال سبحان : « وأنا أدعوك الى اصلاحه » وتحفز للنهوض

وقال : « أما تريد أن ترى شوكار وتأذن لها في تقبيل يدك ؟ »  
قال مؤيد الدين : « لا بأس من ذلك وان كنت أفضل أن  
تسرع باخراجها من هذا المنزل »

قال سحبان : « تقبل يدك وتذهب حالا .. » ونهض ومشى  
ثم عاد ومعه شوكار ، وكانت قد تغيرت سحنتها من فرط ما  
قاسته من العذاب والهموم .. فلم يفرج عنها الا في ذلك اليوم  
حين رأت سحبان وطمأنها على ركن الدين ، وعرفت انه أرسله  
للتفتيش عنها ، وأصبحت تتوقع سرعة الرجوع الى مصر أو  
وصول ركن الدين الى بغداد .. فلما دخلت على مؤيد الدين  
أكبت على يده تقبلها ، وقد غلبها البكاء وبللت كفه بالدموع ،  
فاجتذب يده من يدها ، وقال : « لا بأس عليك يا بنية لا تخافى ..  
ان أمير المؤمنين لا يظلم أحدا ، والا فان الله لا يتخلى عن أحد »  
فأطرقت برأسها حياء وهي واقفة ، وقالت : « أحمد الله  
انذى وسَط هذا الشهم في ايصالى اليك .. وأنا لا أطلب شيئا  
غير رجوعى الى مصر » وغصت بريقها ..

فقال مؤيد الدين : « ستعودين بخير ان شاء الله .. » وتحرك  
من مقعده ونهض ، وأوما سحبان الى شوكار أن تتبعه وودع  
مؤيد الدين شاكرا ومشى .. فتبعته ، فأسرع الى اخفائها في  
منزل لبعض أهله في الكاظمة

الدرويش -

أما ابن العلقمي ؛ فما أن خلا بنفسه حتى صعد الى الشرفة أو المنطرة ، وقد مالت الشمس الى المغيب ، وتوسد فراشا على مقعد يطل على دجلة وقد تآقت نفسه الى الوحدة والتفكير فيما هو فيه من الأمر العظيم . فلما سمع آذان المغرب نهض للصلاة في مسجد بالقرب من منزله وهو يتوقع أن يرى في الصلاة راحة. وليس للمؤمنين في ساعة القلق أدعى الى الراحة والطمأنينة من الصلاة والدعاء الى الله أن يهديه سواء السبيل وينقذه من المخاطر أحسن مؤيد الدين بحاجته الى ذلك فأسرع الى المسجد ، وأخذ في الصلاة كالعادة . فلاحظ وهو يصلي شيخا من الصوفية راكما وراءه وسمعه يتمم بالصلاة ، فلم يهتم به ثم رآه يزحف نحوه ..

فتجاهل وظل في صلاته ، لكنه شغل به عنها .. وكدرته وقاحة ذلك الصوفي وظنه مصابا في عقله . فالتفت اليه شذرا يريد زجره بلطف ؛ فازدجر الرجل برهة وأظهر انه يصلي . فعاد مؤيد الدين الى صلاته ، واستغرق في التوسل الى الله أن يهديه الى سبيل الإرشاد ..

ولما فرغ من الصلاة نهض وتحول نحو الباب ، فوجد أناسا

واقفين للسلام عليه باحترام فجياهم ومشى .. ولما وصل الى المنزل اذا بذلك الصوفي واقف بجانب الطريق ويده مسبحة وهو يتمتم كأنه يدعو . فلما دنا مؤيد الدين منه تقدم الصوفي والسبحة في يده وهو يتسم وقال : « انى أستطلع الغيب وأنبئك بما تفعله يا مؤيد الدين »

فلما سمع الصوت أجفل لأنه قيل له بلهجة الأمر ، وبأسلوب استشف منه ان مخاطبه غير عربى ، وليس من الفقراء المتسولين ، وانه أمر ذو بال تعرّض له فى الطريق على هذه الصورة .. فألقى على الرجل نظرة متفرس ، وتأمل ملابسه ووجهه ، فرأى عليه قلنسوة الصوفية وجبة الصوفية ، وفى يده مسبحة الصوفية ، لكن سخنته غير سخنتهم ، ولحيتته غير لحيتهم ، فأجاب قائلاً : « من أنت يا رجل ؟ .. »

قال الدرويش : « انى بصير بخفايا القلوب ، أستطيع تفريج الهوم ، وأكشف لك ما خفى عنك ، وأرشدك الى الطريق السوى . وان لم تصدقنى فجرب .. »

فأوماً اليه أن يتبعه ، وأشار الى البواب أن يدخله الى غرفته الخاصة ، ودخل هو وقد شغل خاطره بهذا الدرويش ، ومال كل الميل الى الاسترشاد برأيه . وهو يعتقد الكرامة فى أصحاب الكرامات وتمنى أن يكون هذا منهم . وبعد قليل دخل الدرويش وقد أدخل احدى يديه فى كم الأخرى وقبض بالأنامل المطلقة على مسبحة أخذ يعد حياتها ، فأشار اليه مؤيد الدين أن يجلس ،

وسأله اذا كان يحتاج الى طعام ، فقال : « لا .. » فؤوماً الى الخادم أن يخرج ويفلق الباب وراءه .. ففعل ثم نظر مؤيد الدين الى الدرويش وتفرس في وجهه ، فلم يذكر انه يعرفه ولا رأى في وجهه سحنة التصوف . فقال له : « أرشدنا بعلك يا شيخ .. »

قال الدرويش : « أرني يدك مفتوحة .. » ففتحتها وأراه باطنها فنظر فيها ملياً ، ثم قال : « انت تفكر في أمر عظيم الأهمية شديد الخطر عليك وعلى أهلِكَ وسائر عشيرتك .. »

فأشار مؤيد الدين برأسه أن : « نعم .. » فأعاد النظر الى كفه وكأنه يقرأ كتاباً مخطوطاً .. ثم رفع بصره الى مؤيد الدين ، وقال : « ان المشكلة التي أنت واقع فيها يسهل التخلص منها اذا شئت .. »

فقال مؤيد الدين : « وكيف ذلك ؟ .. » قال الدرويش : « ينبغي أولاً أن تنظر الى مصلحة نفسك وقومك .. ولا تتقيد باعتبارات وهمية لا قيمة لها الا عند ضعفاء القلوب .. فهل أنت من هؤلاء ؟ .. »

فاستغرب مؤيد الدين اقترابه من الحقيقة بهذه السرعة . وأحب زيادة الايضاح ، فاستل يده من بين أنامل الصوفي وقال : « أخبرني قبل كل شيء .. ما اسمك ؟ .. »

قال الدرويش : « اسمي رسول أمين الى مؤيد الدين .. »

ففرح لأن ظنه كان في محله ، أى ان الرجل ليس صوفيا ،  
فقال له : « من أرسلك ؟ » قال : « صديق نصوح يريد بك  
وبأهلك خيرا .. لكنك لا تعرف كيف تنتفع بالفرص التى تتاح  
لك » قال ذلك فى لهجة شديدة

فعلم مؤيد الدين أن الرجل رسول متنكر ، فقال : « أفصح  
يا رسول الخير من أين أنت آت ؟ .. لا تنهيب »  
فقال : « انى رسول من خاقان عظيم لا يلبث أن يأتى الى  
بلادكم ويفتحها عنوة .. ولا قبل لكم بدفعه »

فعلم مؤيد الدين انه يشير الى هولاءكو التترى .. اذ جاءه منه  
غير كتاب من قبل يدعوه الى مشايعته على الخليفة المستعصم ،  
ويعدده الوعود الجمّة وهو يتردد ويتجاهل .. فقال : « من تعنى ؟ »

قال الدرويش : « اعنى مولاي الخاقان هولاءكو ألا تعرفه ؟ ..  
لقد كتب اليك مرارا يدعوك الى التخلص من هذا الخليفة  
الضعيف ، عشير النساء والمغنين ، وأنت لا تجيب . فأمرنى أن  
آتيك مرشدا ناصحا .. ولا يخفى عليك ان مثلى لا يدخل هذا  
المدخل ويتعرض لهذا الخطر الا اذا كان قد باع نفسه فى سبيل  
الحق .. فأنا أدعوك باسم مولاي أكبر السلاطين أن تكون معه  
على هذا الطاغية ، فتخلص أنت وقومك الشيعة من الظلم  
والعسف ، وتكون لك المنزلة الأولى عند صاحب هذا البلد  
حينذاك ..

« لا تكن ضعيفا . مالى أراك مطرقا .. كأن نفسك تحدثك

باعتبارات تقدر لها قيمة لا تستحقها .. كأنك تقول في شرك لا يليق بك أن تخلف ظن مولاك الخليفة فيك .. لعله لم يخلف ظنك فيه .. أنا هنا منذ أيام ، وقد اطلعت على ما حدث بينك وبينه وبين ابنه ، ورأيتك تتملل وتتدمر ، وانما ينقصك الحزم فتتقذ نفسك وأهلك وعشيرتك ، والا فأنتم هالكون معه لا محالة » وظهر الجد في عينيه

فأكبر مؤيد الدين هذا التهديد من رسول غريب في بلد عدوه . ولكنه رأى في وجه ذلك الرسول هيبة وجرأة لا توجدان في عامة الناس .. على انه رأى من كبر النفس وعزتها أن يثبت في مبدئه ، فقال : « أهد مولاك شكرى لما عرضه علىّ وقل له ان طلبه لا سبيل الى اجابته ، وقد رأيتَه يعرض بعجز هذه الدولة عن مقاومته .. لقد أخطأ كل الخطأ ، لأن جنودنا لا يغلب من قلة ولا من ضعف ، ونحن على ثقة من الفوز اذا نشبت الحرب بيننا وبينه »

— ٤٥ —

### الدهشة

فضحك الرجل وقال : « قدمت نفسى اليك بصورة منجّم يقرأ الأفكار ، وها أنا أقرأ فكرك الآن من وراء ما تقول .. انك تقول غير ما تعتقد ، أنا أعرف كل ما تحاولون اخفاه من

اضطراب الجند وفساده فأصغ لهذا النصيح .. واعلم أننا لا نكلفك تعباً ولا خطراً ، ولا نطلب منك أمراً عظيماً ، ان البلد نحن فاتحوه لاجمالة ؛ فاذا توسطت معنا قللت من القتل والفتك .. لأننا نحب أن يقتصر الأذى على من يستحقه ممن تسبب في هذه الشرور ، ولا ذنب للرعايا ؛ وخاصة الشيعة الذين قضوا الأجيال المتوالية وهم يتحملون أنواع العذاب من هؤلاء الخلفاء ، ولا سيما هذا المهذار .. وقد يصعب عليك أن ترجع عما قلته الآن . وزعمته في الدفاع عن مولاك المستعصم ، فأنا لا أكلفك الرجوع الساعة ولكنني أرشدك الى الصواب وأترك لك الوقت الكافي للتفكير . وأما مولاى الخاقان هولوكو فانه فاعل ما يريد ، ولا يلبث أن يأتيكم كتابه بالانذار والتهديد ، فان لم تصغوا الى مطالبه حمل عليكم وفعل ما يشاء . وثق بأنه الغالب الظاهر ، فاذا كنت تحب بلدك وأهلك فابعث الى مولاى الخاقان كلمة بأنك على ولائه ، فتنجو وتكون لك الكلمة النافذة والصوت الأعلى .. أظننى أطلت الكلام عليك فاعذرني . قال ذلك ووقف ومد يده الى جيبه وأخرج لفافة فى أنبوب من القصب وقدمها له وهو يقول : « وهذه رسالة من مولاى اليك ، لا تفتحها الا بعد خروجى .. » قال ذلك وخرج ..

فدهش مؤيد الدين لما شاهده من ذلك الرسول ، وظل ينظر اليه ويرقبه حتى رآه خارجاً من باب الدار ، وقد أثر كلامه فيه



تأميرا شديدا . وعاد الى غرفته وفض الرسالة وأخذ يقرأ ..  
فاذا فيها :

« اعلم يا مؤيد الدين أن الرسول الذي خاطبك هو الخاقان هولاكو نفسه ، قد بذل لك النصيحة .. فانتصح ولا تطمع في تعقبه ؛ فانك لا تجد الى ذلك سيلا . وكان في وسعي أن أبتيك على اعتقادك ولا تعرف من هو مخاطبك ، لكنني أحبيت نصحك .. فأنظر في أمرك .. وخشية ظهور عملك ، أرسل رسالتك الى »  
كما قلت لك قبلا «

فأعاد مؤيد الدين قراءة تلك الورقة وهو ينظر فيها ، وقد تولته الدهشة وأوشك أن يكذب بصره وسمعه لغرابة ماشاهده . وأضرق برهة وهو يخاطب نفسه قائلا : « هولاكو نفسه خاقان التتر . وفي خدمته مئات الألوف من الرجال ، لا يثق بأحد منهم في مهماته فيأتي بنفسه متكررا تحت هذا الخطر حتى يخاطبني ؟ وكان في امكانه أن يبعث رسولا ، ولكن الهمة العالية والتيقظ على الملوك يدعوانه الى ذلك . لا ريب أن هولاكو يعرف أسرارنا كما نعرفها نحن ويعرف عدد جنودنا ، وعلاقات قوادنا بخليفتنا . يعرف كل شيء .. أين ذلك من خليفتنا المشتغل باللهو والغناء عن أمور الدولة .. يهيم العثور على شوكار المعنية أكثر من دفع العدو عن بغداد .. هذه علامات الزوال ، وتلك أسباب الفوز . هكذا كان حال الروم حينما قام العرب لفتح بلادهم .. كان خلفاؤنا وقوادنا العظام من الصحابة وغيرهم يتولون أمورهم

بأنفسهم ، لا يعملون على أحد ولا يشتغلون بغير الجهاد .  
 وكانوا قليلين فغلبوا جيوش القياصرة والأكاسرة .. تلك الأيام  
 نداولها بين الناس ؛ ولكل دولة أجل »

ثم أطرق وتراجع وندم على ما خطر له من العبرة وقال في  
 نفسه : « لا .. لا .. ان الدولة العباسية باقية أبد الدهر ..  
 لا تزول من الأرض ، وانما هي في حاجة الى الاصلاح .. الى  
 ابدال خليفة بآخر »

وكان الليل قد أسدل ثقبه ، فوضع تلك الورقة تحت الوسادة  
 وطلب العشاء ، ثم ذهب الى الفراش باكرا ليرتاح مما مرَّ به في  
 ذلك اليوم ، وتوالت عليه الخواطر المتضاربة ، لكن ولاءه  
 للخليفة ظل غالبا على عقله .. وكانت ليلته حافلة بالأحلام ، ولم  
 يفتق في اليوم التالي الا على صوت الأذان وضوضاء طلبه  
 المستنصرية وهم خارجون لصلاة الضحى

وأحب البقاء في الفراش لاعمال الفكرة فيما شغل خاطره .  
 والانسان في الصباح يحسن التفكير .. ويكون تفكيره أقرب  
 الى الصواب من سائر الأوقات ، فلم يزد الا ثباتا على ولاء  
 الخليفة ورغبة في اصلاحه ، فارتاح باله لأنه استقر على رأى ..  
 وليس أتعب على الانسان من التردد بين رأيين . فنهض من فراشه  
 وأخذ في لبس ثيابه ، ولم يبق في ذهنه الا مسألة شوكار . وكان  
 يود أن يسلمها الى الخليفة ويتخلص من القيل والقال ، لو لم  
 يحل سبحانه دون ذلك وعذره مقبول . فخطر له أن يبعث في

طلب سبحانه ليؤكد عليه التوصية في اخفاء مكان تلك الفتاة ،  
 لكنه توقع مجيئه من تلقاء نفسه  
 مضى ذلك النهار ولم يبرح مؤيد الدين منزله التماسا للراحة ،  
 وقضاء بعض المهام الخاصة ، وجاء الغروب وأقبل العشاء ولم  
 يأته سبحانه فهممٌ بالذهاب الى الفراش ، وقيل أن يأخذ في نزع  
 ثيابه تذكر الكتاب الذى دفعه اليه درويش الأمس ، ورأى أن  
 يتخلص منه لئلا يقع في يد أحد فيتخذه ذريعة للإيقاع به .. فتذكر  
 انه وضعه تحت الوسادة فافتقده هناك فلم يجده ، فأخذ يبحث  
 عنه فى جيوبه فلم يقف له على أثر. فخفق قلبه لئلا يكون قد سمع  
 حديثهما أمس جاسوس ، وقام بسرقة الكتاب وأعطاه للخليفة

- ٤٦ -

قادم جديد

وبينما هو فى ذلك ، اذ سمع قارعا يقرع الباب الخارجى  
 يعنف ، فأجفل ومكث ينتظر الخبر ، واذا بالبواب دخل وهو  
 يقول : « ان سبحانه بالباب ومعه رفيق .. هل يدخلان ؟ .. »  
 فاطمأن باله وارتاح الى قدوم سبحانه فى تلك الساعة ، لعله  
 يخفف عنه بعض الشيء ، وأحب أن يعرف من هو رفيقه . ولم  
 تمض لحظة حتى أقبل سبحانه وهو يبتسم وألقى التحية . ثم  
 تنحى وقدم رفيقه باحترام وأشار اليه أن يدخل .. فنظر مؤيد

الدين الى ذلك الرفيق فاذا هو ملثم لا يظهر من وجهه الا عيناه وما يحيط بهما .. ورأى السواد غالبا على لونه ، كأنه عبد حبشى ملثم . ورآه يمشى نحوه الهوينى وسحبان واقف باحترام، فاستغرب مؤيد الدين ذلك ، فقال : «من هو رفيقك ياسحبان؟» قال سحبان : « ستعرفه الساعة ياسيدى » وتقدم حتى اجلس ذلك القادم على كرسى فى صدر الغرفة ، وأشار اليه أن يتفضل بازاحة اللثام ، ومؤيد الدين ينظر اليه من جانب المصباح . فأزاح الرجل اللثام ، وحالما وقع نظر مؤيد الدين عليه اختلج قلبه فى صدره وصاح : « مولاي الامام .. الامام أحمد.. من أين أتيت به يا سحبان ؟ .. » وأكب على يده يقبلها وكان الامام أحمد أسمر اللون لأن أمه حبشية (١)

فضحك سحبان وقال : « أتيت به طوعا لأمرك »

فصاح مؤيد الدين : « ويلك .. متى طلبت اليك احضار مولانا الى هنا ؟..كيف تأتى لك ذلك، وهو محبوس، وعلى قصره الحراس والجواسيس .. ان شئتوك كلها غريبة ياسحبان .. » قال سحبان : « انك لم تطلب الى احضاره لأنه لم يخطر لك استطاعتي ذلك . ولكن الحديث الذى دار بيننا أمس يدل على انك تحب أن تراه وتثق من رضاه .. »

فقال مؤيد الدين : « صدقت .. لم يخطر لى على بال ، انك تستطيع ذلك .. وكيف أقدمت على هذا الخطر ؟ .. لله أنت من

شجاع مقدام ، وانما ينقصك التؤدة والتبصر «  
 فقال سبحان : « ما ينقصنى تكمله أنت بحكمتك ودهائك »  
 وتوجه مؤيد الدين بكليته نحو الامام أحمد ، وكان يومئذ  
 في ابان الكهولة ، وقد ظهر الهدوء والسكينة عليه .. وجلس  
 بين يديه على وسادة باحترام ووقار وأخذ يرحب به . فتقدم  
 سبحان وقال : « انى رجل متسرع ولا أحب المطاولة أو  
 التسويف ، وأكره التردد ، وقد أعجبنى منك أمس ثققت بمولانا  
 الامام أحمد . وان رأيك فيه وافق رأيى بلا تواطؤ ، وهذا دليل  
 على صواب الرأى .. والآن هذا هو صاحب الشأن لم أكلمه في  
 شىء بعد ، وانما سعيت فى اتقاذه من السجن »  
 فقال مؤيد الدين : « وكيف استطعت ذلك ؟ .. ما هذه  
 الجسارة ؟ .. »

قال سبحان : « استطعته بمعونة الله وعسى أن أستطيع ما هو  
 أهم منه ، وأرى هذا الامام العاقل العادل خليفة يتولى أمورنا  
 بدلا من ذلك ال .. »

فتصدى الامام أحمد للكلام قائلا : « لا تقل شيئا يابنى ..  
 ان الخليفة المستعصم بالله لا بأس به لولا تسلط ابنه على رأيه  
 ورغبته فى اللهو .. وهذا يمكن تلافيه ، فلا تحولوا قلوبكم  
 عنه .. »

فقال سبحان : « نعم الرجل أنت ياسيدى .. أما خليفتنا فلا  
 أمل لنا فى اصلاحه ولا بد من تغييره ، وهذا مولانا الامام أحمد

أولى بالخلافة منه لأنه أهل لها من كل وجه ، وهو أخو المستنصر  
رحمه الله (١) ، ولا يخفى عليك ما أتاه المستنصر من الأعمال  
الشاهدة بحسن السيرة والتقوى والرغبة في العمران على عكس  
هذا .. »

فقاطعه الامام قائلاً : « لو علمت أنك جئت بى لأسمع منك  
ما سمعته لفضلت البقاء فى سجنى .. اننا فى طاعة أبى أحمد  
المستعصم ابن أخى .. واذا أخطأ فعلينا نصحه وكفى .. »  
فلم يستغرب مؤيد الدين حذر الامام وانكاره ، وما ظهر من  
تسرع سحبان وان كان يعتقد رغبته فى الخلافة أكثر من رغبتهما ،  
وانما هى التؤدة والدهاء وحسن السياسة لابد منها فى مثل هذه  
الحال . فالتفت الى الامام وقال : « ان صديقى سحبان يعبر  
بقوله عن شعور كل مسلم .. ولاسيما قومنا الشيعة العلوية فانهم  
قاسوا فى أيام ابن أخيك هذا مر العذاب مما لا يمكن اخفاؤه ،  
وان كنت لا أرى التسرع فى الأمر الى هذا الحد وعلى هذا  
الشكل لأننا لم نخط خطوة واحدة فى سبيل ما نحن فيه» والتفت  
الى سحبان وقال : « أخرجنا مولانا الامام من قصره فأين نضعه  
الآن ؟ .. واذا عرف غدا انه ليس فى قصر الفردوس ، فلن يتهم  
باخراجه منه سوانا والجنود فى يد الخليفة يفتك به كما يشاء ؟ »  
فقطع سحبان كلامه قائلاً : « لا تخف .. انى أعود به الى  
قصره الليلة ، وقد دبرت ذلك بحيث لا يشعر به أحد . وانما جئت

به لتطلعه على غرضنا ؛ بناء على قولك ؛ انه يقنعنا الآن ابدال خليفة  
بخليفة ؛ واتفق رأينا أن مولانا الامام أحمد أولى العباسيين  
بذلك ، وهذا هو .. وها أنت « والتفت نحو الامام وقال :  
« وأرغب الى مولانا أن يرفع كل حجاب بيننا وبينه ويكفينا  
مئونة المجاملة والحذر . فاني لا أحب الا الصراحة ونحن الآن  
نطلب من مولانا أن يجيبنا على هذا السؤال .. اذا استطعنا قلب  
الحكومة وأردنا تنصيب خليفة ، فانه لا يمكن أن نصب هذا  
الغلام ابن المستعصم .. فهل يقبل الامام أحمد أن تسند الخلافة  
اليه ، وهل يعدنا خيرا ولا سيما من حيث الشيعة ومعاملتهم ؟ »  
ورغم ما رآه مؤيد الدين من التسرع في تصريح سبحان ، فانه  
وافقه على هذا الاقتراح ورأى الصواب فيه .. وقد أحسن أن  
المشاريع الكبرى تحتاج الى الاقدام والحزم مثل حاجتها الى  
التروي والتؤدة .. فأطرق وهو ينتظر ما يقوله الامام ، فاذا به  
يقول : « ان الخلافة يا أولادى اذا أتتني لا يمكننى التخلف عنها  
خوفا على مصالح المسلمين . واذا آبيت فاني أرتكب ذنبا أو  
معصية .. واذا صرت خليفة ، فأول واجب على نشر العدالة  
وانصاف المظلومين من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، طبعاً »  
فقال مؤيد الدين : « بارك الله في مولانا ، واذا وفقنا الله الى  
ما نبغيه فانما يكون لصالح المسلمين .. ونشكر لمولانا قبوله  
القيام بتلك المهمة ، انما أتأسف لأن صديقى سبحان كلّفك  
مشقة الخروج الينا فضلا عن التعرض للخطر »

فتصدى سبحان قائلاً : « لا مشقة هناك ولا خطر ، ويمكن بقاء الامام خارج قصره عدة أيام ، ولا يشعر أحد بنغيابه لأنى وضعت فى مكانه رجلاً كثير الشبه به . استطعت ذلك بما بينى وبين قيّم ذلك القصر من الصداقة ، وهو راغب فى قلب هذه لخلافة أكثر من رغبتنا .. لأن هذا الخليفة وابنه لم يتجسس أذاهما ، كن مطمئنا يا صاحبى .. واذا كنت تخشى من التجسس عليك فها نحن ذاهبان عنك الساعة » وتحفز للوقوف وهمّ الامام أحمد أن ينهض

فنهض مؤيد الدين باحترام وقال : « ان مولانا الامام قد شرف منزل مملوكه .. وأطلب اليه تعالى أن يمنّ علينا بأن يصير الأمر اليه ويوفّقنا الى القيام بخدمته »

## — ٤٧ —

### القلق

وخرج الضيفان .. وخرج مؤيد الدين لوداعهما ، ولما عاد الى غرفته عاد الى التفتيش عن رسالة هولوكو فى كل مكان حتى كلف رأسه وتوالت عليه الأوهام والمخاوف ، لعلمه أن عيون الجواسيس لاتغفل عن استطلاع أخباره ، والوشاية به ، فتولاه القلق وذهب الى فراشه .. فلم يستطع النوم وهو يفكر فى ذلك الكتاب ، وأين هو . وكان يعترض هذه الهواجس تفكيره فى الامام أحمد



وسحبان وهولاكو وما هو فيه من القلق على قومه وعلى نفسه .  
وتعاظمت مخاوفه على الخُصوص وهو تحت الغطاء لأن الظلام  
يكبّر الأوهام ويعظم الأشباح ، وأفاق في الصباح وقد أخذ  
التعب منه مأخذا عظيما

ليس على الانسان أشد وطأة من التردد بين أمرين مهمين ،  
لا يدري أيهما يتبع .. ويغلب أن يكون سبب التردد تنازعا بين  
العقل والقلب .. فمتى تغلب أحدهما انتهت الأزمة واستقر الرأي  
وهذا الخاطر . وكان مؤيد الدين يتنازعه عاملان ، أحدهما يدعوه  
اليه عقله وهو ان فساد الحكومة ذاهب بالدولة الى الخراب ولا  
يرجى اصلاحها الا بابدال الخليفة .. ولا يستطيع ذلك الا بيد  
قوية قاهرة مثل يد هولاکو . ويخامر هذا الحكم المنطقي شعور  
قلبي يوحى بالانتقام من ابن الخليفة والثأر للعلويين من أهل  
السنة . والثاني يدعوه اليه قلبه أو ضميره اذ يكتته على هذا  
العمل ، لأنه خيانة لمولاه الذي أقسم على طاعته

على ان ضياع كتاب هولاکو أثار عاملا آخر شديد الوطأة  
على قلب مؤيد الدين .. اذ ترجح لديه أن يدا أخذت ذلك  
الكتاب عمدا ، ولا يلبث أن يصل الى عدوه الذي يتجسس عليه  
فيجعله حجة عليه ، ويتهمه بالمؤامرة مع أعدائه . ثم تذكر فحوى  
الكتاب فلم يجد فيه ما يبعث على تهمة المؤامرة ، لكنه يدل على  
مخابرة جارية بين عدو البلاد ووزيرها  
فلما تصور ذلك خيّل له ان الخليفة اذا علم به قد يأمر بالقبض

عليه أو يقتله .. ولا سيما اذا تدخل ابنه أبو بكر في ذلك ، فلا تبقى له حيلة في النجاة . فمن الحزم أن يتدبر الأمر ويتلافى الشر قبل وقوعه أو يستعد له على الأقل .. وتذكر ما وعده به هولاءكو من الحسنات اذا هو أطاعه وكتب اليه بالمجئ . فخطر له أن يبعث اليه في ذلك ، فاشمأزت نفسه من هذا الخاطر . ثم اعترضه ما يهدده من الخطر اذا ظل ساكتا فاشتدت حيرته .. فنهض من فراشه وأخذ يتشاغل بارتداء ثيابه وهو غارق في التفكير . فغلب عليه الدفاع عن حياته بأن يهيم بالكتابة الى هولاءكو ، فأمر قيّم الدار أن يأتيه بغلام من عبيده ، فأتاه بشاب أصله من رقيق تركستان ، وقد دخل قصر الوزير من عهد غير بعيد وليس فيه ذكاء ..

فلما وقف الغلام بين يديه تفرس فيه ، ثم أمر القيّم أن يحلق له شعر رأسه ففعل .. وجاء الغلام ورأسه كأنه صفحة بيضاء . وكان ذلك القيّم قد ربّى في بيت مؤيد الدين ، وله اطلاع على مكنونات قلبه .. وهو شديد الغيرة عليه ، وقد أدرك غرضه من طلب ذلك الغلام على هذه الصورة . فلما عاد به ناداه مؤيد الدين قائلاً : « ألم تفهم مرادى ؟ »

قال : « نعم يا مولاي .. انى رهين الاشارة »  
قال مؤيد الدين : « الئى بالابر والكحل وأغلق الباب وراءك » ..

فذهب وعاد بالابر والكحل وأغلق الباب . وجلس على مقعد ،

وأمر الغلام أن يجثو أمامه بحيث يصبح رأسه بين يديه . ثم تقدم مؤيد الدين ويديه ورقة ، وقد كتب عليها كلمات قليلة ؛ وأوماً الى القيمم أن ينقشها على رأس الغلام بالابر ، ثم يبذر عليها الكحل كما يفعل الوشامون في ذر الثور على الوشم . فتناول القيمم الورقة وقرأ فيها : « تعال إلينا بقوتك وجندك » فأدرك انها رسالة الى هولأكو ، وكان من أشد الناس عداوة للخليفة وحاشيته لأنه شيعي ، وقد أصابه شيء من أذاهم فأخذ في نقش الرسالة على رأس الغلام وهو لسذاجته كالبهيمة لا يفهم شيئاً ..

فلما فرغ القيمم من ذلك نظر الى مؤيد الدين وابتسم ، فأشار إليه أن يحتفظ بذلك الغلام سرا ريثما يطلع شعره ويغطي تلك الكتابة حتى اذا ظل على عزمه باستقدام هولأكو ، فما عليه الا أن يرسل الغلام اليه . ويكفى أن يقال لهولأكو ان هذا الغلام قادم من مؤيد الدين فيحلق رأسه ، ويقرأ ما عليه ثم يقتله .. تلك كانت عندهم أسلم وسيلة للمكاتبة السرية في المواقف الحرجة . فكأن مؤيد الدين كتب الرسالة وأبقاها عنده ريثما يفكر في أمرها . فاذا رأى العدول عن ارسالها استبقى الغلام عنده وشعره يكسو رأسه .. لأنه كان الى تلك الساعة مترددا ، وضميره غالب على ارادته ، وهو يرجو أن تنصلح الأمور بالمسألمة وأحس مؤيد الدين في تلك الساعة براحة ، وعاد الى شواغله وهي كثيرة .. أهمها النظر في أمور الدولة ، فركب بغلته الى قصر

التاج للنظر فيما جاء به البريد أو ما حدث من الأمور العامة ، وهو يفكر في أنشاء الطريق في الكتاب الضائع ويرقب حركات القوم هناك ليتحقق مما كان من أمره .. فلم يرَ ما يبعث على سوء الظن فاطمأن باله ؛ وعاد الى منزله وقد ذهب قلقه

## - ٤٨ -

### الغرور

مضى على ذلك أيام وهو في تلك الحال ، وقد نسى أمر الكتاب وهولاكو .. ولم يسمع عن أبي بكر شيئا يسوءه ، فظن خيرا وتوهم أن ذلك الشاب رجع عن غيه بعد أن أحس بخرج المركز، والخطر الذي يهدد المملكة بسبب ذلك الانقسام . لكنه أصبح ذات يوم ، وقد جاءه رسول المستعصم يدعوه اليه سريعا.. فركب يغلته وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب هذه الدعوة باكرا .. وتذكر الكتاب الضائع فخشى أن يكون لتلك الدعوة علاقة به ، فتنجسد حتى بلغ قصر التاج .. ودخل على الخليفة وهو جالس في ديوان الخاصة ، وعنده ابنه أبوبكر والدوادار .. فاستعاذ بالله من ذلك الصباح ، لكنه دخل وألقى السلام فرد المستعصم التحية ودعاه الى الجلوس . ثم دفع اليه كتابا كان بجانبه على السرير ، فتناوله مؤيدا الدين وقرأه واذا فيه : « من الخاقان العظيم هولاکو سلطان السلاطين الى المستعصم

بإله العباسي . أما بعد : فإنا قد مللنا المماطلة ونحن صابرون .  
أما آن لك أن ترعوى وتعرف قدرنا ؟ .. بعثنا إليك نستعين بك  
على الاسماعيلية الفتاكين القتلة ، ونحن لا نخشى منهم على  
أنفسنا كما نخشى منهم عليك فأبيت . فدلنا ذلك على سوء رأيك .  
فبعثنا نعاتبك على عملك فأجبتنا جوابا باردا لا يشفى غليلا ،  
وشففته بهدية هي أولى أن تهدي إليك .. كأنك تظن أننا في حاجة  
الى المال .. ولم ترسل إلينا رسولا يخفف من غضبنا ، وقد كنا نفتح  
منك برسول عاقل . أما الآن فلا يرضينا الا أن تأتي أنت  
بنفسك ، أو ترسل إلينا وزيرك أو قائد جنودك ( الدوادار )  
للاعتذار ، وان لم تفعل فلا تلومن الا نفسك .. والسلام »  
وما فرغ من تلاوة الكتاب حتى أخذ منه الأسف مأخذا  
عظيما ، ونظر الى الخليفة فرآه مطرقا يفكر .. فظنه قد اعتبر ،  
ولا يلبث أن يأخذ برأيه في استرضاء هذا الفاتح التتري .. فاذا  
هو قد رفع بصره اليه ، وقال : « ماذا رأيت أيها الوزير ؟ »  
قال مؤيد الدين : « الرأي لمولاي أمير المؤمنين »  
قال الخليفة : « هل أعجبتك وقاحة هذا التتري ؟ .. وما جزاؤه  
عندك ؟ » ..

قلما سمع هذا التعبير تملكته الدهشة ، وشعر ان الخليفة لم  
يقدر مركزه حق قدره .. فقال : « أستأذن مولاي في أمر لا بد  
لى من التصريح به .. ان هذا الرجل أصبح الآن شديد البطش ،  
وقد علمنا من جواسيسنا انه فاز في حروبه مع الفرس وغيرهم .

وأصبح جيشه عديدا وعنده العدة والمثونة ، واذا لم نجبه جوابا:  
حسنا حمل على بغداد .. فالذى .. »

فتعرض أبو بكر للكلام باستخفاف وقال : « يحمل على  
بغداد ؟ .. وهل اذا حمل عليها ينال غير الخزى والفشل ؟ »  
فازداد مؤيد الدين أسفا ولم يجبه ، لكنه وجّه كلامه الى  
الخليفة قائلا : « فالذى أراه أن نسترضيه ، ريثما تتأهب لمحاربتة »  
فقال الخليفة : « بماذا نسترضيه ؟ .. انه يطلب منى أن أذهب  
اليه بنفسى أو أرسل اليه الوزير أو الدوادار .. ألم يكن الأفضل  
أن تتلافى الأمر قبل تفاقمه ؟ »

قال الوزير وقد أعجبه اذعان الخليفة للحقيقة : « كان ينبغي  
هذا ، ولم يقصّر عبدك فى أن ينصح بذلك فى المرة الماضية حين  
جاء كتاب هولاكو هذا .. فقد شرحت لمولاي ما أخشاه من  
هؤلاء ، ورغبت الى أمير المؤمنين أن يبعث اليه بالهدايا الفاخرة  
من الجواهر والممالك والجوارى ، فان القوم يرضيهم ذلك ..  
فاعترض الدوادار يومئذ واتهمنى بالضعف ، وظننى أفعل ذلك  
ممالة للعدو . وأطاعه مولاي فأرسل هدية حقيرة أغضبت هولاكو  
فكتب ما كتب »

وكان الدوادار جالسا ، فلما سمع ذكر اسمه تصدى للكلام  
قائلا : « أظن أن الوزير يريد منا أن ندعن لهذا الطاغية ونسترضيه  
بكل ما عندنا .. ولو فعلنا ذلك لم يزد الا اعتوا وطمعا »  
فقال الخليفة موجها خطابه الى الدوادار : « وماذا يرى قائدنا

«الآن ؟ .. هل يذهب اليه بنفسه كما يطلب ؟ »

قال الدوادار : « نعم .. أذهب اليه محاربا اذا شاء مولاي »  
قال ذلك وهو يظهر الاتفة والعظمة

فاستغرب ابن العلقمى غرور هذا القائد ، وهو يعلم عجزه عن ذلك مع فراغ الخزانة من الأموال ، حتى اضطر الخليفة أن يقنصد من أعطيات الجند . وكان مؤيد الدين قد أشار عليه بذلك ليجمع مالا يرضى به هولاكو ، لعلهم يعودون بغير حرب .. وكان عسكر بغداد ١٠٠٠٠٠٠ فارس فأخرج منه ٨٠٠٠٠٠ ، واستبقى عشرين ألفا والدوادار يعلم ذلك . فهل يحارب التتر بهذا الجند ؟ .. أما الخليفة فلم يكن يحهل هذه الحقيقة .. فأجاب الدوادار قائلا :  
« كيف تخرج لمحاربتهم وليس عندك الا عشرون ألفا : .. »

قال : « صدق أمير المؤمنين .. ان هذا العدد لا يكفى الآن ،  
لكننا نجد سواهم »

فقال الخليفة : « هل سهل التجنيد ؟ .. »

قال الدوادار : « كيف لا ؟ .. ان المال الذى أشار الوزير باقتصاده من أعطيات الجند يكفى للتجنيد .. سامح الله الوزير ، انه أخطأ بذلك الرأى .. ولم نستفد منه الا تقمة الجند علينا »  
فأراد الخليفة أن يدافع عن الوزير فتصدى أبو بكر وقال :  
« وما الذى يهه الوزير رضى الجند أو غضب ، وانما يهه أن  
لا يعضب هولاكو »

## - ٤٩ -

التهمة

فكان لهذا الكلام وقع شديد على نفس ابن العلقمى . وتذكر كتابه الضائع ، فخشى أن يكون لهذا الكلام علاقة به .. فأغضى عن وقاحة ذلك الشاب وعاد الى مخاطبة الخليفة ردا على كلام الدوادار فقال : « ان ما أشرت به من قبل لا أزال أومن به حتى الآن .. وما جمع لدينا من المال المقتصد ، لو استرضينا به هولاءكو لرضى وكفانا مؤونة الحرب .. أما الآن وأنت قائد الجند ، فاذا كنت ترى أن جندنا يستطيع الحرب .. فالرأى راجع لأمير المؤمنين » ..

فنظر الخليفة الى ابن العلقمى وقال : « أحب أن أعرف رأى الوزير فيما نحن فيه .. »  
قال ابن العلقمى : « رأى الملوك أن نسترضى هولاءكو بما أمكن تفاديا للحرب » ..  
قال الخليفة : « وهو يطلب أن أذهب أنا اليه أو أنت أو الدوادار » ..

قال ابن العلقمى : « يرسل المولى من شاء منا »  
فقطع أبو بكر كلامه قائلا وهو يضحك متهكما : « أظن أن الوزير يمتنى أن يذهب هو فى هذه المهمة لزيارة صديقه الخاقان ؟ » وقهقه ضاحكا



فاستغرب المستعصم هذا القول ونظر الى ابنه نظرة انتهار ،  
 كأنه يوبخه على هذا المزاج . فوقف أبو بكر وأظهر الجذ وقال :  
 « انتى أقول الحق يا أبى .. اسأل الوزير ، ألم يكن بينه وبين  
 هولاءكو صداقة ومراسلة ؟ »

فأجفل الوزير وترجّح عنده أن أبا بكر مطلع على شيء مما  
 بينه وبين هولاءكو . فأظهر اشمزازه من ذلك الحديث والتفت  
 نحو الخليفة معاتباً ، فالتفت الخليفة الى ابنه وقال : « لا محل  
 لهذا الكلام يا أحمد الآن .. »

فمد أبو بكر يده الى جيبه وأخرج كتابا دفعه الى أبيه وقال :  
 « وهذا الكتاب يشهد بذلك .. »

فتناول المستعصم الكتاب وقرأه .. ثم نظر الى مؤيد الدين ،  
 فرآه مطرقاً فقال له : « هل تعرف هذا الكتاب ؟ »  
 فرأى من الحزم أن يتجلد ، فنظر الى الكتاب وقال : « أعرفه  
 يا مولاي .. وقد كان معى وسرق منى »

فرماه المستعصم اليه وقال : « انه يؤيد كلام ولدنا ويدل  
 أيضا على أن بينك وبين هولاءكو تراورا »

فالتقط مؤيد الدين الكتاب وقال : « نعم ياسيدى .. لكن  
 هل يدل على انى متفق معه على عمل .. أم هو يشكو من رفضى  
 مطالبه ؟ .. »

فقال أبو بكر : « ولكن على كل حال يظهر من آخره ان  
 المخابرة بينكما قديمة . ألم يكن يجدر بك أن تطلع أمير المؤمنين

على ذلك . ما أدرانا بما دار بينكما ؟.. والأرجح انك متفق معه على تسليم البلاد اليه وانما اختلفتم في كيفية تسليمها .. ليس هذا شأن الوزير المخلص لمولاه كما تدعى .. »

فتحير مؤيد الدين بماذا يجيب ، وهم بالكلام ، فرأى الخليفة يشير اليه أن يسكت ، وقد ظهر الغضب على وجهه ، ثم قال : « صدق أبو بكر .. لم أكن أتوقع منك ذلك مع ثقتي بك . كان ينبغي أن تطلعني على ما يدور بينك وبين عدونا قبل الآن .. »

فأراد ابن العلقمي أن يدافع عن نفسه ، فأشار اليه المستعصم أن يسكت وقال : « طالما دافعت عنك وكذبت ما ينقلونه لى ، والتمست لك الأعدار .. أما الآن فيظهر لى أن كلامهم هو عين الصواب ، ولم أفهم لسكوتك عن هولاكو معنى سوى أن لك في ذلك غرضا أو مطمعا ، ولولا ذلك لأطلعنتى على ما دار بينكما »

فلم يطق مؤيد الدين صبرا على السكوت ، فقال : « لا أرى فائدة من اطلاع مولاي على ما يكدره .. وانما يطلب منى أن أحافظ على ولائه وأدافع عن مقام الخلافة . فهل فى هذا الكتاب ما يدل على خيانة ؟ .. فاذا كان فيه شيء من ذلك فالعبد رهين أمر مولاه .. »

فاعتدل المستعصم فى مجلسه ، وقال : « حسنا .. وهل كان فى مصارحتى بمكان تلك الجارية ما يكدر أيضا ؟ .. »

فاستغرب مؤيد الدين قوله ، وقال : « أية جارية يامولاي ؟ »

قال المستعصم : « جارية أحمد الذي ذبح أهل الكرخ بسببها .. »

قال مؤيد الدين : « وما شأنها فيما نحن فيه ؟ .. »  
 فقال الخليفة : « ما كنت أظنك تجهل شأنها .. ألم تكن تعلم ان مذبحه الكرخ اتما جرت بسببها ، لأن أحمد علم انها مختبئة هناك وأنكروها عليه ؟ »

قال مؤيد الدين : « بلى .. »  
 قال الخليفة : « وقد قلت لنا يومئذ انك لا تعرف عنها شيئاً ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « نعم .. »  
 قال الخليفة : « كيف تقول ذلك وهي مختبئة في منزلك ؟ »  
 فأجفل مؤيد الدين عند سماع ذلك وقال : « مختبئة في منزلي ؟ .. »

قال الخليفة : « نعم .. أو منزل بعض أهلك في الكاظمية . وقد استرجعها أحمد أمس بهمة الدوادار .. لكن بدون أن يفتك بأحد .. »

فتذكر مؤيد الدين شوكار .. وان سحبان أخذها من عنده ليخبئها في الكاظمية .. وحين تذكر ذلك سرى عنه ، لأنه سيفوز بها على أبي بكر لعلمه انها جارية المستعصم وقد خطفها أبو بكر لنفسه . فقال وهو يظهر الاستخفاف : « هل أمير المؤمنين واثق مما قيل له ؟ .. »

قال الخليفة : « هذا أحمد ، وهذا الدوادار قد أتيا بها أمس من الكاظمية » ..

قال مؤيد الدين : « هل رآها أمير المؤمنين ؟ »  
 قال الخليفة : « لا .. لم أرها ، ولكنى لا أشك في صدقهما »  
 فوقف أبو بكر وهو يظهر الغضب وقال : « وهل أنا كاذب؟ »  
 قال مؤيد الدين : « لا أعلم ، ولكنى أعلم انى غير كاذب .  
 وبما انك وجّهت الى تهمة الخيانة ، فيقتضى ذلك أن تثبت قولك بالبرهان .. فاذا أثبتته ، فانى مستعد لاحتمال القصاص »  
 فقال أبو بكر : « لا حاجة الى اثبات ذلك ، فانه ثابت عندنا جميعا » وجلس وجعل يتشاغل بقتل شاربه ويظهر الازدراء .  
 وقد خشى أن يلح مؤيد الدين فى طلب الجارية ليراها أبوه فيفتضح أمره . وندم على ذكر هذه الجارية لأبيه ، لكنه لم يكن يعلم ان مؤيد الدين مطلع على تاريخها ..

— ٥٠ —

### الفوز

أما مؤيد الدين فازداد تمسكا بقوله ووجه كلامه الى الخليفة قائلا : « هل من ضرر اذا أمر مولاى أمير المؤمنين باحضار الجارية لئراها ونطلب شهادتها ؟ »  
 فقال الخليفة : « لا ضرر من ذلك .. » والتفت الى أحمد

وقال : « أين هي ؟ .. » ..

فأظهر الاشمئزاز من ذلك الطلب وقال : « ما الداعى لاستقدام جارية الى ديوان أمير المؤمنين ؛ وما هي أهميتها ؟ .. »  
قال مؤيد الدين : « انها ذات أهمية كبرى .. لأن الوزير متهم بالخيانة والكذب بسببها ، فالمطلوب اثبات ذلك عيانا »  
فنهض أبو بكر وهو يظهر عدم المبالاة وقال : « ليس أمر هذه الجارية مهتاً ، وإنما المهم هو كتاب هولاءكو ضدنا .. وقد اطلع عليه والدى وكفى » قال ذلك وتحوّل وخرج بلا استئذان وأبوه ينظر اليه .. وقد سرّهُ خروجه لئلا يصدر منه كلام يسيئه ، لكنه كان يجب بقاءه ليتحقق من أمر تلك الجارية فناداه : « أحمد .. »

فرجع وقال : « نعم .. »

قال مؤيد الدين : « أحب أن تتم البحث في أمر الجارية .. »  
فقال أبو بكر : « لا أهمية لها .. وأنا أسامح الوزير على خطيئته بشأنها » ..

فقال الوزير : « أما أنا ، فلا أسامح نفسى .. أحب أن تأنى الجارية وتثبت الخيانة علىّ أو على غيرى .. وطلبى هذا حق »  
فما زاد أبو بكر على أن ضحك ومشى ، وأبوه يتبعه بنظره  
أما مؤيد الدين فالتفت الى الخليفة وقال : « هل يأمر مولاي باستقدام الجارية الى هنا ، وهذا الدوادار يعرفها لأنه كان مع الأمير أبى بكر حين أخرجها من منزل بعض أهلى فى الكاظمية

كما يقول ..

فالتفت الخليفة الى الدوادار كأنه يأذن له فى الكلام ، فقال  
مخاطبا الوزير : « وهل أنت فى شك من قول مولانا أبى بكر؟ »  
قال مؤيد الدين : « لاشك عندى فى قوله ولا قولك ..

لكنى ألتمس من مولاي الخليفة أن يأمر باستقدامها »  
فأشار الخليفة الى الدوادار قائلا : « لا أرى بأسا من  
استقدامها .. فافعل .. »

ولم يكن الدوادار يعرف علاقة هذه الجارية بالخليفة ، ولذلك  
لم يرَ بأسا من احضارها .. واستغرب انكار أبى بكر ذلك ،  
وحمله منه محمل الطيش .. فنهض وهو يقول : « أنا ذاهب بأمر  
مولاي لاستخدام الجارية بدون أن أستأذن الأمير أبى بكر »  
قال الخليفة : « افعل » فخرج

وظل ابن العلقمى جالسا يفكر فيما وفق اليه من التغلب على  
عدوه ، والخليفة مطرق لا يتكلم .. ولم يمض كثير حتى عاد  
الدوادار لأن المنزل الذى وضعوا فيه شوكار كان قريبا من قصر  
التاج ..

ودخل الدوادار ووقف وقمة الظافر وقال : « ان الجارية  
بالباب هل أدخلها على مولاي ؟ .. »  
قال الخليفة : « لتدخل »

فدخلت ومؤيد الدين ينظر الى الباب بلهفة خشية أن يكون  
قد جاء بجارية أخرى غير شوكار .. فاذا هى شوكار ، فانشرح

صدره . أما شوكار فوقفت مطرقة فخطبها الخليفة قائلاً :  
« ألم تكوني مختبئة في الكاظمية وجاء بك قائدنا هذا أمس ؟ »

قالت شوكار : « بلى يامولاي .. »

قال الخليفة : « ومن الذي خباك هناك ؟ .. أصدقيني .. »  
قالت شوكار : « وهل يجسر أحد على الكذب في حضرة أمير

المؤمنين ؟ .. خبأني رجل اسمه سحبان .. »

قال الخليفة : « ألم يكن الوزير مؤيد الدين هو الذي

أخفاك ؟ » ..

قالت شوكار : « كلا يامولاي .. ولم يكن هو يعرف اني

مختبئة هناك .. »

قال الخليفة : « ألا تعرفين وزيرنا قبل الآن ؟ »

قالت شوكار : « بلى .. »

قال الخليفة : « وكيف عرفته ؟ .. ومن ذهب بك اليه ؟ »  
فتحيرت في الجواب وتلعثمت لأنها توسمت من وراء تلك

الأسئلة سوءاً يريد الخليفة بالوزير ، وهي لم تر من الوزير

الا الخير .. ولا تحب مع ذلك أن تقص خبرها على الخليفة ،

فارتج عليها . فوقف مؤيد الدين وقال للخليفة : « يتفضل

مولانا بالسؤال عن اسمها ، ومن أين أتت الى بغداد ، وما

سبب مجيئها .. »

فقال الخليفة : « وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ »

قال مؤيد الدين : « سيرى مولاي ان له علاقة كبرى ،

وسيكشف له عن أمور هامة «

فقال الخليفة : « ما اسمك ؟ .. ومن أين أتيت ؟ .. ولماذا ؟ »  
 ففهمت شوكار من تعرض ابن العلقمي لهذا الأمر انه يريد  
 أن تقول الحقيقة ، فقالت : « اسمي شوكار ، وقد جئت من  
 مصر لأكون مغنية في قصر أمير المؤمنين »

فلما سمع الخليفة قولها أجفل وخفق قلبه ، اذ ترجح له انها  
 المغنية التي كان قد فقدها ، فنظر الى مؤيد الدين ، ثم الى  
 الدوادر وقد تولته الدهشة ، وأعاد السؤال عليها قائلاً :  
 « انت شوكار جارية شجرة الدر ؟ .. »

قالت شوكار : « نعم يامولاي .. اني شوكار جارية شجرة  
 الدر ؟ .. »

قال الخليفة : « كنت قادمة الى ؟ .. »

قالت شوكار : « نعم .. »

قال : « ومن أخذك مني ؟ .. وأين كنت طول هذه المدة ؟ .. »

قالت شوكار : « أخذني ابنك الأمير أبو بكر .. وأنا عنده

الى الآن .. »

قال الخليفة : « ألم تكوني أنت الجارية التي حدثت مذبحه

الكرخ من أجلها ؟ .. »

قالت شوكار : « أنا تلك الجارية يامولاي .. وكنت قد فررت

للنجاة بنفسى .. »

قال الخليفة : « كيف أخذك ابني وأنت محمولة الى ؟ .. »



قالت شوكار : « حين وصلت مع الركب الى قرب بغداد ،  
 جاءنا جند قالوا انهم قادمون من قصر أمير المؤمنين ليأخذوني  
 اليه .. فدفعتي الركب اليهم فأخذوني الى قصر عرفت بعد ذلك  
 انه للأمير أبي بكر .. »

فأخذ الغضب من الخليفة مأخذا عظيما ، وندم الدوادار لأنه  
 تصدى لحمل الجارية الى هناك . وأصبح خائفا على أبي بكر  
 من غضب أبيه .. فوقع في حيرة ، وأعاد النظر الى تلك الجارية  
 بدهشة . أما مؤيد الدين فظل ساكنا وقلبه يرقص فرحا لقوزه .  
 وأحسّت شوكار أن انتقالها من بيت أبي بكر الى بيت الخليفة ،  
 فيه تفرّيج عن نفسها .. وان كانت تفضل الانتقال الى مصر

— ٥١ —

### المحبة الأبوية

أما الخليفة فلما تحقق من الواقع صفق فجاءه غلام ، فأوماً  
 اليه أن يأخذ شوكار الى قصر التاج ويسلمها الى القهرمانه  
 ويوصيها بها خيرا . والتفت الى الدوادار وقال : « قد سمعت  
 الآن ان الذين أعانوا أحمد على هذه الجريمة هم من الجند . هل  
 يليق ذلك بالجنود ؟ .. أليست هذه خيانة منهم ؟ .. »  
 فاعتبر الدوادار هذا التوبيخ موجها اليه لأنه القائد العام ،  
 فاضطر للدفاع عن نفسه أن يشكو ابن الخليفة ، فقال : « لم

يفعل الجند ذلك بأمرى ، وإنما فعلوه بأمر الأمير أبي بكر .. وهل نستطيع أن نخالف له أمرا ؟ .. »

قال الخليفة : « كيف لا ؟ .. أتطيعون ابني في سبيل معصيتي وأنا ما زلت على قيد الحياة ؟ .. »

وتحرك في مجلسه من شدة الغضب ، وأخذ يلهث وينفخ ويصر على أسنانه ، فخيّل لمؤيد الدين أن أبا بكر لو كان حاضرا لأمر الخليفة بقتله . وود لو انه يحضر ، واذا بالخليفة يقول للدوادار : « أين أحمد الآن ؟ .. »

قال الدوادار : « لا أعلم يامولاي .. »

قال الخليفة : « الـى به حالا أينما كان .. »

فخرج الدوادار ، ونظر الخليفة بعد ذهابه الى مؤيد الدين نظرة اعتذار لأنه شك فيه ، وقال : « لقد أسأنا الظن بك ياوزيرنا .. جوزيت خيرا .. لماذا لم تطلعنى على خير هذه الجارية من قبل ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « لأنى لم أعرف الحقيقة الا منذ أيام قليلة ، وقد قلت للذى قص على خبرها أن يخبئها في مكان أمين ريثما نطلع أمير المؤمنين على أمرها في فرصة مناسبة لا يدري بها الأمير أبو بكر .. لأننا لو أردنا أن نفعل ذلك بعلمه لما نجونا من الأذى ، وهو ابن أمير المؤمنين والجند طوع ارادته »

فهب الخليفة رأسه وقال : « إنا لله وأنا اليه راجعون . نعم .. انى أخطأت باطلاق سراح ابني هذا ، ولو كان محجورا عليه كما

كان الأمراء قبله ، لم يصبح بمثل هذه الأخلاق .. ولا جرء  
علينا هذه البلايا ، سوف أحبسه وأحجر عليه ، وأعلمه كيف  
يكون مطيعا .. قبحه الله من ابن عاق «

وبينما هما في ذلك ، اذ سمعا ضوضاء بالباب عرفا منها صوت  
أبى بكر وهو يقول بلهجة الغضب : « أما كفاه من في داره من  
النساء حتى طمع في جاريتى ، دعنى أدخل » وإذا بالحاجب قد  
دخل وهو يقول : « ان مولانا أبا بكر ابن أمير المؤمنين بالباب ،  
هل يدخل ؟ .. »

فقال الخليفة : « هل جاء وحده ؟ .. »

قال الحاجب : « نعم .. »

قال الخليفة : « وكيف ذلك ؟ .. أليس الدوادار معه ؟ .. »

قال الحاجب : « كلا .. »

ولم ينتظر أبو بكر الاذن له في الدخول ، فدخل والغضب باد  
على محياه وهو لا يتمالك عن الارتعاد

فلما رآه أبوه داخلا استعاذ بالله ، وابتدره قائلا : « ما هذا  
يا أحمد ؟ .. أهكذا يدخلون على أمير المؤمنين ؟ .. أين التربية  
ووقار الخلافة ؟ .. »

فجلس ولم ينتظر الاذن له بالجلوس وقال : « تسألنى عن  
التربية وأنا ابن أمير المؤمنين وقد ربيت في حجره . ولعل ذلك  
كان من أسباب شقائى .. يحسدنى الناس لأن الخليفة أبى ، ولو  
علموا كيف يعاملنى لأشفقوا على .. » قال ذلك واختنق صوته

كأنه يجيش بالبكاء ..

فلما سمع المستعصم اجهاشه ، ولاحظ شيئا يتلألأ في عينيه كالدمع خمد غضبه وتغلب حنانه .. وان لم يكن هناك ما يدعو الى الحنان والاشفاق .. ان المحبة الأبوية لا تدعن للحقوق ولا تعترف بقواعد المنطق ولا تطلب البراهين .. وانما هى حاكم مستبد أكثر أعماله لا تنطبق على القوانين ، وكثير منها يناقض المنطق ويخالف أحكام العقل .. الأب يجب ابنه ويغار عليه ويرى فيه حسنات لا يراها الآخرون . وهو لا يحب لأنه يرجو منه نفعا أو لأنه يستحق المحبة لفضائل فيه أو حسنات أتاها . وانما يحبه عفوا .. يحبه لأنه ابنه ، ويزداد حبه له كلما شقى فى تربيته .. ويزداد عطفه عليه اذا رآه حزينا . ان الوالد ( أو الوالدة ) ليس أدعى الى تحريك شفقتة من أن يرى ابنه باكيا وان كان فى أشد حالات الغضب ، كأن دموعه تقع على نار ذلك الغضب فتطفئها ، ويتصاعد دخانها فيغشى ما هناك من دواعى النقمة ، فلا يرى غير بواعث الشفقة والعطف

وكان المستعصم من أضعف الآباء قلبا وأكثرهم حنانا ، فأوشك أن ينسى أسباب غضبه على ابنه ، لكنه تجلد وقال : « هل بمثل هذا تخاطب أباك ..؟ هل يحق لك الشكوى من أبيك وقد منحك ما كان يشتهي أبناء الخلفاء قبلك ..؟ كانوا مسجونين وأنت طليق ولك الأمر والنهى .. ألم تر الدوادار ..؟ » قال أبو بكر : « لا .. لم أره .. لكنهم قالوا لى انه أتى قصرى

وحمل جاريتي فلم أطق الصبر على ذلك ؛ فجئت لأشكو اليك عمله .. فاذا أنت تمن عليّ بالحرية التي وهبتى إياها .. وأية حرية هذه وقد ضننت عليّ بجارية مع كثرة الجوارى في قصرك .. ولكن .. »

فقطع المستعصم كلامه قائلاً : « لم أضن عليك بجارية ، لكنني عتبت عليك لأنك اختطفت جارية آتية من مصر باسمي .. »  
فقال وهو يحول وجهه استخفافاً : « آتية من مصر باسمك ؟ انك لا ترى بأساً من اقتناء مئات الجوارى وتبعث في طلبهن من الأطراف . وأما ابنك الشاب اذا أخذ جارية منهن اتهمته بالعقوق وشددت النكير عليه .. لو كنت ابن أحد العامة ، لم يفعل أبى معي فعل أمير المؤمنين » . قال ذلك وغص بريقه ، وأظهر أن صدره ضاق من الاجهاش ، وانه انما يمسك نفسه من البكاء حياء ، ثم قال : « ومع ذلك فأنت أمير المؤمنين ، ولك الحق في أمور ليس لسواك الحق فيها .. ونحن عبيدك ، وكل ماهو لنا طوع ارادتك . ولا يزال عندي بضع جوارٍ آخر ، فابعث الدوادر ليحملهن اليك . ليتك أبقيتني أسيراً ، ولم تترني نور الحرية .. ان المولود في الظلمة لا يعرف لذة النور ولا يأسف لفراقه ، واذا كنت قد ندمت على اطلاق سراحى فما أنا بين يديك فاحبسنى أو اقتلنى . والقتل خير لى لأنى أريحك من المتاعب » وأظهر انه لم يعد يستطيع التماسك عن البكاء ، وأخذ في الشهيق وأوشك أبوه أن يشاركه في ذلك أما مؤيد الدين فكان جالسا وهو يسمع ويرى ، وقد أدهشه

ما رآه من الانقلاب في عواطف المستعصم .. كيف تحولت  
 نغمته الى حنان واشفاق .. فذهب فرحه بالفوز عبثا ، لكنه  
 اكتفى بالنجاة من الغضب وود الخروج من ذلك المجلس ، ولم  
 يستحسن الاستئذان .. ولا يجوز له أن يستأذن قبل أن يرى  
 الخليفة راغبا في صرفه على عادة الخلفاء والملوك . فأخذ يتحرك  
 في مجلسه ليوجه التفات الخليفة الى صرفه ، وقد يكون أكثر  
 رغبة منه في ذلك ..

## - ٥٢ -

### رد الفعل

لكن حركته لفتت انتباه أبي بكر ، فتحول نحوه وعاد الى  
 الكلام فقال : « أنا لا أشك في حنان والدى .. ولكن اللوم كله  
 على هذا الوزير الذى شب على كرهنا لأنه علوى ولا يرى لنا  
 الحق في الخلافة » ووجه خطابه الى أبيه قائلا : « وانى  
 لأستغرب صبر والدى على رجل يكرهنا ويسعى في خلع خلافتنا  
 ويخاير ألد أعدائنا سرا .. وأغرب من ذلك انه صدق دفاعه عن  
 نفسه» .. ومد يده الى كتاب هولأكو ، وكان لا يزال في يد مؤيد  
 الدين فاخطفه منه بخشونة وفتح ، وقال وهو ينظر فيه :  
 « صدق دفاعه وقلته بريئا من التواطؤ مع عدونا ، وهو يقول له في  
 هذا الكتاب انه صديقه ويشير عليه بارسال الرسالة كما قال له

قبلا .. ألا يدلّ هذا على حديث سابق في شأن هذه الحيانة ؟  
ومع ذلك فإن قول ابن العلقمى العلوى مصدق وقول المسكين  
أحمد مكذب « .. وعاد الى البكاء ..

فتفطر قلب أبيه لبكائه وهو ضعيف الرأى كما علمت : فقرأ  
مؤيد الدين في وجهه الانصياع الى رأى ابنه فأسقط في يده ..  
وتحقق أن سعيه ذهب عبثا .. وود لو انه يختفى من تلك  
الجلسة لئلا يسمع تأنيبا من الخليفة نفسه . فاذا هو يقول :  
« سأنظر في أمر أحمد والجارية في فرصة أخرى . أما من حيث  
مخابرة العدو فقد صدق أحمد يا مؤيد الدين . كيف صيرت على  
مخابرة ذلك العدو مدة ولم تخبرنا .. نعم انى واثق فى أماتتك ،  
ولكن للثقة حدودا تقف عندها .. لا .. لا .. لا أزال على ثقتى  
بك وان خالفتنى أحمد .. انه قال ما قاله الآن عن غضب .. »  
فقطع أحمد كلام أبيه قائلا : « لا .. لا أقول عن غضب ..  
أنت تعرف عدم ثقتى فى هذا الوزير من قبل ، وقد تأكد ظنى  
فيه اليوم ... »

فلم يشأ الخليفة أن تنتهى الجلسة على هذه الصورة لأنه  
يؤمن بكفاية وزيره ، ويرى نفسه فى حاجة اليه .. لكنه لم  
يستطع أن يعالج عواطفه الأبوية ويجادل ابنه فأحب أن يغلّق باب  
الكلام . فأبدى اشارة الانصراف ، فوقف مؤيد الدين واستأذن  
فى الانصراف ، وهو ساكت يفكر ..  
خرج وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى أخطأ الطريق

من الديوان الى موقف الدواب ، حيث كان غلامه في انتظاره ، ثم اتبه لنفسه فركب بغلته وسار قاصدا منزله ، وهو لا يرى طريقه لشدة ما جاش في خاطره من الأسف واليأس والخوف . وتضاربت خواتره بين الانتقام والترث حتى وصل الى المنزل ، فاستقبله قيم الدار على جارى العادة ، فلما وقع نظره عليه تذكر المملوك الذى كتب الرسالة على رأسه فسأله عنه ، فقال : « هو فى حجرتى .. »

قال مؤيد الدين : « كيف شعره ؟ .. »  
قال : « قد نما حتى كسا رأسه ، واذا شئت أتيتك به الساعة .. »

قال مؤيد الدين : « حسنا » ومشى الى غرفته وهو يفكر وخاطره مشتغل بما مرّ به فى ذلك اليوم ، وكلما تصور أبا بكر واحتقاره اياه يهب جسمه هبة يرافقها قشعيرة .. فجلس على سريريه وهو مطرق ، واذا بالقيم قد جاءه ومعه ذلك الغلام يساق كالبهيمة .. وليس فيه من علامات الانسانية الا شكله الخارجى ونطقه اذا تكلم . فلما رآه مؤيد الدين نظر الى رأسه فرأى شعره قد نما وتكاثر ولم يبق شئ ظاهر من جلده . فنفرس فى رأسه وهو يقول فى نفسه : « ان تحت هذا الشعر رسالة اذا بلغت الى صاحبها أقام الدنيا وأقعدها ، وانتقم لى من ذلك الغلام .. وما علىء اذا أنا أرسلتها الى هولاءكو؟ .. ان الرجل قادم علينا لا محالة ، وهو فاعل ما يريد .. ولا ريب عندى



بفوزه ، فاذا أرسلت اليه دعوتي هذه على رأس هذا التركي  
 ضمنت حياتي وحياة من أحب من أهلي وأصدقائي . ولو علمت  
 اننا نستطيع دفع هولاءكو ورجانه . لم آكن أبالي بجهالة هذا  
 الغلام واستخفافه .. بل كنت أدافع عن أمتى وبلدى وأغضى عن  
 ضعف الخليفة وطيش ابنه .. ولكن أتى لنا أن ندفع التتر ،  
 ونيس عندنا الآن الا عشرون ألفا من الجند ، قلوبهم متفرقة ونياتهم  
 متناقضة .. اذن .. « ووضع سبابته على ذقنه كما يفعل المتأمل ،  
 ثم رفع بصره الى قيم القصر وقال : « أرسل هذا الغلام فى  
 المهمة التى تعرفها .. »

فخفق قلب القيم فرحا لأنه كثير الرغبة فى الانتقام من الخليفة ،  
 فنادى الغلام اليه فتبعه . فلما خلا به أفهمه ان مولاه الوزير  
 يريد منه أن يذهب الى هولاءكو خاقان التتر ، ويقول له انه قادم  
 من وزير بغداد وكفى .. ومتى عاد نال المكافأة الكبرى ، ففرح  
 الغلام ومشى كالشاة التى تساق الى الذبح ..

- ٥٣ -

شوكار فى دار النساء

أما شوكار فذهبت مع غلام الخليفة الى دار النساء رغم  
 ارادتها .. لكنها كانت تفضل أن تكون هناك ، على أن تبقى عند  
 أبى بكر . وكانت قد قضت مدة وجودها عنده وهى فى حرب

دائمة معه .. لأنه يريد لها لغير الغناء وهي تأتي ذلك ، ولاسيما بعد أن جاءها كتاب ركن الدين مع الخصي عابد البصرى رسولها اليه .. لأنه كتبه وهو غاضب من سعاية سلافة في شوكار .. ولم يكن سعيها الا ليزيده تمسكا بحبها ، فكتب اليها كتابا ضمنه العطف عليها والوعد بانقاذها ، فجاءها الرسول بالجواب المذكور وهي في حوزة ابن الخليفة . واحتالت حتى أدخلت عابدا في خدمتها ، لعلها تحتاج اليه في شيء بعد أن اختبرت أماتته . وهو الذى أعانها على الفرار الى الكرخ ، وجرى بسبب فرارها ما جرى من القتل والنهب .. وخرج معها الى الكاظمية ، وحين استرجعها أبو بكر الى منزله كان عابد لا يزال فيه .. ثم بعث المستعصم فى طلبها ، فجاءت وحدها .. وأمر الخليفة بارسالها الى دار النساء ..

وقبل وصولها الى الدار بلغ أهل القصر ان الجارية المغنية التى كانت مرسله الى الخليفة واختطفها للصوص قد وجدت ، وجيء بها الى قصر التاج ، وانها قادمة الآن الى دار النساء .. فلا تسل عن تجمع لمشاهدتها من الرجال والنساء .. والنساء أكثر ميلا الى ذلك من الرجال . وكان فى قصور النساء هناك مئات من السرارى والجوارى على اختلاف الطبقات والأغراض . فجاء كثيرات منهن الى قهرمانه القصور يستوضحن ما سمعنه عن شوكار . وقد اختلفت الروايات فى شكل هذه الجارية وطول قامتها أو قصرها ، ودرجة رخامة صوتها ، وغير ذلك مما تصوره

المخيلة في مثل تلك الحال ..

وكان أكثر النساء اهتماما بأمرها المغنيات ، لأن شوكار قادمة لناظرتهن في أسباب رزقهن .. فاجتمعن وتحدثن في أمرها وما وصلهن من الأقاويل عنها .. مما هو طبعى في الناس . ولاسيما في ذلك العصر ، وخصوصا بين نساء لا عمل لهن سوى أمثال هذه الأحاديث .. اذ لا يشغلن عن ذلك كتاب ، ولا جريدة ، ولا مجلة ، ولا مدرسة ، ولا خطاب ، ولا اجتماع علمى أو أدبى مما قد يشغل نساء هذا العصر .. وانما همهن التسابق في التبرج لاجتذاب قلوب الرجال ..

وأول من لقيته شوكار هناك أستاذ الدار «رئيس الخصيان» أخذوها اليه وهو متصدر في غرفته ، فقبلت يده ووقفت باحترام تنتظر أمره .. وهو الأمر الناهى في تلك القصور ، وقد رأيت انه ذو رأى مسموع في الشؤون السياسية .. كما كان شأن بعض أغوات يلدز في زمن عبد الحميد . وبعد أن قدمت نفسها لأستاذ الدار ، وسأل عن اسمها وعمرها ويوم وصولها ، وسائر الأوصاف المميزة لها ، أمر بتدوين ذلك في أماكنه لئلا يختلط أمر النساء بعضهن على بعض لكثرتهم .. وقد تشابه الأسماء .. ثم أخذوها الى قهرمانه الدار، وهى كهلة رهلة .. وقد تراكم اللحم على بدننها مثل تراكم المصوغات والمجوهرات حول عنقها وزنديها .. وعليها أفخر الملابس ، وهى في تلك الدار كالمملكة ، ليس بين الجوارى والسرارى من لا يتزلف اليها ويخطب رضاها

بالمحاسنة والمجاملة والهدايا .. مشت شوكار نحو غرفتها ، وهى  
 مطرقة حياء لكثرة من لقينهم فى طريقها من الخصيان والجوارى ،  
 وقوفا فى الدهاليز والأبواب يتفرون فيها ويتهامسون عنها .  
 فلما أقبلت على غرفة القهرمانه رأت الخصيان يبأها كالحراس  
 بأبواب الملوك .. فدخلت تلك الغرفة ، وتلفتت لتتعرف الوجوه  
 فعرفت القهرمانه من مجلسها وملابسها الفاخرة .. فتمشت نحوها  
 حتى اذا دنت منها أكبت على يدها تقبيلها .. فقبيلتها القهرمانه  
 وأمرتها بالجلوس الى جانبها . وأخذت ترحب بها بعبارات مألوفه  
 فى مثل تلك الحال ، لو تليت على انسان لم يألفها لظن قائلها أشد  
 الناس موده له وتفانيا فى مصلحته ، لكنها على طول التكرار  
 أصبحت لا معنى لها .. أو أن لها معنى يناقض حقيقة المراد بها  
 فاستأنست شوكار ونظرت الى ما فى تلك الغرفة من الرياش  
 الفاخر ، وتأملت حال أهل ذلك القصر من الرخاء والنعيم ،  
 فأوشكت أن تؤثر البقاء هناك على أن تعود لركن الدين .. ثم  
 ناداها قلبها فأصغت الى ندائه ولسان حالها يقول : « ليست  
 السعادة بالرياش والمجوهرات ، وانما هى فى الحب » ثم سمعت  
 القهرمانه تنادى أحد الخصيان وتأمره أن يهيبء لمغنية الخليفة  
 غرفة تجتمع فيها كل أسباب الراحة . والتفتت الى شوكار وقالت :  
 « تمكثين هنا ريشما تنهى الغرفة كما يليق بك .. انى فى انتظار  
 قدومك منذ مدة طويلة ، وقد شغل بالنا خوفا عليك ، فنحمد  
 الله على سلامتك .. »

فأجابتها شوكار شاكرا وقالت : « انى لا أستحق هذا  
الاهتمام ياسيدتى .. ما أنا الا جارية حقيرة »

فأجابتها القهرمانة ( أو القيمة ) وهى تضحك : « أنت تظنين  
اننى لا أعرفك قبل الآن .. ولكنى أعرفك من عهد بعيد وأعرف  
كل شىء عنك .. عرفت ذلك من صديقتى قهرمانة الملك الصالح  
صاحب مصر - رحمه الله - أتعرفينها ؟ .. »

فتذكرت سلافة وما بينها وبين سيدتها شجرة الدر من  
المنافسة . ولم تكن تعرف لها هذه المنزلة لدى قيمة قصور  
الخليفة فقالت : « أظنك تعنين سلافة .. نعم أعرفها ياسيدتى ،  
ولم أكن أظنها تعرفنى »

قالت القهرمانة : « بالعكس .. انها تعرفك جيدا وهى التى  
لفتت انتباهى الى رخامة صوتك وانك تليقين بمجالسة مولانا  
أمير المؤمنين .. فأشرت على مولانا باستقدامك ، فطلبك من  
سلطان مصر كما تعلمين .. »

فأحست شوكار بفضل سلافة عليها ، وان كانت هى تفضل  
الخروج من ذلك القصر ، لكنها نظرت فى الأمر من حيث قصدها  
فقالت : « فى الحقيقة ان حسن ظن السيدة سلافة منة كبرى  
يجب أن أشكرها عليها ، ولوعرفت ذلك لشكرتها وأنا فى مصر »

قالت القهرمانة : « ويمكنك أن تشكرها هنا .. »

قالت شوكار : « وهل هى هنا الآن ؟ .. »

قالت القهرمانة : « هى هنا منذ بضعة أيام .. »

## - ٥٤ -

## سلافة

—

فاستغربت هذه المصادفة ، وظهر السرور على محياها ، وسبق  
الى ذهنها حسن الظن .. وتصورت ان وجود سلافة هناك سيكون  
أكبر تعزية لها ريثما تستطيع العودة .. وخيّل لها ان سلافة  
ستكون عوناً كبيراً لها في ذلك ، فقالت : « الله ما أسعد حظي ..  
أين سيدتي سلافة ، أحب أن أقبل يدها وأشكر لها صنيعها »  
قالت القهرمانة : « سترينها بعد قليل ، وقد سألت عنك ساعة  
وصولها من مصر ، فأخبرتها عن قصتك فتأسفت .. ولما جاءتنا  
البشارة الآن بوجودك أخبرتها ، ففرحت فرحاً عظيماً وهي آتية  
الساعة .. هذه جاريتها قادمة .. أين سيدتك يا أقحوانة ؟ .. »  
فأجابت الجارية : « انها في غرفتها يا مولاتنا .. وقد بعثتني  
لأدعو القادمة الجديدة اليها لتتمتع برؤيتها .. فانها في شوق اليها »  
فضحكت القهرمانة حتى ظهرت بقايا أسنانها ، وما يتخللها من  
الفراغ في أماكن الأسنان المخلوعة ، وقالت : « هل تريد أن  
نرسلها اليها لترها قبل أن يراها أمير المؤمنين ؟ .. »  
فقالت الجارية : « هذا ما قالته مولاتي .. والأمر لك .. »  
قالت القهرمانة : « لا بأس .. ان ضيفتنا شوكار ذاهبة معك  
لرؤية صديقتنا سلافة لأنها في شوق لمشاهدتها وتقديم شكرها

لها .. وقولى لها ان لا تطيل الحديث معها ، اذ بعد قليل لابد من ارسالها الى الماشطة لاصلاح شأنها ، بحيث يليق بها الجلوس بين يدي مولانا الليلة لسماع صوتها الرخيم . ولا أظنه يصبر على الانتظار الى الغد .. قومي يا شوكار الى سلافة ، ويجب أن تستأنسى بنا وتتقى بى فانك كاحدى بناتى .. »

فنهضت شوكار ، ومشت فى اثر الجارية اقحوانة ، وهى تمر من دهليز الى دهليز والغرف الى الجانيين . وشعرت ان فى تلك الغرف أناسا يتشوقون الى رؤيتها .. فعنى الجوارى أو اسرارى ، فكانت ترى الأبواب بين مفتوح ومشقوق ، والرءوس تطل لمشاهدة الفتاة المارة ، ثم ترجع خلسة .. حتى وصلت الى غرفة سلافة فنقدمتها أقحوانة وأخبرت سيدتها بمجىء شوكار .. فلما أطلت شوكار على مجلس سلافة تصاعد الدم الى وجهها خجلا وفرحا ، لأنها تشعر بأن هذه السيدة أرادت الاحسان اليها بارسالها الى بيت الخليفة وان كان ذلك لم يوافق رغبتها .. فلما شاهدتها سلافة مقبلة نهضت لها ، وتقدمت لاستقبالها ببشاشة وترحاب زادا الفتاة خجلا .. لأنها تعرف منزلة تلك السيدة فى قصر الملك الصالح بمصر وقصور المستعصم فى بغداد . فأكبرت تواضعها وعطفها وأكبت على يدها تقبلها .. فمنعتها من ذلك ، وهى تقول : « مرحبا بالعزيزة شوكار ، وأشكر الله لأنه أرانى اباك فى هذا القصر ، فلطالما تمنيت لك هذه السعادة . هل أنت مسرورة يا شوكار ؟ » وأومأت اليها أن تجلس على وسادة

بجانها والقاعة مفروشة بأحسن الرياش  
فجلست شوكار وهى تقول : « أشكر لك غيرتك وفضلك  
ياسيدتى .. انى فى سعادة والحمد لله .. و ... »  
فقطعت سلافة كلامها قائلة : « ولكن ساءنى انهم اختطفوك  
فى أثناء الطريق ، واليوم عرفت سبب ذلك فالحمد لله على  
سلامتك .. كم أنا مسرورة بلقائك .. ومهما يكن من حظوتك  
بالمجىء الى بغداد والاقامة فى دار الخليفة ، فان الخليفة أكبر  
حظاً منك فى الظفر بمغنية ليس فى العراق ولا مصر أرخم صوتاً  
منها .. »

فلم يسع شوكار الا اظهار الامتنان والثناء على هذه النعمة ،  
فأطرقت وعيناها تنطقان بالشكر ، وقلبها ينكر ذلك الفضل ..  
لأنها كانت تود البقاء بقرب ركن الدين ولو فى سجن ، على  
وجودها بعيدة عنه فى قصر الخليفة ..

ولم تكن سلافة تجهل ذلك ، لكنها خاطبتها بما ينتظر سماعه  
منها .. لأن شوكار لم تكن تعلم شيئاً مما دار بين حبيبيها ركن  
الدين وهذه المرأة ، ولو علمت الغرض الذى حملها على المجىء  
الى بغداد لاقشعر بدنها وكرهت النظر اليها .. تركنا سلافة  
بمصر آخر مرة وركن الدين واقف بدارها وقد أغضبها لأنه لم  
يطعها فيما أرادته منه . وأراد الخروج الى منزله وهو يشكو  
النوم فتركته واقفا ومشت بعد أن رمته بنظرة كالسهم وقالت :  
« سر فى حراسة الله .. سر الى فراشك أيها الأمير ، ولا تظن



ان فشلى هذا سوف يذهب هباء .. »  
 قالت ذلك يومئذ وقد ثارت ثقتها عليه وغيرها منه ،  
 وانقلب حبها الى بغض .. وعزمت على الانتظار ريثما يرجع الى  
 صوابه ويتحول عن حب شوكار والا عمدت الى اذاه . وما  
 زالت تبث الجواسيس لاستطلاع مقاصده حتى تأكد لها عزمه  
 على السفر الى بغداد .. فأسرت اليها لتتابع أخباره ، وترى  
 ماذا يكون من أمره .. وكانت قد سمعت بفقدان شوكار ، فلما  
 عادت ووجدتها على قيد الحياة أخذت تفكر فى حيلة أخرى ..  
 وهى تعتقد ان وجود هذه الفتاة على قيد الحياة يقف فى سبيل  
 غرضها ، وقد ذكرنا من أخلاق هذه المرأة اقدامها على عظام  
 الأمور ، بغير دهاء أو تدبير يضمن نجاحها .. اذا خطر ببالها  
 أمر أقدمت عليه بكليتها ..

فلما سمعت شكر شوكار لها وتأكدت من سلامة نيتها ، وانها  
 لا تعلم بما دار بينها وبين ركن الدين استسهلت تنفيذ بغيته .  
 فأظهرت انها مسرورة جدا بلقائها .. وخطر لها ان شوكار قد  
 تفضل البقاء فى دار الخليفة على الزواج بركن الدين ، فأجبت  
 ان تستطلع رأيها فى ذلك ، فقالت لها : « يظهر انك نسيت مصر  
 وأهلها .. صدقت .. ان المقيم فى هذه القصور وبجوار أمير  
 المؤمنين لا تخطر مصر بباله » قالت ذلك وجعلت تلاحظ ما يبدو  
 منها ، فتحيرت شوكار بماذا تجيبها . والمحب حريص على سره  
 لا يفشيهِ الا لمن يؤمن باخلاصه وصدق مودته ، وسبق الى

ذهنها ان سلافة تجبها بدليل انها سعت لها في هذه النعمة بما لها من النفوذ في تلك الدار .. فتصورت انها اذا شكت اليها حقيقة حالها ربما ساعدتها على التخلص من بغداد والرجوع الى مصر ، فترددت في الجواب وظهر التردد في عينيها . ولاحظت سلافة ذلك عليها ، فقالت لها : « ما بالك لا تتكلمين يا حبيبتى .

قولى .. يظهر انك تستحين منى أو لا تثقين بى .. »  
 فخجلت شوكار من هذا التوبيخ وقالت : « كلا ياسيدتى .. انى أقدرّ تنازلك حق قدره ، ولولا حبك لم تسعى لى في هذه السعادة .. ولكن .. » وسكتت

فقالت سلافة : « ولكن ماذا يا شوكار ؟.. ألم أقل لك انك لا تثقين بى ؟ »

قالت شوكار : « العفو ياسيدتى .. لكننى أستحى أن أقول ما فى خاطرى لئلا تضحكى منى .. »

قالت سلافة : « أضحك منك ؟ .. قولى »  
 فأطرقت وقد توردت وجنتاها ، وجعلت تتشاغل بطرف جديلتها تلفها على سبابتها ، وقالت : « ان الاقامة فى هذه القصور تشتهيها كثيرات ، وربما حسدنى عليها كثيرون ، لكننى أفضل الرجوع الى مصر »

فأظهرت السداجة والدهشة ، وقالت : « ترجعين الى مصر ؟ وماذا تركت هناك ؟ .. الا أن تكونى مخطوبة لأحد .. وحتى هذا فانك تجدين بدلا منه فى بغداد .. واذا سمع الخليفة

غناءك ومهارتك في العزف على العود .. ربما نلت نصيبا لا يتيسر  
لك مثله في مصر »

فقال شوكار بكل بساطة واخلاص : « ليست السعادة بقربى  
من الخلفاء ، ولا بالزواج من أمير أو شريف ، وإنما هى بالحب  
المتبادل » قالت ذلك ، وتدفق وجهها حياء .. فحولته الى ستارة  
معلقة بالحائط عليها صور بعض الطيور وتشاغلته بالنظر اليها  
فابتدرتها سلافة قائلة : « اذا كنت متعلقة القلب بأحد الشبان  
في مصر فاحذرى ولا تتخدعى .. قد يكون ذلك الشاب حلما علم  
بسفرك تزوج غيرك . وهبى انه تزوجك فليس أسهل على الرجال  
من الطلاق . لا تتقى بأحد منهم .. أقول لك هذا عن خبرة .. »  
فابتسمت شوكار ابتسام النصر لثقتها بحبيبها وقالت : « ان  
الشاب الذى أحبه على خلاف ما تقولين ، وأنا واثقة من ثباته  
على حبى .. وقد يأتى الى هذا البلد لانتقادى »

فضحكت سلافة باستخفاف لتحمل شوكار على التصريح بما  
في قلبها ، وهزت رأسها هزة الانكار وسكتت ، فقالت شوكار :  
« أؤكد لك ياسيدتى ان خطيبي هو كما أقول لك ، ولو عرفته  
لوافقتنى على رأيي فيه »

فأحبت سلافة أن تواصل الحديث الى آخره ، فقالت : « ما  
اسمه ؟ .. » وأخذ قلبها في الخفقان لعلمها بالجواب قبل سماعه  
فقال شوكار : « هو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى .  
ولا شك انك تعرفينه .. فهل ألام على حبه ؟ » قالت ذلك

وأبرقت عيناها ، وأكبت على يد سلافة تقبلها ، وهى تقول فى لهجة التضرع : « بالله ياسيدتى ليس فى الدنيا أحد يستطيع أن يساعدنى فى تحقيق هذه الأمنية سواك .. انت جئت بى الى هذه المدينة ، وانت وحدك تستطيعين ارجاعى الى مصر .. » وشرقت بدموعها ..

وكانت سلافة حينما سمعت اسم ركن الدين قد هاجت عواطفها وزادت نغمتها ، ويشت من النجاح فى هذا السبيل .. فأظهرت انها تشاركها فى شعورها ، وقالت : « نعم أعرف الأمير . ركن الدين وهو من خيرة الأمراء ، واذا كنت على ثقة من حبه فانى أبذل جهدى فى مساعدتك لأنى أحببتك كثيرا .. ولا هدف لى الا راحتك وسعادتك »

فلما سمعت شوكار كلامها اعتقدت صدق ما تقوله ، فاختلج قلبها فى صدرها من الفرح ، وقالت وهى تضحك : « صحيح .. صحيح ما تقولين ؟ .. ترجعيني الى مصر ؟ .. شكرا لك ياسيدتى اسرعى فى انقاذى » وهمت بتقبيل يدها فمنعتها وضمنتها الى صدرها تحببا . ولو علمت شوكار بما يمكنه ذلك الصدر نحوها لأجفلت وتراجعت .. ولكنها صدقت واعتقدت أنها ستحقق لها أمنيتها ..

أما سلافة فقالت : « يصعب انقاذك سريعا .. وهذا أول يوم لك فى قصر أمير المؤمنين ، وقد أمر باصلاح شأنك ليسمع صوتك فى هذه الليلة .. كونى مطمئنة .. انى لا أدخر وسعا فى

اجابة طلبك ، ولا بد من حيلة أدبرها لك .. «  
فأحست شوكار بارتياح كثير ، وألقت اعتمادها على سلافة..  
وشكرت الله للقائها هناك

— ٥٥ —

### الحيلة

ثم التفتت سلافة اليها بلهفة كأنها استدركت شيئاً فاتها ، أو  
انها وفقت الى رأى جديد وقالت : « اسمعى ياعزيزتى .. اذا  
لم يكن لك بد من الرجوع الى مصر فيجب أن نبدأ بالسعى من  
هذه الساعة .. أما بعد أن يسمع أمير المؤمنين صوتك ، فيصبح  
الخروج صعباً » ..

فتأكدت شوكار من غيرتها وصدق رغبتها فى انقاذها ،  
فقالته : « وما هو الرأى ياسيدتى ؟ .. انى رهينة اشارتك ،  
أفعل ما تأمرين به .. »

قالت سلافة : « أرى أن تبدئى من الآن ، فتشتكى من  
صداع فى رأسك وألم فى حلقك ، وأنا أرفع خبر ذلك الى  
القهرمانه وأقنعها بصحته .. ثم أحتال فى ثقلك الى قصر آخر ،  
أهداه الى الخليفة لأقيم فيه على مقربة من قصر التاج ، ومتى  
صرت هناك هان انقاذك .. »

فلم تتمالك شوكار عن الترامى على قدم سلافة تقبلها ،  
وقالته : «شكرا لك يامولاتى.. شكرا لك.. انى أشعر بانصداع

من الآن .. » فتناولت سلافة منديلا عصبت به رأسها ووصفت فجاءتها اقحوانة وهى تقول : « ان مولاتنا القهرمانة استبطأت شوكار ، فبعثت فى طلبها لأن أمير المؤمنين آت بعد قليل .. » فقالت سلافة : « انظرى .. انها مريضة تشكو صداعا شديدا وألما فى حلقها ، وقد تعبت فى معالجتها .. فالأحسن أن تعتذر القهرمانة الى أمير المؤمنين عن غيابها ريثما تشفى » فذهبت اقحوانة الى القهرمانة بالخبر .. فأسرعت هذه بنفسها لمشاهدة شوكار ، وهى تتوكأ على أوراكها وتقول بصوت جهورى خشن : « كيف ذلك ؟.. مولاي الخليفة سوف يأتى بعد قليل .. وقد قضى مدة طويلة فى انتظار هذه المغنية .. فكيف تمرض فى ساعة وصولها ؟ » ..

ولما وصلت الى غرفة سلافة رأت شوكار مستلقية على الأرض وهى تصيح من شدة الألم وقد تغير لونها . فلم يسعها عند رؤيتها الا الاشفاق عليها ، ونظرت الى سلافة فرأتها شديدة الاهتمام بها والحنان عليها ، فقالت لها : « أحب أن أنقل هذه المسكينة الى دار المرضى كى يعالجها الطبيب ، ثم ... » فقطعت سلافة كلامها قائلة : « لا .. لا تنقلها الى مكان .. دعينى أهتم بأمرها .. دعى ذلك الى .. » قالت ذلك وهى تهتم بتغطية شوكار وتلمس جبينها وخديها ، ثم قالت : « دعى أمرها الى .. واذا اقتضت الحال نقلها ، نقلتها الى قصرى ، لأن موقعه فى كلواذى يجعله أقرب للاستشفاء .. »

فعادت القهرمانة وهى تهيبء الأعدار للخليفة لتخلف مغنيته بعد أن وعد نفسه بها على أثر انتظاره الطويل للحصول عليها . وقبل وصولها الى غرفتها جاءها رسول الخليفة يدعواها اليه . فذهبت مهرولة الى غرفته فوجدته يعدث نفسه للذهاب الى المنطرة، وقد أخذ يلبس ثياب المنادمة . فلما وقع بصره عليها صاح بها : « أين المغنية الجديدة؟ .. وقد ظفرنا بها بعد طول الانتظار والحمد لله .. هل اختبرت صوتها؟ .. هل أسمعتك اياه؟ .. يقولون انها أرخم النساء صوتا وأتقهن صنعة .. قد آن لى أن أستريح من مهام الدولة ومتاعبها .. سامح الله أبا بكر انه سبب هذه المتاعب كلها .. » واسترسل المستعصم فى الكلام وهو واقف والخادم يساعده على لبس الغلالة ولف العمامة الصغيرة .. والقهرمانة واقفة تنتظر سكوته لتجيبه على أسئلته . فلما سكت قالت : « ان جاريتك شوكار مريضة الآن .. »

فصاح فيها : « مريضة .. اليوم رأيتها ولا بأس بها .. متى مرضت ؟ .. »

قالت القهرمانة : « كانت بخير .. لكنها أصيبت منذ ساعة بصداع شديد كاد يقتلها ؛ وقد اهتمت جاريتك سلافة بأمرها » فقطب المستعصم حاجبيه .. وكان الخادم الواقف بين يديه يناوله منطقة من الحرير ليتمنطق بها ، فتناولها ورمى بها الى الأرض .. وألقى بنفسه على المقعد كأنه يستريح من تعب ؛ وتهد وقال : « يا لله .. ما هذه المعاكسات؟ .. لقد تشاءمت من هذه

الجارية .. لأنها منذ خرجت من مصر وأمورها معقدة . ولما ظفرنا بها مرضت . وأخشى أن تكون شؤما علينا فيما نحن فيه .. « وأطرق لحظة ، ثم قال : « ليتها ظلت عند أبى بكر ، ولم نغضبه لأجلها . وهل تظنين ان مرضها يطول ؟ .. »

قالت القهرمانة : « انها تشكو صداعا شديدا وألما فى حلقها ، والأمل أن تشفى فى يومين أو بضعة أيام . واذا لم تشف فغيرها خير منها .. ان الجوارى المغنيات كثيرات فى خدمة أمير المؤمنين .. هل يأمر بتهيئة سواها ؟ .. »

قال الخليفة : « هيئى من شئت منهن .. انى فى حاجة الى الراحة بعد تعب هذا النهار .. هل علمت ماذا جرى لنا اليوم مع أبى بكر ؟ .. »

قالت : « انه غضب لذهاب شوكار من يده ، وقد أخطأ لأنه أخذها وهو يعلم انها محمولة لمولانا أمير المؤمنين .. لكنه فعل ذلك بدالة الابن على أبيه .. » وقد استرضته بهذه العبارة .. وهو انما سألها هذا السؤال ليسمع منها هذا الجواب ، لأن قلبه كان مايزال تعباً من جهة ابنه .. يتنازعه فى شأنه عاملان أحدهما النعمة عليه ، لأنه تجاوز حدوده وتعدى على حقوق أبيه .. والثانى حنانه عليه ورغبته فى ارضائه . وكان العامل الأخير أشد ظهوراً وأكثر تسلطاً على قلبه .. وهو يعلم ان تلك القهرمانة تحب أباً بكر أو هى تعرف حبه اياه ، فلا تجيب الا بما يخفف من غضبه عليه . فسألها ذلك السؤال ، ولم يكن عنده ريب فى



اطلاعها على ما جرى في جلسة ذلك اليوم ، وان كانت في دار النساء .. فانها كانت كثيرة التدخل في شئون الدولة والاطلاع على ما يدور فيها ، لأن المستعصم كثيرا ما كان يذكر ذلك بين يديها على سبيل التفاخر ؛ فأصبحت كثيرة النفوذ عنده .. شأن الدول في عهود انحطاطها

فلما سمع الخليفة قولها عن أبي بكر سرى عنه وقال :  
« صدقت .. انه فعل ذلك بدالة النبوة .. وقد جرأه عليه  
الدوادار .. وكان ينبغي لهذا أن يردعه ويقف في وجهه »  
ولم تكن القهرمانة تحب الدوادار لأنه جندي خشن  
لا يحترمها . فلما سمعت الخليفة ينتقده وافقته وقالت : « طبعا  
كان يجب على الدوادار أن يردعه .. لكن هذا يفعل ذلك بدالته  
على أمير المؤمنين لأنه قائد جنده .. لكنها دالة كاذبة .. اذ يمكن  
لأمير المؤمنين أن يبدل الدوادار بأحسن منه .. لكنه لا يبدل  
ابنه بسواه » قالت ذلك وضحكت ، اعجابا بهذا التعبير ..  
وأظهرت انها تهتم بالخروج لتهيئة جلسة الغناء ، فأجابها بضحكة  
من نوع ضحكتها وقد فهم قصدها ، وهي تعنى أن يبدل الدوادار  
بسواه وقال لها : « ابعثى الى أبي بكر ليحضر هذا المجلس  
معنا .. لنعوضه عما أسأنا به اليه .. »  
فأشارت مطيعة ، وانصرفت ..

- ٥٦ -

الامام أحمد

تركنا مؤيد الدين في منزله ، وقد بعث رسوله الى هولاءكو بعد أن يئس من الاصلاح ، على انه ظل برهة بعد ارسال الغلام وهو غارق في التفكير تتناوبه الخواطر المتضاربة بين ندم وارتياح .. لكن الارتياح كان غالبا عليه لأنه لم يقدم على مخابرة هولاءكو الا بعد تردد طويل .. قضى ذلك اليوم ، ولم يخرج من منزله ، ومضت أيام أخر وهو لا يريد أن يرى أحدا ولا أن يخاطب أحدا لعظم قلقه وفظاعة ما أقدم عليه .. وازداد قلقه لأن الخليفة لم يسأل عنه ولا دعاه اليه ، فعدّ ذلك تغيرا عليه .. ففضل البقاء في منزله كالمحاصر ريثما يرى ما يحدث ..

فأصبح ذات يوم ، واذا بطارق يطرق الباب.. فعرف من طريقته انه سبحان . وكان قد طال غيابه هذه المرة حتى شغل خاطره عليه . فلما رآه مقبلا رجب به وأشار اليه أن يجلس ، ورأى في وجهه تغيرا ، فقال : « ما وراءك يا سبحان ؟ .. أراك متغيرا ؟ .. » قال سبحان : « وأنا أراك متغيرا أيها الوزير .. ولا عجب اذا رأيت فيّ تغيرا ، واذا بقينا على رأيك فنحن متغيرون جميعا .. بل نحن منتقلون الى الدار الآخرة عن قريب » قال ذلك وتشاغل بمصّ شفته السفلى بين أسنانه ..

فعلم مؤيد الدين أن سبحان ينتقد صبره على المستعصم  
ومحافظته على ولائه الى هذا الحد ، فضحك وقال : « الانتقال  
الى الآخرة خير لنا من هذه الدنيا .. »

قال سبحان : « نعم .. ولكننا لا ينبغي أن نتنقل قبل أن  
نتنقم .. »

قال مؤيد الدين : « لك على ذلك .. »

ولم يكن سبحان ينتظر سرعة الموافقة ، فاستغرب جوابه  
وقال : « ومتى ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « بعد بضعة أيام .. »

فدهش سبحان ونهض فجأة من التأثر ، وقال : « ماذا تعنى ؟

أظنك لم تفهم مرادى .. »

قال مؤيد الدين : « كيف لا ؟ .. ألم تقصد التخلص من

أولئك القوم ولو استنجدنا عليهم بالعرباء ؟ .. »

قال سبحان : « بلى .. »

قال مؤيد الدين : « قد فعلت .. فاصبر لثرى النتيجة .. »

فالتفت سبحان حوله خوفاً من أن يسمعه أحد وقال :

« استنجدت بهولاًكو ؟ .. كتبت اليه أن يأتى .. »

قال مؤيد الدين : « لقد فعلت ذلك .. وكنت أنتظر مجيئك

قبل الآن لأخبرك وأرى رأيك .. »

فقطع سبحان كلامه ، وصاح : « وهل لى رأى غير ذلك ؟ ..

هذه هى أمييتى ، اذا تحققت فاني لست أبالى اذا أنا مت

الساعة .. وجئتك الآن بأمر جديد مهم ، لكنه لا يقف في سبيلنا»  
قال مؤيد الدين : « وما هو ؟ .. »

قال سحبان : « الأمير أحمد الذي سميناه الامام .. انت تعلم اننى بعد أن أتيت به الى هنا أرجعته الى قصر الفردوس كما كان .. وكان القوم شعروا بمقاصدنا ، أو لعلهم علموا بخروجه وارتابوا في حرس قصره ، فنقلوه الى قصر آخر .. »  
قال مؤيد الدين : « أى قصر ؟ .. »

قال سحبان : « نقلوه الى قصر قرب باب كلواذى فى الجنوب ، وأقاموا عليه الحراس وشددوا فى التضييق عليه .. »  
قال مؤيد الدين : « هو الآن فى كلواذى ؟.. ولماذا فعلوا به ذلك ؟ .. »

قال سحبان : « دعهم يفعلون ما يشاءون .. انه خليفتنا حيثما كان ، وهل يصعب علينا اخراجه من سجنه متى تم لنا ما نطلبه ؟ اذا دخل التتر بغداد وقبضوا على هذا الخليفة فأنت تكون معهم طبعاً فترشدهم الى الامام أحمد فيولونه الخلافة .. آه ما أجمل ذلك اليوم السعيد .. وأسعد منه أن نعيد دولتنا العلوية .. هذه هى أمنيتى الحقيقية .. »

فنظر مؤيد الدين اليه ، وهو يغبط فيه ذلك الأمل الواسع والثقة بالنجاح لأضعف الأسباب .. ان صاحب هذا الخلق قد يخطيء ويفشل ، لكنه أقرب الى السعادة من الرجل الحذر كثير الشكوك الذى يرى السعادة فى قبضته ويشك فى وجودها .

ولذلك استغرب مؤيد الدين سرور سحبان واطمئنانه لمجرد علمه ان مؤيد الدين وافق هولأكو على المجيء الى بغداد .. وفاته ما يعترض نجاحه من العقبات ، وانه قد عرّض نفسه بذلك الى أخطار كثيرة . ثم رفع نظره الى سحبان وقال : « نطلب الى الله أن يوفقنا في سعيينا على القوم الظالمين .. »

## - ٥٧ -

### طارق جديد

وبينما هما في ذلك ، اذ سمعا قرع الباب - وكان الباب بعيدا عن غرفة الوزير ولم يكن يهتم لسماع قرعه من قبل . أما الآن فانه لشدة قلقه أصبح لا تقوته حركة في البيت الا عرفها - فتطلع نحو الباب واذا بسلام سحبان قد دخل وعلى وجهه تغير . فقال له سحبان : « من أين أتيت يا غلام ؟ .. »  
 قال الغلام : « أتيت من المنزل ياسيدي .. »  
 قال سحبان : « ولماذا ؟ .. »  
 قال الغلام : « لأن قادمنا غريبا جاء يطلبك ، وألح عليّ في أن أوصله اليك حالا .. فجئت به لعلني اذك في دار الوزير .. »  
 قال سحبان : « من هو هذا القادم ؟ .. وأين هو ؟ .. »  
 قال الغلام : « لم يشأ أن يخبرني عن اسمه ، لكنه جاء معي وهو واقف في انتظار الاذن له .. »

فالتفت سحبان الى الوزير كأنه يستأذنه في ادخال ذلك الضيف . فقال الوزير : « أدخله .. »

فعاد الغلام ومعه رجل حسن البزة عليه ملابس السفر . ولما وقع نظر سحبان عليه صاح : « الأمير ركن الدين .. الأمير ركن الدين .. » ونهض للقيام والترحيب به ..

وكان مؤيد الدين يسمع بركن الدين ويعرف عنه كثيرا ، فاشترك مع سحبان في الترحيب به ، ونهض له وهو يقول : « مرحبا بالأمير ركن الدين » فمشى ركن الدين حتى دنا من الوزير فحيًا وحيًا سحبان ، وجلس على كرسي أحضروه له . وأخذ الوزير يرحب به قائلاً : « طالما سمعنا بالأمير ركن الدين بيبرس وأعماله في مصر .. وكنت في شوق الى رؤيته ، فمن الله على بذلك .. »

فقال ركن الدين : « ليس في ركن الدين ما يدعو الى الاعجاب لأنى لم أعمل شيئاً .. ولكن الاعجاب يجدر بالوزير مؤيد الدين ابن العلقمى القابض على زمام الدولة العباسية يدبر شئونها .. » وتصدى سحبان للكلام قائلاً : « ان الأمير ركن الدين معروف » ووجه كلامه الى الوزير قائلاً : « ألم أقل لك عن بسالة هذا البطل وما أتاه من المدهشات في محاربة الافرنج وتخليص مصر من أيديهم ؟ .. ففساه أن يساعدنا في تخليص بغداد من غير الافرنج .. » وضحك فلم يدهش مؤيد الدين من تسرعه لأنه يعرف ذلك فيه .. لكنه

تغافل .. وتغافل أيضا ركن الدين لأنه مثل مؤيد الدين تكتما وحذرا ، فخبجل سحبان من نفسه وأراد أن يغطي خجله ففتح موضوعا جديدا ، فقال لركن الدين : « متى وصلت الى بغداد أيها الأمير ؟ .. وكيف عرفت منزلى ؟ .. »

قال ركن الدين : « وصلتها في هذا الصباح . وأما منزلك فقد عرفت انه في الكاظمية ، كما أخبرتنى في مصر ، وأنا أعرف بغداد .. فصرفت من كان معى وأحببت أن أدخل البلد متنكرا ، فوصلت الكاظمية وسألت عنك فقبل لى انك عند مولانا الوزير، فجئت لأراك وأراه لأنى أعرفه بالسمع ، فطلبت الى خادمك أن يأخذنى اليك وقد فعل .. »

فقال الوزير : « لقد جئت أهلا ووطئت سهلا .. »  
وتذكر سحبان تعلق ركن الدين بشوكار وقلقه عليها ، وما خاطبه بشأنها عند سفره من مصر . فقال له : « هل تأذن أن تتكلم عن المهمة التى أنفذتنى بها من مصر ؟ .. ان لمولانا الوزير اطلاعا على شىء منها ، وهو محب لك غيور على مصلحتك .. »  
فقال ركن الدين : « أظنك تعنى شوكار .. نعم تكلم ، وقد كنت أتوقع أن تكذب اليّ بشأنها قبل الآن .. »

فخبجل سحبان ، لكنه بادر الى الاعتذار قائلا : « كان ينبغى لى أن أفعل ذلك .. ولم أتأخر عن اهمال ، لكننى جال وصولى الى بغداد لقيت شوكار فى المكان الذى كانت فيه . وأخبرتني بأنها كتبت اليك .. وقد عملت على اتقاذها فلم أوفق الى ذلك

حتى الآن ، وما الفائدة من الكتابة بلا عمل ؟ .. والوزير يعلم  
بما وقف في طريقنا من العراقيل .. »

فقال ركن الدين : « والخلصة أين هي الآن ؟ .. »

قال سحبان : « هي في قصر الخليفة منذ أيام .. »

قال ركن الدين : « وأين كانت قبل ذلك ؟ .. ومن خطفها ؟ »

قال سحبان : « كانت عند أبي بكر بن المستعصم وأبوه لا

يعلم انها عنده ، وأخذ يبحث عنها .. ثم تمكنا من اختطافها من

بيت أبي بكر وأخفيناها في منزلنا ، وهمت أن أفرّ بها اليك

فعلم بها ذلك الغلام وأخذها منا بقوة الجند . ثم علم أبوه انها

عنده فأخذها اليه .. ولذلك حديث طويل يهيك منه أن شوكار

لا تزال كما عرفتها في مصر تبذل نفسها في سبيل رضاك .. ولا

تفضل مكانا في الدنيا على قربك . ولا شك في انها في بيت

الخليفة رغم ارادتها . ولا بد من أخذها .. تمهل .. اننا في مشكل

هام سنتقلب له بغداد رأسا على عقب . وسيصل دويه الى مصر ،

والاندلس ، وسائر دول العالم . وسيكون له شأن عظيم ، وانما

يستفيد منه العاقل الحازم .. »

فخشي الوزير من وراء هذه المقدمة ، أن ييوح سحبان بما

قام به من المساعي وهو يجب كتمانها .. فتصدى للكلام ، قائلا

لركن الدين : « لا تعجب يا أمير من اضطراب حالنا ، وخليفتنا

مشتغل باستقدام المغنيات من أقاصى المملكة ، والعدو على

الأبواب لا يلبث أن يأتينا وجندنا في اختلال .. و ... »



فقطع ركن الدين كلامه قائلاً : « سمعت وأنا قرب بغداد أن هولاءكو التتري زاحف بجند كثير على هذا البلد ، وانه الآن على مقربة منها .. ألم تستعدوا له ؟ .. »

فهز الوزير رأسه وقال : « كيف لا ؟ .. بلغنا منذ أيام أن حملة من جند هولاءكو وصلت تكريت بقيادة باجو ، وعبرت دجلة الى البر الغربي ونزلت قاصدة بغداد .. واختلفت آراؤنا في الدفاع وطريقته . ولم يستقر الرأي الا بعد أن وصل جند التتر الى دجيل وعددهم نحو ٣٠٠٠٠ فارس . فأمر الخليفة بإرسال عسكره لدفعهم بقيادة مجاهد الدين ايبك الدوادار . لكن عسكرنا يا أمير في غاية القلة ، ولا ندرى ماذا تكون النتيجة .. على انى أخشى سوء العاقبة لأننا غير متفقين على رأى . وخليفتنا ضعيف مستسلم لابنه وقائد جنده ، وكلاهما على غير خبرة .. ونخشى أن يكون الله قد أراد انقضاء هذه الدولة .. و ... »

فتصدى سحبان قائلاً : « لا تخف .. بل توسل الى الله أن تنقضى . وهذا الأمير ركن الدين لا يخفى عليه شيء من أمرنا . وقد حدثته وأنا في مصر عن استرجاع خلافة الفاطميين فا .. »

فاغتاظ مؤيد الدين من تسرع سحبان ، وقال : « لا أظن ان الأمير قد وافقك على ذلك .. ونحن يكفيننا الآن أن نبذل خليفة خاملاً بأخر يعمل ؛ كما سبق الكلام »

فاستحسن ركن الدين اعتدال ابن العلقمى فى رأيه ، فقال : « هذا هو القول المعقول ، وهو هين ميسور لمن يبذل المال بدون

حرب .. وأنا أضمن لكم ذلك متى رجعت الى مصر ، وتم الاتفاق بيننا على رأى نرضاه « وهو يضمن أن يجعل ابدال الخليفة مرتباً بأن تؤول سلطنة مصر اليه .. أى أن يشترط على الخليفة الجديد قبل توليته أن يساعده فى التسلط على مصر وأدرك مؤيد الدين ما يفكر فيه ، فاستحسنه وندم على رسالته الى هولوكو وتعريض الخلافة للتتر .. لكنه ظل يعتقد ان هولوكو لايزيد على أن يخلع الخليفة المستعصم ويطلب سواه ، وهم يدلونه على الامام أحمد فقال : « سننظر فى ذلك ونرجو أن يعود بالخير »

فعاد ركن الدين الى شوكار وأخبارها ، ووجه خطابه الى سبحان وقال : « والآن .. ماذا تفعل بشوكار ؟ .. قل لى .. فقد تركت بلدى وقومى وهم فى حاجة الى ، وجئت الى هذه الديار من أجلها .. فهل أعود ولا أخذها معى ؟ .. هذا يستحيل .. » فقال سبحان : « لا بد من أخذها ، وقد قلت لك ان ذلك ميسور لما فرجو حدوثه من الانقلاب . ومع ذلك فان الخصى عابدا الذى حمل اليك رسالة شوكار ، وسلمته جوابك اليها مقيم عندى منذ أخذوا شوكار منا ، وقد أوصيته أن يتتبع أخبارها .. وكان قد جاءنى منذ يومين بخبر لم أصدقه .. » فقال ركن الدين بلهفة : « وما هو ؟ .. »

قال سبحان : « قال لى ان شوكار خرجت من قصر التاج ، ولو كانت قد خرجت لجات الينا .. فأوصيته بالأمس أن يبذل

جهنم ويدقق البحث ويعود بالخبر الصحيح .. «  
 فقال ركن الدين : « أين هو الآن ؟ .. »  
 قال سحبان : « أظنه قد عاد الى منزلنا في الكاظمية أو يعود  
 الليلة .. هل تريد الذهاب الآن للبحث عنه ؟ .. »  
 قال ركن الدين : « نعم .. هلم بنا .. ومتى فرغنا من أمر  
 شوكار نعود الى أمر الخلافة أو لعل الأمرين يتمان معا » قال  
 ذلك ووقف ، واستأذن في الانصراف .. فودعه الوزير ، وخرج  
 ومعه سحبان ..

- ٥٨ -

النتـر

وكان ركن الدين قد جاء الى بغداد في صباح ، فوجد فيها في  
 هذه المرة تغييرا كبيرا .. وسار مع سحبان على أقدامهما يطلبان  
 الكاظمية ، وهي على مسافة بعيدة من قصر الوزير .. فعبرا الجسر  
 حتى صارا في الجانب الغربي من بغداد حيث كانت البلدة التي  
 بناها المنصور منذ نيف وخمسمائة سنة .. ولم يبقَ منها الا آثار  
 قليلة ، وقد أقيم في مكانها الأسواق . وبينما هما في طريقهما  
 وركن الدين يتأمل فيما يبدو على الأبنية من مظاهر الإهمال ، اذ  
 رأيا جماعة من العامة يركضون نحو الجسر وهم في خوف شديد ،  
 عرف سحبان رجلا منهم فتاداه اليه .. فجاءه وقد غطي الوحل

قدميه الى ركبتيه كأنه كان غارقا في الماء . فسأله سحبان عن سبب هذا الركض فقال : « التتر ياسيدي .. التتر .. »

فقال سحبان : « ماذا تعنى ؟ .. أين هم ؟ .. »

فقال وهو يرتعد : « هم هنا .. هنا في بغداد .. »

فصاح سحبان فيه : « في بغداد ؟ .. وأين جندنا ؟ .. ذهبوا لمحاربتهم عند دجيل .. أين الدوادر ؟ .. ما بالكم ؟ .. قل .. تكلم »

قال الرجل : « ان هؤلاء التتر من الجان ، لا يستطيع أحد أن يقف في طريقهم .. كنت قرب دجيل يوم وصولهم اليه ، وما أن قيل لنا قد أتى التتر .. حتى دعر الناس ، وهربوا نحو المدينة بأولادهم ونسائهم في حالة يرثى لها .. حتى أن الرجل كان يقذف بنفسه في الماء خوفا من هؤلاء الناس ، وقد رأيت ملاحا لم يرض أن ينقل رجلا في سفينته من جانب الى جانب حتى أخذ منه عدة دنانير . ورأيت امرأة دفعت للملاح سوارها ، وأخرى أعطته ثوبا مزركشا ليعديّهما الى الضفة الأخرى .. ثم قالوا لنا ان جند الخليفة جاء لمحاربة أولئك الجان فسكن روعنا . لكننا ما لبثنا أن رأينا جندنا يتقهقر مدحورا أمام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمعنون فيهم قتلا وأسرا .. وأعانهم على ذلك نهر شقّوه في طول الليل ، فكثرت الوحل في طريق المنهزمين ، ولم ينج الا من رمى نفسه في الماء وأنا منهم .. » قال ذلك وأشار الى الوحل على قدميه وهو يلهث ..

وكان ركن الدين يسمع ذلك الكلام ، والغضب يرعده ... فقال



« لكننا ما لبثنا ان راينا جنودنا يتقهقروا امام التتر ، والتتر يطاردونهم ويمنون  
فيهم قتلا واسرا . واعانهم على ذلك نهر فتحوه في طول الليل . . . »

سحبان للرجل : « والدوادار .. أين هو ؟ .. »  
قال الرجل : « رجع مع بقية الجند مدحورين مكسورين ..  
ولذلك انكسرت قلوبنا .. نعوذ بالله من التتر .. يا لطيف .. »

فقال سحبان : « وكيف رأيت هؤلاء القوم ؟ .. »  
قال الرجل : « رأيتهم من الأبالسة ياسيدى .. لا يمكن لجندنا  
أن يقف أمامهم ، وإذا وقفوا أكلوهم أكلا .. أعوذ بالله . لم أر  
مثل هؤلاء الناس .. لا .. لا .. لم أر مثلهم فى حياتى . اذهب  
ياسيدى من الطريق ، لأننى أظنهم الآن على مقربة من بغداد أو  
لعلهم دخلوها . وبلغنى ان فريقا منهم نزل عند المارستان العضىدى ،  
وفريقا آخر وصل الى المبقلة تجاه الرصافة ، ولم يبق بينهم وبين  
قصور الخلفاء الا دجلة . سر ياسيدى ولا تعرض نفسك للسهام ،  
المتساقطة ، حتى سهامهم تتساقط كالطر .. لا .. لا .. لم أر مثل  
هؤلاء الناس قط » قال ذلك ومشى مسرعا

فالتفت سحبان الى ركن الدين فرآه يرتعد من الغضب ، وقد  
احمرت عيناه وقطب حاجبيه ، وود لو أن فرسه تحته ليهجم على

التتر ، فقال له سحبان : « ما بال سيدى الأمير ؟ »

قال ركن الدين : « ويلك يا سحبان .. أهكذا يكون رجال  
الخلفاء ؟ .. يهربون من وجوه التتر المتوحشين حتى يدخلوا ديارهم ،  
كم كنت أتمنى أن يكون فرسى تحتى ، أو يكون رجالى معى ،  
لأريهم كيف يكون القتال ؟ »

فضحك سحبان ، وأمسك ركن الدين بذراعيه ، وتحول به

الى زقاق ضيق ومشى وهو يقول : « ان اظهار البسالة لا يفيد لأنها ضائعة يا مولاي ، ان القوم قد ماتت نفوسهم وذهبت دولتهم وكفى ما ارتكبوه من المظالم ، ولو أراد الله النصر لهم لأنار بصائرهم وهداهم الى الطريق الصواب .. لكنهم يتخبطون في أعمالهم تخبط الأعمى لا يعلمون ماذا يعملون .. دعهم ان الله قادر على نصرتهم اذا شاء »

وبينما هما في ذلك ، اذ رأيا سهما وقع أمامهما ، وله شكل خاص لم يعهد سبحانه مثله فيما يعرفه من السهام . فالتقطه وتأمله فرأى عليه كتابه عربية فقرأها فاذا هي : « ان الرؤساء العلويين ( الشيعة ) وكل من لا يقاتلنا فهو آمن على نفسه ونسائه وأمواله » فدفن السهم الى ركن الدين ، فلما قرأه قال : « يظهر أن العلويين ينصرون التتر »

قال سبحانه : « ان العلويين مظلومون ياسيدى .. أما كفاهم بما قاسوه من الضيم والعذاب أجيالا ؟ .. فاذا كانت الغلبة للتتر وأنصفوهم فلا حرج عليهم ولا علينا » وهز كتفيه هزة التنصل من التبعة ..

فتحقق ركن الدين من ان حماسته للعباسيين لا تجدى نفعا ، ولم يعد يهتمه الا أن يعثر على شوكار .. ويخرج بها من بغداد ، ويرجع الى امارته ويسعى في الظفر بالسلطة بمصر .. ولا بد له قبل كل شيء من لقاء عابد الخصى ليسمع منه خبر شوكار ، وجعل سبحانه طريقهما في أزقة مهملة لا يتزاحم فيها الناس ،

لثلا يصادمهم الهاربون ، حتى أقبل على المارستان العضى .  
 فرأيا ضفاف دجلة وما يليها تعج عجيجا بالتر وخيولهم وخيامهم  
 وأعلامهم وأسراهم .. فوقف سحبان على مرتفع وأوماً الى ركن  
 الدين أن يتأمل أولئك القوم ، ويقابلهم بما يعرفه عن البغداديين.  
 وقال له : « أرأيت التترى وقوة بدنه وخشونة يديه ، وكيف هو  
 مشمر عن ساقيه ، وعيناه تكادان تطيران من وجهه .. ان بينه  
 هؤلاء الناس من قضى أياما وهو ساع على قدميه لا ينام الا  
 لما ولا يأكل الا القومز ( لبن الخيل ) كما كان البدوى فى صدر  
 الاسلام ، يكتفى بناقته .. يسافر عليها ويقنات بلبنها ويتفأ ظلها.  
 ويستأنس بها .. هكذا هؤلاء التتر مع أفراسهم ، وقد يعدو  
 التترى فيسبق فرسه . فأين ذلك من جند بغداد وقد تعودوا  
 الراحة والرخاء ، كما كان الروم فى صدر الاسلام .. هل نستطيع  
 ياسيدى أن نقاوم القضاء . ولكل أجل كتاب ، والله يفعل ما يشاء  
 هلم بنا الى الكاظمية لنرى عابدا ونسمع خبر شوكار »

فلم يجر ركن الدين جوابا من الدهشة التى تولته مع ميله.  
 الى معرفة خبر شوكار.. فتجاوز المارستان العضى والحربية الى  
 الكاظمية . فاختلف منظر الأهلين فى عين ركن الدين عما رآه فى  
 سائر الأحياء .. رأى أهل الكاظمية هنا مستبشرين مطمئنين ، كأن  
 فوز التتر فوز لهم .. أو كأن التتر دولة شيعية جاءت لنصرتهم .  
 ولكن الانسان يجب من يأخذ بناصره مهما بعدت الروابط  
 بينهما ، ويكره من يسلبه حقه ولو كان أخاه . مراً فى أزقة



الكاظمية وأهلها فرحون .. ولما رأوا سحبان تقدموا للسلام عليه  
وتهنته ، فرد السلام وقد استحي من التظاهر بالفرح الى هذا  
الحدين بين يدي ركن الدين

- ٥٩ -

عابد

وبعد قليل وصلا الى بيت سحبان فدخلوا وجلسا ، وسأل  
سحبان عن عابد فجاءه . وحالما رأى ركن الدين تناثر الدمع من  
عينيه وأكب على يده يقبّلها .. فاستغرب ذلك منه ، وقال : « ما  
وراءك يا عابد ؟ .. أين شوكار ؟ .. ماذا جرى لها ؟ .. »  
فتماسك الحصى وقال : « بذلت جهدى يا مولا فى سبيل  
سيدتى شوكار كما وعدتك ، ولم أفترق عنها لحظة الا فى هذه  
المرّة ، فان الجند أخذوها رغم أنفى .. لكننى أتعقب أخبارها  
كأنى معها » ..

قال ركن الدين : « وأين هى الآن ؟ .. »  
قال عابد : « آخر ما عرفته عنها انها فى قصر التاج »  
فقال ركن الدين : « هذا عرفته من أخى سحبان .. وقد  
أخبرنى انك ذهبت للبحث عنها أمس .. فماذا عرفت ؟ .. »  
فأطرق عابد وقد ارتج عليه .. فصاح ركن الدين فيه : « قل ..  
قل يا عابد .. ماذا جرى ؟ »

قال عابد : « تنكرت أمس حتى دخلت قصر التاج في جملة الخدم واجتمعت بكثير من الخصيان أصدقائي ، واستطلعتهم خبرها فاختلّفوا في الرواية . وفهمت من مجمل أحاديثهم أن شوكار يوم وصولها الى قصر التاج أصابها صدادع شديد ، ولم تستطع أن تغنّى للخليفة .. فباتت تلك الليلة عند صديقة لها من مصر اسمها سلافة .. »

فلما سمع ركن الدين اسمها ارتعدت فرائصه وصاح :  
« سلافة .. سلافة هنا ؟ .. أين سلافة ؟ .. »

قال عابد : « نعم ياسيدي ، يقولون انها كانت قيّمة قصور الملك الصالح بمصر ، ولها نفوذ عظيم في قصر التاج ، لتقربها من قهرمانه القصور وأستاذ الدار حتى الخليفة نفسه يحترمها .. »  
فأطرق ركن الدين وتذكر سعى هذه الجارية في ابعاد شوكار عنه ليخلو لها الجو معه ، وكيف كانت مقابلته الأخيرة لها وكيف هددته .. مرّ كل ذلك في ذهنه في لحظة وقلبه يخفق خوفا من أذى تلحقه بشوكار ، فنظر الى عابد وقال : « قل .. وبعد ذلك ماذا جرى ؟ »

قال عابد : « واختلف الرواة فيما جرى بعد تلك الليلة ، فقال بعضهم ان سلافة أخذت شوكار الى قصر لها قرب باب كلواذى ، وقال غيرهم انها لم تأخذها بل ظلت مخبأة في قصر التاج . وقال غيرهم غير ذلك .. » وتغيرت سحته كأنه يخفى شيئا خطر له ، فبادره ركن الدين قائلا : « قل ماذا قال غيرهم ؟ »

قال عابد : « يظن بعضهم ان شوكار اختفت .. لكنهم لا يعلمون أين هي .. ولا كيف ضاعت ؟ .. »  
 فصاح ركن الدين : « لعل سلافة قتلتها ؟ »  
 قال عابد : « لا .. لا سمح الله . والمشهور عندهم أن سلافة أحب الناس اليها وهي التي بذلت جهدها في راحتها .. فكيف تقاتلها ؟ .. على انهم لا يعرفون هل هي على قيد الحياة أو ماتت ، لكنهم يعرفون انها كانت تشكو صداعا ، واحتضنتها سلافة ثم نقلتها الى قصرها للاستشفاء ، ولا يعلمون ماذا جرى بعد ذلك ، فلعلها مقيمة عندها الى الآن بحيث لا يراها أحد »  
 فهز رأسه هزة الانكار والتفت الى سحبان كأنه يستطلع رأيه في الأمر فراه مطرقا يفكر .. وكان قد ابتعد عنهما في أثناء الحديث ، وخاطب بعض العارفين من أهله عن أخبار التتر وهو لاكو، ثم عاد فجلس وسمع بقية الحديث . ولم يكن هو مطلعا على ما بين سلافة وشوكار من التحاسد ، لكنه كان يعرف جرأة سلافة وسوء نيتها ، وقد جرب ذلك بنفسه .. فرفع بصره الى ركن الدين وقال : « ان سلافة شريرة لا تقدر العواقب فيما ترتكبه من المنكرات .. أنا أعرفها جيدا ، واذا كانت قد جاءت الى بغداد ، فوجودها في قصور الخلفاء خطر على الناس .. لأنها اذا عزمت على أمر اندفعت اليه بكليتها ، ولا يغرنك انها حاسنت شوكار أو صادقتهما .. فاذا رأت في أذاها تفعا لها لا تتأخر عن ذلك .. »

فوافق ذلك ما في خاطر ركن الدين فهاج غضبه ، وأخذ صدره يصعد ويهبط كالأسد الهائج ، ولم يتمالك عن النهوض كأنه يهم بالمسير ، فأمسكه سبحانه وقال : « ماذا تريد يا سيدي ؟ .. »

قال ركن الدين : « أريد ؟ أريد أن أبحث عن هذه اللعينة فاذا كانت قد ألحقت الأذى بشوكار أطرت رأسها عن جسدها » قال سبحانه : « تمهل .. ان الوصول إليها الآن صعب لأنها في قصور الخلافة ، ولكن هذه القصور لا تبرح أن تفتح أبوابها لكل قادم ، فنفعل ما نريد بسلافة وغيرها ، وعسى أن نوفق إلى العثور على شوكار وهي بخير .. تعال معي لأريك شيئاً جديداً سمعته الساعة ، وهو يخفف ما بك من القلق ويهون عليك الصبر .. »

وأخذ بيده وخرج به إلى مسجد بالقرب من داره ، وأصعده إلى مئذنة عالية تشرف على بغداد كلها ، وكان الجو صافياً .. ولقت نظر ركن الدين إلى شرقي بغداد حيث قصور الخلفاء وقال : « انظر إلى الرصافة التي كنا فيها منذ ساعة وفيها قصور الخلفاء وحدائقها ، ومدارسها ، وغيرها ، ووراء ذلك سورها المحيط بتلك القصور من الشرق .. ولهذا السور عدة أبواب وأبراج في جبلتها برج هائل عند الزاوية الشرقية الجنوبية هو برج العجمي ، وإذا أمعنت النظر جيداً رأيت وراءه خياماً وأعلاماً .. تلك خيام هولاءكو وأعلامه »

فأجفل ركن الدين وقال : « خيام هولوكو ؟ هولوكو وصل بجنده الى هنا ؟ .. »

قال سحبان : « وصل من الشرق وحاصر بغداد من جهته برج العجمى هذا ، وقد سمعت أن قائده باجو وجنده دخلوا بغداد من الغرب ، وهم فرقتان : احدهما معسكرة عند المارستان العضدى ، والأخرى عند المبقلة تجاه قصر التاج .. فهل بعد هذا ترجو نجاحا للمستعصم .. ؟ »

فقال ركن الدين : « لكن القوة الحقيقية على ما أعلم في شرقى بغداد حيث قصور الخلفاء ، والأمر أصعب على التتر مما تظن يا صاحبي ، ان أسوار ذلك القسم متينة وجندها قوى » قال سحبان : « سترى .. هلم بنا نزل ، وفي خاطرى أن أذهب الآن الى مؤيد الدين لأقف على رأيه فى هذه الأحوال ، لأنه داهية مدبر عاقل .. وأستشيريه فيما ينبغى أن تفعل » فنزلا وطلب سحبان من ركن الدين أن ينتظره فى المنزل ، وأوصى الخدم به ، وفيهم عابدين ، ومضى ..

- ٦٠ -

### ركن الدين وسحبان

فلما خلا ركن الدين بنفسه ، بعد ما شاهده فى بغداد من اضطراب أحوالها واختلال أمورها وما يهددها من الخطر ، جلس

وهو يفكر في مصيرها وترجح لديه ان التتر سيفوزون .. واذا انتصروا هل يقبلون الحكومة ويمحون الخلافة ، أم يقنون عليها ، أم يبدلون خليفة بآخر . وتذكر مطامعه في سلطنة مصر وهو يرجح مصيرها اليه لضعف القائمين بها هناك ، وتذكر حاجته الي مصادقة الخليفة والا فان سلطته لا تثبت .. فتمثلت له أهمية بغداد مركز الخلافة الاسلامية ، وكيف ان العالم الاسلامي على بكرة أبيه في مشارق الأرض ومغاربها لا غنى له عنها . لا يثبت السلطان على عرشه ان لم يأتيه تثبيت من خليفة بغداد ، نظرا لما للخلافة في نفوس العامة من الاحترام الديني .. ثم تأمل في حال هذه المدينة وخليفاتها كما علم في ذلك اليوم ، فاستغرب سلطان الأوهام على الناس .. واستدرك على استغرابه ان رجال السلطة لا غنى لهم عن الأوهام ليسوقوا بها تيار العامة الي حيث يريدون . ولما وصل في تصوره الي هنا أطرق ، وقد خطر له خاطر رقص له قلبه طربا رغم بئده عن المألوف . ولكن المرء اذا رغب في أمر لا يزال يفكر فيه حتى يرى المستحيل ممكنا .. خطر له بعد ما شاهده من اضطراب أحوال بغداد وما يحدث بها من الخطر لو انه ينقل الخلافة منها الي مصر ، فتصير تلك الأهمية الي مصر بدلا من بغداد ، وتصير القاهرة مركز العالم الاسلامي لا يستغنى عنها أمير أو سلطان ، وان استقل عنها بإدارة حكومته فهو في حاجة الي خليفاتها في تسيته . ولو كان المفكر في ذلك سحبان لرقص فرحا وتصور نفسه قد نقل الخلافة الي مصر ، وصار هو سلطانا يخطب رضاه

سائر السلاطين .. لكن ركن الدين كان ضعيف الثقة في المستقبل ، اذا بدا له أمل في أمر يناله .. بحث عن كل ما يمكن أن يحول دون الظفر به ، وهو أميل الى الأخذ بأسباب النشل .. فلما خطر له أمر الخلافة تصور العراقيين الكثيرة التي تحول دونه ، فعاد الى التفكير في شوكار فهاجت أشجانه ..

قضى في هذه الأفكار برهة جاءه في أثناءها عابد يدعو الى الطعام مرة والى الصلاة مرة أخرى ، وبدل ثيابه حتى دنا الأصيل فقيل له ان سبحان عاد من عند مؤيد الدين ، وبعد قليل جاء سبحان والاضطراب ظاهر على وجهه ، والغضب يتجلى في عينيه فناده ركن الدين : « ما وراءك ؟ .. هل رأيت الوزير ؟ »

قال سبحان : « لم أره .. »

قال ركن الدين : « ولماذا ؟ »

قال سبحان : « لأنه ليس في منزله وقد برحه بعد خروجنا

من عنده » ..

قال ركن الدين : « الى أين ؟ .. »

قال سبحان : « بعثه المستعصم الى هولوكو .. والظاهر أن هذا الخليفة تحقق من الخطر المحدق به ، وهو يعتقد في دهاء وزيرنا وتقله .. فأنفذه اليه ليسترضيه .. »

قال ركن الدين : « هل الى هذا الحد بلغ الضعف من

خليفتمكم ؟ .. »

فابتسم سبحان وقال : « ألم أقل لك ذلك من قبل ، وارسال

وزيرنا في هذه المهمة أحسن رأى رآه المستعصم ، لكن أخشى أن يكون قد جاء متأخرا عن أوانه - لأن هولاکو كان قد اشترط ذلك من قبل للكف عن العدوان .. وأشار به الوزير ولم يطعه المستعصم ، لأنه كان يسيء الظن به ويصدق ابنه أبا بكر وهو مغرور بنفسه - فالظاهر أن المستعصم لما رأى جند التتر محاصرا قصوره وسمع دوى المجانيق ووقوع قنابلها على القصور ، ورأى عجز جنده عن المقاومة ، لجأ الى المسألة ، وقد أحسن لأن وزيرنا - حفظه الله - له دالة على هولاکو فيشير عليه بما فيه راحة الجانبين «

فقال ركن الدين : « لم أفهم مرادك من دالة الوزير لدى التتر وما هو الباعث عليها ، هل كانت بينهما معرفة ؟ »  
قال سحبان : « لا أخفى عليك يا مولاي ان بين الوزير وهولاکو مخابرة بهذا الشأن ، أعنى ان هولاکو خابره وطلب اليه أن يكون معه ، ووعدته بكل خير .. وظل مؤيد الدين مدة يتردد وهو ينصح الخليفة ويحذره ، فلما يئس من اصلاحه خابره هولاکو خوفا من انه اذا جاء وفتح بغداد ينتقم منه ومن أهله وسائر الشيعة .. أما اذا أظهر موافقته فانه يراعى جانبه ، ولم يفعل ذلك على سبيل الخيانة .. »

ففهم ركن الدين من ذلك ان مؤيد الدين خان خليفته ، ولو تنصل من ذلك وزعم انها ليست خيانة . فقال في نفسه : « لاشك ان هذا من أكبر أدلة السقوط » . ولم يبد رأيه في



ذلك ، لكنه سأله قائلاً : « وما الذى تظن ان الوزير يفعله الآن اذا اجتمع بهولاكو ؟ »

قال سحبان : « أظنه يتفق معه على خلع المستعصم وتنصيب الامام أحمد أخى المستنصر ، فانه أجدر بنى العباس بمنصب الخلافة ، والمستعصم يخشاه .. ولذلك حبسه فى قصره ، وأقام عليه الرقباء ، فهذا الامام قد عرفناه واجتمعنا به وخاطبناه فى أمر الخلافة اذا صارت اليه فوعدنا بكل خير . ولا شك انه يسهل عليك سلطنة مصر ويساعدك عليها ، فانك أولى بها من سائر الأمراء .. »

فعلم ركن الدين أن سحبان يرغب فى القيام ضد المستعصم ، وتأيد تنصيب الأمير أحمد خليفة .. لكنه يطمع فيما هو أكثر من ذلك .. يطمع فى نقل الخلافة الى القاهرة .. غير انه لم يسمح لذلك الخاطر أن يتمكن من نفسه خوفاً من ظهوره لأحد ، فاكتفى بموافقة سحبان على تنصيب الامام أحمد بدلا من المستعصم وقال : « وأين هو الآن ؟ .. »

قال سحبان : « كان محجورا عليه فى قصر الفردوس بجوار قصر التاج ، ثم أحدقت الشكوك به فنقلوه الى قصر عند باب كلواذى وأقاموا الحرس حوله . وأنا أعرف مكانه ، ومن أسهل الأمور على إذا تم اتفاقنا على خلع المستعصم أو قتله أن أخرج الامام أحمد من سجنه وأنادى به خليفة مكانه . ولا أجد من يخالفنى لأن الناس سئموا ضعف السياسة ، ولاسيما اذا علموا

ان هذا التبديل كان بارادة الخاقان هولاكو قائد التتر .. فماذا ترى ياسيدى ؟ »

قال ركن الدين : « أراك مصيبا .. ونعم الرأى رأيك ، وفقك الله الى اتمامه » لكنه حالما سمع اسم باب كلواذى تذكر ما سمعه من عابد عن سلافة ، وانها أخذت شوكار الى قصرها قرب هذا الباب ، وعادت اليه هواجسه حول شوكار .. هل هى على قيد الحياة أو ماتت ، وهل سلافة لا تزال على كرهما لها .. فوجه سؤالاً الى سبحان قائلاً : « سمعتك تذكر باب كلواذى وسجن الامام أحمد عنده ، وأمس سمعت عابدا الخصى يذكر هذا الباب وان قصر سلافة عنده فكيف ذلك ؟ »

قال سبحان : « ان كلواذى ياسيدى حى فيه باب من أبواب سور بغداد سمي باب كلواذى ، وبقربه قصور كثيرة كما تقولون بمصر : باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح ، فقد أصبحت أسماء أحياء فيها قصور عديدة »

وقضيا بقية اليوم فى مثل ذلك .. وركن الدين أكبر همه الوصول الى شوكار ومعرفة حالها واتقادها أو الانتقام لها .. وبات وهو يحلم بها ..

— ٦١ —

رسالة هامة

وأصبح فى اليوم التالى وقد ملء الانتظار .. لكنه توسم فى

بقائه هناك خيرا ينفعه في تحقيق مطامعه السياسية ، على انه كلما فكر في شوكار خفق قلبه ورأى انه أساء اليها ، لأن ما أصابها من الأذى انما كان بسببه ، وبينما هو في ذلك اذ جاءه عابد وفي وجهه خبر ، فقال له : « ما وراءك ؟ .. »

قال عابد : « بالباب رسول من سلافة معه كتاب اليك »  
فلما سمع اسمها اقشعر بدنه ، وقال : « ليدخل »  
فدخل الغلام ودفع الكتاب الى ركن الدين وتناوله ، فاذا فيه : « من سلافة الى الأمير ركن الدين .. بلغنى انك في بغداد ، وأنا فيها .. وعندى أمر يهيك أحب أن أعرضه عليك ، فاذا شئت تفضل الى قصرى بباب كلواذى .. وهذا رسولى يهديك اليه .. والسلام »

فلما قرأ الكتاب دفعه الى سحبان كى يعرف رأيه فيه ، فحذره من الذهاب .. فقال ركن الدين : « لا بد من الذهاب لأرى هذه الدهاية وأتحقق من أمر شوكار .. وماذا عساها أن تفعل بى ؟ .. عار على أن أخاف منها وخنجرى معى ، لكن أين موقع قصرها من هنا ؟ »

قال سحبان : « هو بعيد .. لا بد للذهاب اليه من المسير مدة طويلة ثم تعبر دجلة فوق الجسر الذى جئنا منه حتى تصل الى باب كلواذى . اذا شئت المسير ، هذا فرسى بين يديك ، وهذا عابد يسير فى ركابك ، فضلا عن الرسول القادم من عندها »  
فوقف ركن الدين وقال : « اذهب الساعة » وتحول الى

غرفة نومه وأصلح هندامه وتسلح بخنجرين وتشدد . ثم خرج وركب الفرس ، وسار عابداً في ركابه والرسول يمشى بين يديه . ولاحظ في أثناء الطريق ان أهل الكاظمية فرحون مسرورون ، وقد كبرت نفوسهم وهاجت نفقتهم على جيرانهم من أهل السنة ، لأن هؤلاء كانوا يعتزون بالخليفة وحكومته ، فلما آنسوا فيهما ضعفاً ضعفت نفوسهم . ولما خرج من الكاظمية رأى الناس في وجل وشقاء وخوف شديد ، وهم يجتمعون جلوساً أو وقفاً للمداولة في الأحوال الجارية ، ويتلقفون الأخبار من أفواه المارة متناقضة متباينة ..

وصل الى الجسر وقطعه الى الرصافة ، والناس هناك أقل قلقاً لتقربهم من قصور الخلافة ، اذ لا يسمع فيها غير ما يدعو الى ثقة الناس بقوة جندها ومناعة حصونها رغم ما كان يتساقط عليها من حجارة المنجانيق حيناً بعد آخر .. فاذا سقط حجر على بيت صدعه أو على رجل قتله . وهى حجارة صوانية كروية الشكل قطر الواحد منها نصف متر أو أكثر يقذفه المنجانيق من معسكر التتر على أبراج السور ، أو على بعض القصور، وكانت الأسوار تجيب بمثها . هذه هى مدافع تلك الأيام .. ولكن الضرب على كل حال لم يكن شديداً لتوقف القتال للتداول وانتهى مسيره أخيراً الى ضفة دجلة الشرقية ، فوقف الرسول والتفت الى ركن الدين وأشار بأصبعه الى قصر على ضفة النهر تحيط به حديقة ، وحول الحديقة سور .. دخل ذلك السور

راكبا ، فتقدم الرسول لاعلان وصوله ، وترجل ركن الدين  
 وسلم زمام الفرس الى عابد ، وأوصاه أن ينتظره ويكون على  
 حذر ، ومشى في الحديقة وقلبه يخفق تطلعا الى ما يكون من  
 أمر سلافة وصورتها لا تزال في ذهنه كما فارقتها المرة الأخيرة

— ٦٢ —

### المقابلة

وبينما هو يمشى ، اذ عاد اليه الغلام وأشار اليه أن يتبعه ..  
 فلما وصل الى باب القصر رأى سلافة واقفة في انتظاره ، وقد  
 لبست أجمل ما عندها من الحلى والثياب وبذلت جهدا فيما  
 تملك به قلبه .. أما هو فقد كان مدرعا بالتعقل وحب شوكار ،  
 فحيها ، فردت التحية ورحبت به ترحيبا كثيرا ودعتة الى قاعة  
 مفروشة أحسن فرش .. فيها النمارق والستائر والطنافس ،  
 وأشارت اليه أن يجلس وهى تقول له : « من كان يظن اننا  
 سنلتقى في هذا البلد ؟ » وابتسمت

فقال ركن الدين : « ان الصدف تأتى بأعجب العجب »  
 قالت سلافة : «الصدف ؟.. هل تظن اننا التقينا هنا مصادفة؟»  
 قال ركن الدين : « نعم .. لأنه لم يخطر لى انك سوف  
 تتجيين الى هنا »

قالت سلافة : « هذا يصح من جانبك .. وأما أنا .. أنا

المسكينة الشقية فيخطر لى كل شىء .. وأبذل راحتى وحياتى فى سبيل لقاء ركن الدين . لم تخطُ خطوة فى مصر وغيرها الا عرفتها وحسبت لها حسابا » وتنهدت .. فتشأَم ركن الدين من هذه المقدمة وأراد تغيير الحديث ، فقال : « أشكرك ياسيدتى على حسن ظنك بى . وصلنى كتابك فجئت بناء على طلبك ، لكننى أتقدم اليك بسؤال .. وأرجو أن تجيبينى عليه بصراحة »

قالت سلافة : « قل ما تريد .. »

قال ركن الدين : « بلغنى ان شوكار جاءت اليك فى هذا القصر فأين هى ؟ .. » قال ذلك وهو يخشى أن يسمع خبر موتها أو قتلها ، فتجلد وهو ينتظر الجواب .. فأبطأت سلافة فى الاجابة ، وهى تنظر اليه نظر الاستغراب ثم قالت : « مسكينة .. » فصاح فيها : « مسكينة .. أين هى ؟ .. »

قالت سلافة : « ليست هنا .. لعلك تذكر انى كنت ناقمة عليها ، وقد قلت لك انى أحبت بعدها رغبة فى قربك .. لكننى شعرت هذه المرة حين لقيتها فى قصر الخليفة انها لا تستحق العذاب لسلامة قلبها وطيب عنصرها .. » وتنهدت وأظهرت سلامة النية وشدة الأسف ..

فقال ركن الدين : « قولى .. ما بالها ؟ .. أين هى ؟ .. ماذا جرى لها ؟ .. »

قالت سلافة : « قلت لك انها ليست هنا .. »

قال ركن الدين : « فهمت .. انها ليست هنا .. فأين هي ؟ ..  
قولى .. »

ف نظرت اليه نظرة العاتب وقالت : « الله انت ما أكثر تسرعك ..  
أمثلك بين الأمراء الطامع في الملك ، وقد أوشك أن يناله ، لا يصبر  
على سماع حديث قصير عن جارية ؟ اسمع لأقص عليك خبر  
هذه المسكينة . رأيتها في أول يوم جاءت فيه الى قصر التاج  
وسررت بها ، وقد ملأت قلبي وندمت على ما فرط منى في حقها  
واستأنست هي بى ، وقصت على حديثها معك ، وانها لا تود  
البقاء بعيدة عنك ، ولو كان مقامها في قصر الخليفة . فأشرت عليها  
أن تحتال بالمرض .. ونظرا لما لى من النفوذ في دار النساء وعند  
الخليفة تمكنت من اقناعهم بأنها مريضة ، وانها في حاجة الى  
تبديل الهواء ، وفي اليوم التالى انتقلت أنا الى هذا القصر وبعثت  
من يأتى بها الى ولبثت في انتظار مجيئها .. » وسكنت وأظهرت  
لأنها غصت بريقها ، فقال ركن الدين : « وبعد ذلك هل أنت ؟ »  
قالت سلافة : « لا .. لم تأت .. »

فصاح ركن الدين : « اذن ماتت أو غرقت .. أم كيف ؟ »  
قالت سلافة : « احسب كما تشاء .. انها ماتت والسلام .. »  
فنهض وقد حمى غضبه وقال : « لا .. لم تمت .. انك  
خبأتها في مكان .. »

فضحكت وهى تنظر اليه باستخفاف : « بل ماتت يا ركن  
الدين ويسوءنى انها ماتت . وقد أخبرنى النوتية الذين حملوها

الى في القارب انها غاصت في الماء رغم ارادتهم .. ارجع يا ركن الدين الى رشدك واستسلم لقضاء الله .. ولا تسلك مثلما يسلك النساء ، وتبكي على جارية .. وبين يديك سلافة تعرض عليك نفسها ، وهى الى ذلك تعرض عليك منصبا لم يحلم به أحد من سلاطين مصر .. »

فترجح له موت شوكار وهو في ريب من سبب موتها ، وان كان يرجح ان سلافة سعت فيه رغم تنصلها منه واطهارها الميل اليها .. فأسف أسفا شديدا ، وود أن يقتل سلافة انتقاما لها ، لكنه لم يتحقق من انها هى القاتلة . ومع ذلك أراد أن يعرف ما هو المنصب الذى تعرضه عليه ، فرأى من الحكمة أن يسمع حديثها الى آخره ، فقال «مسكينة شوكار.. وا أسفاه عليها ..» فقالت هى معه : « مسكينة .. لقد شق والله على موتها .. ولكن ما الحيلة ؟.. لا بد لنا من التسليم للقضاء والقدر ، والآن هل تريد أن أخبرك عما اتدبتك له ؟ .. »

قال ركن الدين : « وما هو ذلك ؟ .. »

قالت سلافة : « لنجلس ولنحدث .. » ومشت به الى القاعة فجلست ، وقد سرها انه أطاعها وأصغى اليها .. وظهر السرور على محياها وقالت : « لعلك تعرف الاضطراب المستحوذ على الدولة بسبب حصار التتر ، وهذا هولاءكو عند برج العجى ولم يصل الى هنا الا لضعف رأى الدوادار قائد الجند . وقد غضب مولانا أمير المؤمنين منه وأراد ابداله ، وحدثنى أستاذ



الدار فيمن يليق بهذا المنصب ويرجى منه أن يرد شرف الجند العباسى ويدفع العدو عن أسوار بغداد ، فلم يخطر ببالي سواك.. وان كنت لا تبرح من بالى على كل حال (وابتسمت) . أما الآن فانى لا أعرف قائدا يستطيع أن ينقذ الدولة من هذا الضيق. سواك ، وأنت اذا صرت قائد جند بغداد هان عليك أن تكون كما تشاء ، وأنا أضمن لك سلطنة مصر أو غيرها كما تريد .. بشرط أن تعترف بأنى أحبك وأتفانى فى الظفر بك ، وأن تقول لى انك تحبنى .. أو على الأقل لا تحب سواى »

فأطرق برهة واستجمع قواه .. وقد عرفناه من أصحاب المطامع طلاب المصلحة قبل كل شىء ، وانه أحب شوكار فى بادىء الأمر شفقة عليها ، ثم أحبها حقيقة بعد ما قاسته بسببه من الشقاء . وكان يود أن يجعلها سعيدة ، أما الآن وقد ماتت فليس من الرجولة أن يموت فى أثرها.. وان كان موتها قد شق عليه كثيرا ، ولم يطاوعه قلبه أن يجب التى كانت تبغضها أو التى كانت سبب موتها .. لكن ذلك لا يمنع من أن ينظر فيما تعرضه عليه ، لعل فيه ما يبلغه الأمانى التى طالما تاقت نفسه اليها وحلم بها . وقد تأكد من قرائن كثيرة ان سلافة ذات نفوذ لدى الخليفة وأهله وحكومته .. فخطر له انها قد تفيده فى تحقيق مطامعه ، فأراد مسيرتها مع الاحتفاظ بمكاته ، فقال : « لا أرى فى الكفاءة لهذا المنصب ياسيدتى ، ولا أشعر بميل للحديث عن المناصب الآن .. سننظر فى ذلك فى فرصة أخرى »

فقال سلافة : « هذا أمر لا يمكن تأجيله لأن الدولة في حرب ، وهذه قنابل المنجنيقات تصل الى قصورنا صباح مساء ، وأما كفاءتك فأنا أعلم الناس بها . لم يبق الا انه يشق عليك يا قاسى القلب أن تعترف بحبى لك .. فكيف لو طلبت اليك أن تعترف بحبك لى ؟ يا لله ما أقسى قلبك .. اسمع ، هذا أستاذ الدار قادم الى لائى لأسمع صوته بالبب يخاطب الحاجب فى الدخول ، انه آت ليرى ماذا فعلت ، هل أقنعتك بقبول القيادة .. فبالله لا تخجلنى بين يديه ، أما اعترافك بحبى لك فأتركه حتى تظفر بهذا المنصب وغيره مما ستراه منى .. »

- ٦٣ -

### فى قصر التاج

ثم دخل الخادم يستأذن لأستاذ الدار ، فخفت لاستقباله الى الباب ، وأخذت ترحب به لما تعلمه من نفوذه لدى الخليفة .. ثم دخلت به الى القاعة ، وأشارت الى ركن الدين وهى تقول : « هذا هو الأمير ركن الدين البندقارى الذى قهر الافرنج وأرجعهم عن مصر .. وقد أخبرتك عنه بما يكفى ، وأنا أباحته الآن فيما اتدبنتنى له وأشكر الظروف التى جاءت به الى بغداد » فنظر أستاذ الدار اليه وهش له ، وقد أعجبه ما فى طلعته من أدلة الشجاعة والذكاء وقال : « يسرنا أن يكون فى الأمير ركن

الدين ما يرضى مولانا أمير المؤمنين ، ويبعد عنا العار الذى سببه الدوادار السابق بسوء تديره ، هل تريد أن نذهب معا الى قصر التاج الساعة ؟ .. »

فأراد ركن الدين أن يعتذر بعدم استطاعته ، فاعتبر أستاذ الدار ذلك منه نواضا وقال : « لا .. لا تقبل منك عذرا ، هلم معى الى أمير المؤمنين » قال ذلك ومشى ، فالتفت سلافة الى ركن الدين لفته هيام ، وأمست يده بحجة الوداع وضغطت عليها وهى تقول : « سرنى النجاح فى هذه المهمة ، وعسى أن تفوز بانقاذ الدولة من الخطر .. وأما أنا فاذا مت بعد هذا ، فحسبى انك أظعتنى فى شىء عرضته عليك ، ولو لم يكن فيه غير زيادة الحرقة على قلبى .. واذا التقينا بعد الآن فسوف نرى .. » فأوشكت أن تستولى على قلبه ، لكنه لم يزد على أن حياها مودعا وانصرف فى أثر أستاذ الدار ، فركب كل منهما فرسه ومشى عابدا فى ركاب ركن الدين الى قصر التاج ..

سار ركن الدين وهو غارق فى تفكيره على أثر ما شاهده من سلافة ، وهو لا يفهم حقيقة حالها .. على انه تصرف كما ينبغى لرجل عاقل بصير .. ولم يلم نفسه لعدم انتقامه لشوكار لأنه لم يكن متأكدا من حقيقة مصيرها .. وهل تعدت سلافة أذاها ، وان كان يميل الى اتهامها بناء على سابق عهده بها .. لكنها شغلته بأمر ذلك المنصب . ثم جاء أستاذ الدار فلم يسعه الا السير معه الى الخليفة وفى نفسه ان هذا كله لا يمنع من انتقامه

لشوكار عند ما يتأكد انها هي التى قتلتها  
 قطع مسافة الطريق وهو لا ينتبه لرفيقه الراكب الى جانبه ،  
 ولا الى اشتغال القوم بأخبار التتر ، ولا سمع وقع قنابل المجانيق  
 على المنازل وان كان ذلك بعيدا عن طريقهم ، فقد يسمعه  
 من يحاول ذلك .. ولكنه حالما وصل الى قصر التاج ، وجد أهله  
 فى هرج واضطراب لكثرة ما تساقط حوله من حجارة المجانيق  
 أو النبال . ووجه التفاته الى أستاذ الدار ليقلده فيما يفعله من  
 التقاليد المعتادة .. فلما رآه تحوّل عن دابته ، تحول هو أيضا  
 وسار فى أثره حتى أقبل على باب مجلس العامة .. فلاقهما  
 الحاجب ، فأمره أستاذ الدار بالاستئذان له .. وما لبث أن جاء  
 الاذن ، فدخل والأمير ركن الدين يتبعه ..

فألقي الأستاذ التحية على جارى العادة ، ثم قال : « يأذن لى  
 مولاي أمير المؤمنين أن أقدم له الأمير ركن الدين بيبرس  
 البندقدارى . وكنت قد ذكرت اسمه لمولاي وانه خير من يقوم  
 بقيادة جند بغداد فى هذا الوقت العصيب . وقد اشتهر بمهارته فى  
 الحرب وتديير الجند كما شهدت به سلافة القهرمانة »

وكان الخليفة فى تلك الساعة مطرقا يفكر ، وليس عنده فى  
 مجلسه أحد ، كأنه التمس الانفراد للتفكير .. فلما سمع قول  
 أستاذ الدار قال : « مرحبا بالأمير ركن الدين » وأشار اليه أن  
 يجلس وقال له : « هل صحيح ما يقوله أستاذ دارنا ؟ .. »  
 قال ركن الدين : « ربما كان صحيحا بالنظر الى حسن ظنه ،

أما أنا فلا أرى في الكفاءة لهذه المهمة لأني من أحقر القواد «  
فأعجب الخليفة بتواضعه ، فقال : « بل انت قائد باسل وكلام  
القهرمانه سلافة مصدق عندي . ونحن الآن في حرب مع عدو  
غريب هو عدو كل مسلم ، لأنه اذا فاز - لا قدر الله - في حربه  
معنا لا تنجو مصر من آذاه ، فأنت مطالب بقره للدفاع عن  
الخلافة ببغداد وعن السلطنة بمصر .. وأنت فاعل ان شاء الله ،  
ولو عرفت فضلك من قبل لما سلمت قيادة جنودنا الى الدوادار  
الذى ألبسنا العار .. فعسى أن تكون وسيلة لمحو هذا العار عن  
جيش بغداد .. » قال ذلك وتحنح ، وأظهر انه لم يكمل حديثه  
بعد ، فظل ركن الدين ساكتا

ثم عاد الخليفة الى الكلام قائلا : « اظننا أخطأنا لأننا لم نصنع  
الى رأى وزيرنا مؤيد الدين من أول الأمر . فلو أظعنناه لما  
اضطررنا الى انفاذه الآن لطلب الصلح وتأجيل الحرب ، ولا  
ندرى اذا كان طلبنا يثجاب .. ولكن سامح الله أبا بكر، انه تجاوز  
حقوق الأبناء وكدر قلبى على الوزير ، فالآن انظر أيها الأمير  
انى جاعل اماره جند بغداد اليك .. فاذا دفعت به العدو كافأتك  
بما أنت أهله .. »

فأجاب ركن الدين : « ان الدفاع عن دار السلام وأمير  
المؤمنين فرض على كل مسلم ، وانى باذل روحى في هذا السبيل  
وعسى أن يوفقنى الله الى القيام بهذا الواجب »

## - ٦٤ -

شروط الصلح

وبينما هم في ذلك ، اذ دخل الحاجب وقال ان الوزير مؤيد الدين بالباب ، فأشرق وجه الخليفة وظهر التطلع في عينيه . وحالما دخل مؤيد الدين لم يصبر المستعصم عليه حتى يلقي التحية فصاح به : « قل ماذا جرى ؟ .. »

قال مؤيد الدين : « كل خير ياسيدي .. والتوفيق من عند الله .. »

قال الخليفة : « اجلس وحدثنا بما جرى .. » فجلس والعرق يكلل جبينه وأخذ في الحديث ، فقال : « لقيت خاقان التتر هولوكو ، وبينت له تعديته علينا بغير حق ، واننا لا نخشاه لكننا نحب حقن الدماء ، فأجابني بجفاء .. وبعد جدال طويل لم يقبل الكف عن الحرب الا اذا ذهب مولانا أمير المؤمنين بنفسه الى معسكره ، على شرط حفظ شرفه ومقامه .. وأن يبقى على خلافته كما فعل بمن حاربهم من الملوك ، وقد قال لى انه لا يهمة تغيير الملوك والخلفاء وانما يهمة أن لا يهان جنده . وهو يعد رفض مولانا أمير المؤمنين نجدته على الاسماعيليه اهانة لأنه كان يريد بذلك قطع دابر أولئك القوم لينجو العالم منهم . ثم حارب القوم وحده وغلبهم وبعث الى مولاى يعاتبه فلم يرد

عليه . وكنت أنا العبد قد أشرت على سيدي أن يبعث اليه بهدية فمنعه بعض خاصته من ذلك . وبعث الينا هولاء كما انه لم يعد يقبل هدية ولا يرضى الا أن يذهب اليه الوزير أو الدوادار فلم تفعل .. فعد ذلك اهانة مكررة لا يقبل ترضية عليها الا أن يركب مولانا أمير المؤمنين اليه ، ويكون هناك معززا مكرما مع رجال خاصته .. وقد أخبرني بأتنا اذا أظعناه في ذلك فهو عازم على أن يزوج ابنته من مولانا الأمير أبي بكر .. »

وكان الوزير يتكلم والعرق يتصبب من جبينه خجلا من حمل هذه الرسالة الى الخليفة . والخليفة مطرق يسمع ولا يتكلم . ولا يسدي حركة وكذلك ركن الدين . فلما فرغ مؤيد الدين من كلامه ، رفع المستعصم رأسه وتنهّد وقال : « لو اننى أصغيت الى رأيك في أول الأمر لما وصلنا الى هذه الحال .. على اننى أرجو أن نفوز على هذا التتري ونرده عن بلدنا بعد أن عهدنا بقيادة الجند الى الأمير ركن الدين .. » ولبت ينتظر جوابه

فقال الوزير: « ان ركن الدين أهل لثقة مولاي أمير المؤمنين ، وقد يأتى النصر على يده . لكننى أخشى أن يكون جندنا أضعف مما نظن ، ولا يبقى باب للصلح .. وقد عرض علينا القوم صلحا تحقن به الدماء ، ومع ذلك فالأمر لمولاي .. »

فقال الخليفة : « لكن هذا الطاغية يطلب أن أذهب أنا بنفسى الى معسكره ؟ .. »

قال الوزير : « كلا يامولاي .. لقد رضى أن يركب مولاي

بأعوانه ورجال خاصته الى قسطنطينية نصبه لهم عند باب كلواذى  
 مما يحاذى الشاطيء ، فيلاقيه هولاء هناك وينقضى الأمر »

فهان عليه القبول بعد هذا التسهيل ، لكنه التفت الى أستاذ  
 الدار واستشاره فى الأمر ، فأشار بالقبول لأنه رأى الخليفة يميل  
 الى السلم .. ذلك كان دأبه اذا استشاره الخليفة ، فيجعل نصب  
 عينيه أن يرضى احساس مولاة . فاذا رآه يميل الى رأى أشار  
 عليه به - شأن المملوكين المتزلفين فى كل زمان ومكان . وهؤلاء  
 اذا كان الأمير أو الخليفة عاقلا نبذهم ، واذا كان ضعيفا أصبحوا  
 من المقربين اليه ، فيفسدون حكومته ويعينون على سقوط دولته  
 فاستقر رأى الخليفة على قبول ما طلبه هولاء ، والتفت الى  
 ركن الدين وقال : « قد سمعت ما أشار به وزيرنا وقد طالما  
 خالفناه ولم نر فى مخالفته خيرا .. أما الآن فالرأى أن نطيعه ،  
 وعلى كل حال فاننا نعد الأمير ركن الدين من كبار قوادنا ،  
 وعسى أن نوفق الى مكافأته » والتفت الى الوزير وقال : « متى  
 نصب القسطنطينية ذهبنا اليه ، وأنت تدبر ذلك .. »

فأشار الوزير مطيعا واستأذن فى الانصراف وانفض المجلس .  
 وأوماً الوزير الى ركن الدين أن يوافيه الى منزله

فخرج ركن الدين وهو غارق فى بحار الهواجس ، وقد ساءه  
 تنازل الخليفة الى هذا الحد . لكنه ركب الى بيت مؤيد الدين  
 ليستنهم عن الحقيقة وعابد يرشده اليه ، فلما بلغه رأى مؤيد



الدين قد سبقه اليه وسحبان عنده ، وكان قد جاء للاستطلاع  
بعد علمه بخروجه الى هولاءكو

- ٦٥ -

الحقيقة

دخل ركن الدين فوجد الوزير يمشى في غرفته ذهابا وإيابا  
وقد قطب حاجبيه ، وأخذ منه التأثر مأخذا عظيما وهو يتشاغل  
بالتمشى وسحبان جالس ينتظر التفاته اليه . فلما دخل ركن الدين  
أومأ اليه مؤيدا الدين أن يجلس فجلس . ثم وقف أمامه وقال :  
« أيها الأمير قد قضى الأمر .. »

فتصدى سحبان للكلام قائلا : « وكيف قضى ؟ .. »  
فالتفت اليه وقال : « قضى كما تريد أنت ، لا كما أريد أنا ،  
ولا كما يريد الأمير ركن الدين .. »

فقال ركن الدين : « أفصح يا مولاي .. »  
قال الوزير : « لم أستطع أن أقنع هولاءكو باستبقاء الخلافة  
العباسية .. انه مصمم على زوالها »  
فصاح ركن الدين : « زوالها ؟ .. يريد أن يقتل كل بنى  
العباس ؟ .. »

قال الوزير : « هكذا ظهر لى من لهجة كلامه ، وان قال  
خلاف ذلك .. » والتفت الى سحبان فرآه يضحك فانتهره قائلا :

« أنت تضحك لأنك لا تفكر في العواقب .. اذا محيت الدولة العباسية ذهب الاسلام من هذه الديار »  
 فقال سحبان : « ولماذا ؟ .. نحن نعيد الخلافة العباسية .. »  
 فصاح فيه : « انك رجل أوهام وأباطيل .. اذا كنت ترجو ارجاع الدولة الفاطمية فانك ترجو المحال وتطلب اقامة الأموات »  
 والتفت الى ركن الدين ، فرآه ينظر اليه يراقب حركاته ويوافق على كل حركة منها بعلامحه وعينه .. فلما التفت اليه ، نظر الى سحبان وقال : « قد أصاب الوزير في قوله .. انه رجل عاقل مدبّر .. وكم سمعتك تذكر أمر الفاطميين ، فهل سمعت منى موافقة على ذلك ؟ .. »

قال الوزير : « كنت اذا ذكرتهم سكت »  
 قال ركن الدين : « ان سكوتي يكفى .. واذا كان هذا الطاغية ينوى حقيقة ابادة العباسيين كافة ، فانه يحدث كسرا في الاسلام يصعب جبره » ثم وجّه كلامه الى الوزير وقال : « لكنك قلت للخليفة ان هولاءكو ينوى استبقاءه »

قال الوزير : « هذا ما قاله لى هولاءكو .. لكننى لا أصدقه وقد فهمت من خلال كلامه وقرأت في عينيه ما ذكرته لكم ، ويؤيد ذلك انه أعطانى رايات عليها علامته ، وأوصانى أن أنصبها على أبواب المنازل التى أريد حمايتها من الأذى أو على الطرق المؤدية الى منازل الشيعة .. فاذا رآها رجاله عرفوها وكثفوا عن الأذى .. ألا يدل هذا على عزمه الذى ذكرته لكم ، وعلى كل حال

لا بأس من الاحتياط للمخاطر « قال ذلك وتحول الى ناحية من الغرفة أخرج منها راية صفراء عليها صورة خنجر أحمر ، ودفعها الى ركن الدين وقال : « خذ هذه .. لعلك تحتاج اليها » ودفع رايات أخرى الى سبحان وقال له : « خذ هذه الرايات اغرسها فى مداخل أحياء قومنا فى الكرخ والكاظمية .. افعل ذلك بلباقة لئلا يشعر بك أحد .. »

فتناول ركن الدين رايته وخبأها تحت ثيابه ، وقد شق عليه الالتجاء الى هذه الراية للنجاة من السيف ، وهو قائد باسل تعود دفع الأذى عن نفسه وقومه بالسيف البتار .. لكنه أيضا حكيم عاقل ، يلبس لكل حالة لبوسها

أما سبحان، فانه مكث صامتا بعد ما سمعه من الاتتهار الصريح وقد استولى عليه اليأس .. لكنه ما لبث أن رضى بما حدث ، ورأى ذلك فوزا عظيما للشيعه . ونظر الى ركن الدين وسأله عما فعله عند سلافة ، فاختصر فى الاجابة عليه ، لأنه شعر أنه بإزاء أمر مهم ينبغى له أن يسرع فى تدبره .. فاستأذن فى الانصراف

خرج من بيت مؤيد الدين وفكره تائه ، فتقدم عابدا اليه بالجواد فركبه وهو لا يقصد مكانا خاصا . ثم خطر له أن يتجه الى منزل سلافة لأنه لا يزال يرجو أن تكون شوكار على قيد الحياة ، والا فلا يليق به الخروج من بغداد قبل أن ينتقم لها . قضى مسافة الطريق وهو يردد ما سمعه من مؤيد الدين من عزم

هولاًكو على ابادة العباسيين .. ففكر في الأمر من ناحية مصلحته الشخصية كما يفعل كل انسان في كل زمان .. ان ما يدور على أقلام الكتاب من أسماء الفضائل السامية ، كالأريحية ، والنجدة ، والاتحاد ، والشجاعة ، والاحسان ، وغيرها ليست في الغالب الا أسماء مختلفة تدور حول معنى واحد .. هو «المصلحة الشخصية» فمن أراد أن يستنهض هم جماعة لعمل – وان كان هذا العمل بنفسه فضيلة – فانه لا يلقي مجيباً ، ان لم يكن في ذلك العمل نفع عائد على كل منهم

فكر ركن الدين في مطامعه الراسخة في قلبه .. ومحورها طلب السلطة على مصر . فرأى لذهاب الخلافة العباسية علاقة كبيرة بها .. وأعمل فكره للاستفادة من تلك الأحوال ، فعاوده الخاطر الذى كان قد مرّ في ذهنه بالأمس ولم يجسر أن يتشبت به كثيراً لبعده .. نعى أن يجعل مصر عاصمة الخلافة العباسية بحيث لا يستغنى عنها سلطان ولا أمير . وحالماً مرّ ذلك في خاطره أحس بارتياح ، وتذكر الامام أحمد وما سمعه عنه من اللياقة لهذا المنصب ، وانه محبوس قرب باب كلوازى . فرأى أن يقابله ويسعى في اتقاده ، فاذا فتك هولاًكو بسائر بنى العباس احتفظ هو بهذا الامام .. ومتى صار هو سلطاناً على مصر جعله خليفة فيها ، فلما تصور ذلك رقص قلبه من الفرح

استقبال حار

قطع الطريق الى باب كلواذى ، وهو غارق فى هذه الهواجس .  
ولم ينتبه الا والناس فى ازدحام وهرج عند ذلك الباب ، وقد  
أخذوا فى نصب القسطاط للخليفة ، فعاد الى تذكر الخليفة وما  
علمه من مصيره وتذكر الامام أحمد لعلمه انه مسجون قرب باب  
كلواذى ، فنادى عابدا فدنا منه فقال له : « يقولون ان الأمير  
أحمد عم الخليفة مسجون فى قصر بهذه الجهات ، فهل تعرف  
مكانه ؟ .. »

قال عابد : « أظنه فى هذا القصر » وأشار بأصبعه الى قصر  
.خلف قصر سلافة ..

قال ركن الدين : « هل تعرف أحدا من خدمه أو حرسه ؟ »  
قال عابد : « كلا يامولاي لأنه نقل الى هنا من عهد قريب ،  
وإذا شئت أن أبحث عن ذلك فعلت .. هل تريد الذهاب اليه  
الآن ؟ .. »

قال ركن الدين : « أريد الآن أن أعود الى سلافة ، وأبذل  
جهدى فى استطلاع خبر شوكار لأننى على أهبة السفر .. كن  
على استعداد يا عابد . هل تسافر معى الى مصر ؟ »  
فبادر الى الجواب بامتنان : « ذلك شرف كبير لى يا مولاي .. »

ولكن شوكار .. ماذا تفعل بها ؟ .. هل تذهب بدونها ؟  
 فآثر سؤاله في نفس ركن الدين تأثيرا شديدا .. وكان أولى به  
 أن يسأل نفسه هذا السؤال ، فقال وهو يستمهل الفرس في  
 المسير : « آه يا عابد ان سؤالك هذا دلنى على غيرتك وصدق  
 خدمتك .. صدقت كيف أتى بغداد لأجل شوكار وارجع بخفى  
 حين ؟ هذا لا يكون .. أنا سائر الآن الى سلافة اللعينة ، ولا بد  
 لى من أن أتأكد من خبر شوكار ، وعند ذلك أفعل ما تقضى به  
 المروعة والوفاء » ..

وكان ركن الدين يسير على جواده الهوينى على ضفة النهر  
 وعابد يماشيه ، فوصل الفرس الى عشب استهواه .. فوقف  
 ليتناول منه شيئا . وكان قد فرغ من كلامه فقال له عابد : « أنظر  
 يامولاي .. لا يليق بى أن أحذرک أو ألفت ابتهاك ، لكننى  
 أستأذنك فى هذا الأمر .. بلغنى عن سلافة هذه انها من أشرف  
 النساء وأدها من حتى ان الخليفة لايرد لها طلبا ، وأنت ستكون  
 وحيدا فى قصرها فاحذر أن تغدر بك أو تستعين عليك ببعض  
 الأشيياء خلسة » ..

فأتى ركن الدين على غيرته وقال : « لا تخف على يا عابد  
 لكننى أوصيك بالانتظار فى الحديقة قريبا من القصر ، فاذا  
 لاحظت مكيدة أو شيئا فنبهنى اليه بالنداء على أحد الملاحين  
 المارين على هذا النهر ، اجعل نفسك كأنك تنادى نوتيا أو شك أن  
 يفرق فتحذره من الغرق ، وأنا حالما أسمع صوتك أفهم المراد ..

وعلى كل حال لا تفارق الجواد وليكن مهياً للركوب «  
فأجابه مطيعاً ودخلا الحديقة ، وأسرع الحارس في إيصال خبره  
الى سلافة فهرولت لاستقباله ، وقد بدلت ثوبها بثوب أجمل منه  
وتلقته بالترحاب ودخلت به الى القاعة وهي تقول له : « أرجو  
أن تكون قد نجحت في مهمتك .. »

فقال ركن الدين : « وأية مهمة ؟ »

قالت سلافة : « ألم تذهب في هذا الصباح مع أستاذ الدار  
على أن تلقى أمير المؤمنين ليوليك قيادة الجند ؟ .. فهل تم الاتفاق  
على ذلك ؟ » ..

قال ركن الدين : « لم يتم شيء من هذا القبيل ، والظاهر  
لأنه لم يبلغك الاتفاق الذي أبرم بين هولاکو والخليفة »  
قالت سلافة : « لا .. ماذا جرى ؟ .. »

قال ركن الدين : « بعث الخليفة وزيره مؤيد الدين الى  
هولاکو للتداول في شأن إيقاف العدو ولو مؤقتاً .. فعاد الوزير  
ونحن عند الخليفة وأبلغه انهم اتفقوا مع هولاکو على أن يخرج  
الخليفة بنفسه اليه على سبيل الترضية الى باب كلواذى . واذ  
أطلت من هذه النافذة رأيت الفرائسين ينصبون الفسطاط الذي  
سيأتى المستعصم للقاء هولاکو فيه .. وهذا الاتفاق يمنع حدوث  
حرب ، ولم تبق حاجة الى دوا دار ريشا فرى ماذا يكون .. »  
فلما سمعت كلامه نهضت الى النافذة وتطلعت الى الطريق عن  
بعد ، فرأت الفسطاط يوشك أن يتم نصبه فصفتت ولطمت

خدها وقالت : « ويلاه .. وا ذلاه .. أمير المؤمنين يخرج من قصره ليلقى عدوه على سبيل الترضية ؟ .. فقل على الخلافة وأصحابها السلام »

قالت ذلك وظهر التفكير في عينيها ، وركن الدين صابر ، فاذا هى تقول له : « لم يبق لنا وطر في هذا البلد ولا فائدة من الإقامة فيه .. هلم بنا .. وهذه أموالى وجواهرى وكل ما أملك بين يديك .. هلم بنا »

فقال ركن الدين : « الى أين ؟ »

قالت سلافة : « الى مصر .. »

قال ركن الدين : « نذهب الى مصر وحدنا ؟ »

قالت سلافة : « خذ من شئت من الأتباع والأعوان .. »

فنظر اليها باهتمام وقال : « وشوكار ؟ »

قالت سلافة : « ألم أقل لك عن مصيرها يا ركن الدين ؟ »

قال ركن الدين : « لا أفهم ما تقولين .. جئت من مصر الى

بغداد للبحث عن شوكار .. لذلك لن أرجع بدونها .. »

فهزئت رأسها هزة الاستغراب وابتسمت وقالت بلطف : « ماذا

أعمل يا سيدى ؟ .. من أين آتى بشوكار وقد قلت لك انها غرقت

وأصبحت طعاما للأسماك .. »

فأجابها ببرود : « لا .. لم تمت .. لا بد انها موجودة فى مكان

ما .. ابخى عنها لملك تجدينها ، فانى لن أذهب الى مصر الا

وهى معى .. » ..



فزاد استغرابها وقالت : « ماذا تعنى ؟ .. أظنك تمزح .. أقول لك ان شوكار غرقت فى دجلة ، وأنت تقول لن أذهب الى مصر بدونها .. ألا يدل ذلك على المزاح ؟ »  
قال ركن الدين : « كلا .. انى أقول الجد .. قلبى يحدثنى أن شوكار على قيد الحياة .. »

فأمسكت بيده وهى تقول : « اذا كنت لم تصدق تعال لأريك برهانا يقنعك وتتأكد من صدق قولى .. »  
فمشى معها فمّرت فى دهليز الى غرفة تشرف على دجلة ، وتقدمت الى خزانة فى الحائط فتحتها وأخرجت صرة أخرجت منها خصلة كبيرة من الشعر ، وقدمتها اليه فجالما وقع نظره عليها عرف انها شعر شوكار فاقشعر بدنه وارتعدت فرائصه وصاح :  
« ما هذا ؟ » ..

قالت سلافة : « أليس هذا شعر المسكينة المأسوف على شبابها شوكار ؟ » ..

قال ركن الدين : « بلى .. ومن أين أتاك ؟ »  
قالت سلافة : « جاءنى به الملاحون الذين أرسلتهم الى قصر التاج ليأتونى بها الى هنا لأجل الاستشفاء ، فجاءونى بهذا الشعر وقالوا ان السفينة انقلبت بهم فى هذا المكان ( وأشارت الى نقطة فى الماء تحت القصر ) وانهم حاولوا اخراجها فأمسكوا بشبابها وشعرها فغرقت وتقطع شعرها وظل فى أيديهم كما ترى .. »  
فأصبح صدر ركن الدين يعلو ويهبط وهو يغلى كالمرجل من

الغيظ ، وأطرق يفكر فيما يفعله .. وأوشك أن يتأكد من اشتراك سلافة في قتل شوكار ، فظنت أن يأسه من وجود شوكار هون عليه الرضا بها ، فوضعت يدها على كتفه تلطفاً وابتسمت وهي تقول : « أظنك صدقتني الآن .. آه يا ركن الدين لو تعلم ما لك في قلبي من الحب الشديد .. لقد آن لك أن تدرك ذلك وترجع الى رشدك وتعتقد اني أتفاني في سبيل مرضاتك ، فقد رأيت اني بذلت وسعى في أن أجعلك دوا دارا عند الخليفة فتكون أعظم قائد في الاسلام .. ولا يغضبك ان ذلك لم يتم ، فاني قد هيات لك سلطنة مصر ومهدت سبيلها ، ولم يبق الا أن تصل الى القاهرة وتقبض على صولجانها .. »

## - ٦٧ -

### شجرة الدر وعز الدين

فوقع لفظ سلطنة مصر على قلبه وقعا جميلا لأنه أقصى ما يتمناه ويحلم به ، فخفف شيئا من غيظه ومال بكليته الى استطلاع حقيقة ما تقوله ، فظل ساكنا وهي تراقبه بنظرها .. فلما رأت سكوته أمسكت بيده ومشت الى شرفة في تلك العرفة تطل على دجلة ، وأومأت اليه أن يجلس على وسادة هناك ، وجلست هي بجانبه ، والماء يجري أمامهما ، وركن الدين لا يرى شيئا لشدة ما جاش في خاطره .. فجلس جلوس المتحفظ ، وأدركت انه يتوق

لمعرفة تفصيل ما ذكرته

فقالت سلافة : « أظنك تحب أن تطلع على تفاصيل خبر سلطنة مصر ، والذي فعلته في سبيل اعدادها لركن الدين .. آه لو تشعر يا قاسى القلب بمقدار حبى .. يا ليتك تشعر .. ولكنك ستشعر متى علمت بما ارتكبته من الأمور العظام في سبيل مرضاتك .. »

وتحنجت ووضعت ضفيرة الشعر الى جانبها استعدادا للحديث ، ثم قالت : « فارقت القاهرة وأنت تعتقد أن الملك الأشرف سلطان عليها وعز الدين أيبك أتابك له »  
فهز رأسه أن : « نعم »

فضحكت وقالت : « ذهب هؤلاء جميعا وذهبت شجرة الدر معهم .. »

قال ركن الدين : « الى أين ؟ .. »

قالت سلافة : « الى الموت .. »

فأجفل وقال : « كيف ماتوا ؟ .. انك تكذبين .. »

قالت سلافة : « ساعحك الله على هذه التهمة .. أنا لا أكذب الا اذا كان ذلك في سبيل مرضاتك . نعم ، قد ارتكبت في هذا السبيل ما هو أفظع من الكذب .. ارتكبت القتل والخيانة في سبيل ركن الدين وهو لا يزال يضمن على بكلمة أو لفتة .. »  
قالت ذلك وغصت بريقها وتلالأ الدمع في عينيها ، فتأثر ركن الدين من منظرها لكنه تجلد ليمسح ببقية الحديث ..

فقلت سلافة : « انك تركت عز الدين أتابكا للملك الأشرف وقد رضى بذلك وشجرة الدر ساكنة قانعة بالسلامة ، ولو بقى الحال على ذلك لم يبق سبيل الى ركن الدين لنيل السلطة . وهب انه نالها فهو لا يكون سلطانا بل أتابكا والسلطان من بنى أيوب . وأنا أريد أن يكون ركن الدين سلطانا كما وعدته .. أتدرى ماذا فعلت ؟ .. »

فتناول لسماع الحديث فقالت : « أظنك تعلم منزلتي عند عز الدين ومقدار انصياعه اليّ لأنى كنت السبب فى ظفـره بذلك المنصب بعد خلع شجرة الدر . أنا خلعت شجرة الدر ونصبت عز الدين ، وأنا جعلت القوم يختارون سلطانا أيوبيا ففعلوا ، وصار عز الدين أتابكا .. فعلت ذلك تمهيدا لك يا قاسى القلب . وقد ذكرت لك عملى هذا ونحن فى القاهرة فلم تعبأ بقولى . وأوشكت أن أنقلب عليك وأنتقم منك .. لكن قلبى لم يطاوعنى ، فظلمت على حسن ظنى بك والقيام على خدمتك ، فأغريت عز الدين أولا على الملك الأشرف فألقاه فى سجن مظلم مات فيه أو سوف يموت قريبا . وقبض عز الدين على السلطنة بيده ولم ينازعه أحد فى ذلك . فأصبحت سلطنة مصر لا يشترط فيها أن يكون سلطانها من الأيوبيين . بقى علتى أن أتخلص من عز الدين ليخلو الجو لركن الدين ويكون هو السلطان .. وأنا أعلم ان لعز الدين أعوانا أشداء ولا يسهل قتله ، فأغريت به امرأته شجرة الدر . وكان قد تزوج بها فـدسست بواسطة بعض الجوارى من

أبلغ شجرة الدر أن عز الدين لا يجبها وانه عازم على الزواج بابنة بدر الدين لولو صاحب الموصل . وشغلت عز الدين عن زيارتها مدة فتحققت من الاشاعة .. وأنت تعلم غلظ قلب هذه المرأة فاشتدت بها غيرتها حتى أغرت بعض الخدم وأوصتهم اذا دخل عز الدين الحمام أن يقتلوه خنقا فقتلوه ، وقالوا أنه أغمى عليه في الحمام فأخرجوه ، وأشاعت انه مات مصروعا (١) «

فصاح ركن الدين : « مات عز الدين ؟ »

قالت سلافة : « مات وشبع موتا .. ومات أيضا شجرة الدر»

فقال ركن الدين : « وشجرة الدر أيضا ماتت ؟ وكيف

ذلك ؟ » قال ذلك وقد غلبته الدهشة

قالت سلافة : «لما توفي عز الدين بايع القوم ابنه نور الدين على ، وكنت قد ربيته وهو يصغى لقولى . فلما تولى أنبأته بأن شجرة الدر هى التى قتلت أباه وحرضته على الانتقام له ، فأوعز الى نساء بيته فأماتوها ضربا بالقباقيب على رأسها . وطحروا جثتها فى خندق القلعة ، فأكلت الكلاب نصفها ، ودفن النصف الباقي فى مدفن السيدة نفيسة «

فبغت ركن الدين لذلك الحديث وقال : « أنت كنت السبب

فى ذلك كله ؟ » ..

قالت سلافة : « نعم .. أنا السبب فى ذلك . وقد ارتكبت

هذه الأمور فى سبيل مرضاتك ، فأنت الآن اذا نزلت مصر لاتجد

من يقاومك ، وهذا نور الدين على في قبضة يدي ، اذا شئت  
قتلته أيضا فتكون أنت سلطان مصر .. »

فأدهشته تلك الفظاعة من امرأة ، وخيّل له انه قبض على  
السلطة بيده فاختلج قلبه في صدره .. وأطرق لحظة يفكر ، فوقع  
نظره على خصلة الشعر بجانب سلافة ، فعادت صورة شوكار  
الى ذهنه ، وتذكر ان شجرة الدر كانت السبب في خطبتها ، وان  
هذه المرأة الخائنة اعترفت بأنها كانت السبب في قتل كثيرين ،  
وترجّح لديه انها قتلت شوكار أيضا .. وماذا يمنعها أن تقتله  
اذا خامرها شك في صداقته ، أو اذا يئست منه ؟ فتحير في أمره  
معها . فلما رآته ساكتا قالت : « أرايت ماذا ارتكبت في سبيل  
حبك يا قاسي القلب ؟ .. وأنت تحاسبني الآن على جارية يمكنك  
أن تبتاع أحسن منها بمائة دينار .. دع عنك الجفاء ، ولننس  
الماضي ونذهب الى مصر ، وعلّى اتمام سعادتك .. وهذه أموالى  
بين يديك » ..

فمرّ بخاطره انه اذا أطاعها صار سلطانا وتحققت أمنيته التي طالما  
شغلت خاطره وتمناها قلبه .. لكنه ما لبث أن أنكر ذلك على  
نفسه ، وتمثلت له شوكار وما أصابها بسببه .. فنهض رغم  
ارادته ، فنهضت سلافة معه وهي تحسبه قد اقتنع بأقوالها ، فمد  
يده الى خصلة الشعر وتناولها وجعل يتفرد فيها ، فقالت سلافة  
وهي تداعبه : « أظنك تأسف على صاحبة هذا الشعر ، ولكن  
ما لك وله ، وهذا شعر امرأة على قيد الحياة تخاطبك وتتمنى

رضاك » وأشارت الى خصلة من شعرها مرسله على كنفها  
فقال ركن الدين : « وشوكار .. هل ماتت ؟ »  
فقهقهت وقالت : « ألم أقل لك انها ماتت ؟ »  
قال ركن الدين : « قلت لى ذلك تقلا عن الملاحين .. وقد  
يكونون كاذبين ؟ » ..  
قالت سلافة : « بل هم صادقون ، ولماذا يكذبون ؟ »  
قال ركن الدين : « قد يكون لهم غرض .. »  
ف نظرت اليه نظرة هيام وقد احمرت عيناها من فرط ما جاش في  
خاطرها من أمره ، ثم قالت : « لقد أخرجتني يا ركن الدين  
لأؤكد لك موت هذه الجارية .. انها ماتت .. وأنا دبرت قتلها  
وقد فعلت ذلك أيضا في سبيل الحصول عليك ، لتلا يكون  
وجودها حائلا بينى وبينك ، وهى تنمة الفطائع التى ارتكبتها  
من أجلك .. »

فلما سمع اقرارها لم يعد يستطيع التجلد والاعضاء . ونظر  
الى ما حوله فلم يجد من يخشى بأسه اذا تظاهر بالعدوان ،  
ولاحت منه التفاتة فرأى عابدا فى الحديقة يشير اليه بيده أن  
يقتلها . فقال فى نفسه : « لأمر ما يلح على هذا الغلام بقتلها »  
فاستل خنجره وطعنها فى قلبها طعنتين فسقطت على الأرض  
لا تبدى حراكا .. وأعمد خنجره ، وأخذ صرة الشعر بيده ،  
وتحوّل الى الباب فخرج منه .. ولم يجد فى البيت أحدا يعترضه

- ٦٨ -

قصر الامام أحمد

ولما صار خارج الباب استقبله عابد والذي معه ، وأوماً اليه  
 أن يركب وهو يقول : « لا شئت يمينك .. قد اتقمت لسيدتى  
 شوكار ، اركب ياسيدى وهلم بنا »  
 فركب وخرج من الحديقة واذا هي خالية ليس فيها أحد من  
 الناس ، فلما صار خارج الحديقة قال لعابد : « لماذا تعجلت  
 قتلها ؟ » ..

قال عابد : « لأنى تيقنت من بعض الخدم انها هي التى  
 تعمدت قتل سيدتى شوكار .. فشنعت من كان هنا من الخدم  
 بالذهاب الى باب كلواذى لمشاهدة الخليفة قادم الى الفسطاط  
 الذى نصبوه له ، فمضوا .. وخشيت ان تقنعك تلك الخبيثة  
 بأنها بريئة ، فتؤجل قتلها »

فقال ركن الدين : « بورك فيك من صادق أمين .. صدقت  
 انها قتلتها ، واعترفت لى بفظاعتها .. وأما انت فكيف عرفت  
 انها تعمدت قتلها ؟ .. »

قال عابد : « اغتتمت فرصة انفرادى ببعض خدمها وتحديث  
 فى شئون عديدة ، وقصصت عليهم فظائع زعمت انى ارتكبتها  
 بايعاز مولاي بين قتل ونهب واغراق .. وكنت أقول هذا مفتخرا ،  
 فتحركت غيرة أحدهم وقص على كيف كلفته سلافة مع رفيق



له ان يأتيًا بشوكار من قصر التاج الى هذا القصر ، وانها أوعزت اليه سرا أن يجعل المسير ليلا ، وأن يفتتم فرصة يَحْتال فيها بالقاء الفتاة في دجلة ، وقال انه لم يستطع ذلك الا قبيل وصوله الى قصرها ، لأن قاربا آخر كان في أكثر الطريق قريبا من قاربهم لا يعرفون من فيه.. فاغتتم فرصة قص فيها شعرها بخفة ، وربما في دجلة وذهب بالشعر الى سيدته للتدليل على تنفيذ أمرها .. فسألته اذا كان قد رآها تعرق ، فقال انه لم يستطع ان يراها لشدة الظلام ، لكنه لا يرتاب في انها شبت غرقا ..

فاطمآن ركن الدين عند سماع هذا الحديث لأنه رأى سلافة تستحق القتل وقال في نفسه : « ألا يمكن أن تكون شوكار قد نجت بقضاء الله .. » ولم يذكر ذلك أمام عابد ، لكنه استحثه في سرعة الوصول الى سجن الامام أحمد

فساق فرسه وقد أوشكت الشمس أن تغيب ، واذا بجند هولاءكو يركضون من جهة برج العجمى نحو باب كلواذى ، والناس يفرون من بين أيديهم ، فتحوّل عابد بالفرس نحو الطريق المؤدى الى سجن الأمير أحمد ، وركن الدين يفكر في سلافة من جهة ، وفي مصير الخليفة وأهله من جهة أخرى ، فأراد أن يلقى نظرة على بغداد في نور الشفق عند الغروب .. فصعد الى مرتفع يطل على باب كلواذى ، وما يجاوره الى برج العجمى ، فرأى التتر زاحفين نحو المدينة وتحوّلت شردمة منهم نحو قصر سلافة وتسلقوا أسواره ، فالتفت عابد الى ركن الدين وقال :

« هل ترى ياسيدى ؟ » وأشار بيده الى القصر  
فقال ركن الدين : « أرى القوم يهجمون يريدون النهب ،  
ولا أظنهم يجدون من يردهم .. سيجدون سلافة مزرجة في  
دمها ، وأظنهم يشتركون مع خدمها في النهب والقتل . تلك نهاية  
القوم الظالمين .. كم كنت أحب أن أطلع على ما يجرى في بغداد  
غدا .. هيا بنا الى الأمير أحمد » وحوّل شكيمة جواده  
وقبل الوصول الى قصره رأوا الحراس وقوا بالباب فتقدم  
عابد وسأل عن الأمير أحمد : « هل الأمير هناك ؟ » فأجابه  
الحارس : « نعم .. لكنه مشغول .. »  
قال عابد : « بماذا ؟ »  
قال الحارس : « عنده زائر يتحدث معه .. »  
قال عابد : « استأذن لنا في الدخول عليه .. »  
قال الحارس : « لا أظنه يأذن لأحد .. لأن أمير المؤمنين يمنع  
الناس من مخاطبته »  
فقال عابد : « نحن غرباء وقد أمسى علينا المساء قبل دخول  
المدينة ونطلب المبيت الى الغد .. »  
فقال الحارس : « لا بد من الاستئذان .. »  
قال عابد : « افعل .. »  
فقال الحارس : « وماذا أقول له ؟ .. »  
قال عابد : « قل له اننا من مصر نطلب المبيت الليلة .. »  
فذهب الحاجب وطال غيابه وركن الدين لا يزال على جواده ،

وعابد واقف ، وبعد برهة سمعا وقع أقدام الحاجب ، ثم وصل  
ومعه رجل آخر تقدم وتفرّس في ركن الدين وصاح : « الأمير  
ركن الدين ، تفضل يا مولاي .. »

فعرف ركن الدين من صوته انه سحبان ، فقال : « سحبان؟ »  
وترجل ودخل مع سحبان الى دهليز نوره ضعيف لا يسمع فيه  
صوت ، وقد استولى الهدوء على المكان كأنه مقر الأموات  
فتهيب ركن الدين وتوقع أن يبدأه سحبان بالكلام ، فلما رآه  
ساكتا قال له : « انت هنا منذ وقت طويل ؟ .. »

قال سحبان : « منذ ساعة .. »

قال ركن الدين : « وهل الأمير أحمد هنا ؟ »

فقال سحبان : « نعم .. »

قال ركن الدين : « أين هو ؟ »

قال سحبان : « يلبس ثيابه للخروج مع الخليفة وأهله الى  
الفسطاط لمقابلة هولوكو ، كما تم الاتفاق في هذا الصباح .. »

فقال ركن الدين : « ومن أشار عليه بذلك ؟ »

قال سحبان : « جاءه الأمر من الخليفة كما جاء لسائر الأمراء

العباسيين .. »

قال ركن الدين : « وهل تركته يذهب معهم ؟ »

قال سحبان : « لماذا أمنعه ؟ .. دعه يذهب .. »

وظهر الغدر في عينيه .. فتذكر ركن الدين مطامع سحبان في  
ارجاع الخلافة الى الفاطميين وانه ينوى قطع دابر العباسيين من

الأرض حتى اذا لم يجد المسلمون خليفة يبايعونه هان عليهم مبايعة الخلفاء الفاطميين فتعود الدولة العلوية. ولكن هذا يخالف مطامع ركن الدين كما تقدم ، فرأى من الحزم أن يحول دون خروج ذلك الأمير من قصره في تلك الليلة .. فاستوقف سحبان وقال له : « لا ينبغي لنا ياسحبان أن نسوق هذا الأمير الى القتل » قال سحبان : « انهم لم يدعوه للقتل .. فان رقعة الدعوة تقول انه ذاهب للتعرف الى هولاءكو مع سائر بنى العباس للكف عن الحرب » ..

فضحك ركن الدين وأمسك سحبان من كنفه وهزئه وقال : « تقول ذلك لى .. وقد سمعنا خبر الاتفاق معا .. دع الرجل على قيد الحياة »

قال سحبان : « وهل يهيك بقاؤه ؟ .. -  
قال ركن الدين : « هب انه لا يهمنى بقاؤه .. فلا ينبغي أن يهيك قتله .. دعه .. أين هو الآن ؟ »

قال وقد تلعثم واربتك : « أظنه خرج .. »  
قال ركن الدين : « لا يمكن أن يكون قد خرج .. ينبغي ان تحضره حالا في هذه الساعة .. » قال ذلك وظهر الغضب في عينيه ..

فخشى سحبان غضبه وعمد الى الملاينة وقال : « أراك قد غضبت أيها الأمير ولا موجب للغضب .. ان الأمير أحمد اذا كان هنا فهو يفرح بلقائك .. » وأظهر الاهتمام ومشى نحو باب غرفة

الأمير ودقه وركن الدين واقف ، فسمع الأمير يقول : « أوشتك أن أفرغ من لبس ثيابي .. »  
 فقال سحبان : « لا حاجة الى لبسها يامولاي .. فان ضيفا يرغب في مقابلتك .. »

## - ٦٩ -

### النصيحة

فتفتح الباب وأطل الأمير أحمد وقد لبس بعض ثياب الخروج، ولم يبق الا العجة السوداء شعار العباسيين ، وقد تناولها ليلبسها فتقدم سحبان وساعده في لبسها وهو يقول له : « أقدم لمولاي الامام الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى ذكرت لك اسمه الساعة ، انه جاء من مصر وكان الخليفة قد أراد أن يعهد اليه بقيادة الجند ، ثم جرى الاتفاق والصلح بالشكل الذى ذكرته الآن وقد جاء ضيفا على مولاي »

فابتسم الأمير أحمد وقال : « مرحبا بالأمير الباسل .. تنزل عندنا على الرحب والسعة .. » وأشار اليه أن يدخل ثم قال :  
 « تمكث هنا ريثما أعود من مقابلة هولأكو بعد قليل .. »  
 فلم يتمالك ركن الدين أن قال : « لاينبغى لمولاي أن يخرج من هذا القصر الليلة .. »  
 قال الأمير أحمد : « ولكن أمير المؤمنين بعث اليّ أن أذهب

عملا بالاتفاق الذى عقد بينه وبين هولاء ، وأخشى أن يترتب على تخلفى ضرر ، وقد استشرت سحبان فوافقنى على الذهاب»  
قال ركن الدين : « أظنه غير رأيه الآن .. أسأله .. »

فالتفت الأمير أحمد الى سحبان ، فرآه قد أسرع الى التنصل من تلك المشورة وقال : « غيرت فكرى لأن الأمير ركن الدين نبهنى الى أمر لم أتنبه له ، والأفضل أن يبقى مولانا الليلة هنا ، وسرى ما يكون فى الغد .. »

قال الأمير : « وبماذا أجيب الرسول ؟ .. »

قال ركن الدين : « قل له انك ستنتظر فى الأمر .. »

وأحس سحبان بضيق بسبب مجيء ركن الدين ، وشق عليه حبوط مسعاه ، فكتّم ما فى نفسه .. وأظهر انه مضطر للذهاب فى تلك الساعة « فأذن له ، وانصرف .. »

فارتاب ركن الدين فى نية سحبان بسبب خروجه .. وأعمل فكره فيما يمكن أن يكون غرضه من الذهاب ، وعزم على أن يعتمد الى الدهاء والحيلة للوصول الى غرضه الذى جعله نصب عينيه منذ نشأت مطامعه السياسية ، نعى الوصول الى السلطنة وهى تستلزم وجود خليفة عباسى يثبتته كما تقدم ، وقد اطمأن خاطره الى نيلها بعد ما سمعه من حديث سلافة ، فحالما خرج سحبان نظر ركن الدين الى الأمير أحمد وقال : « هل يعرف مولاي الامام هذا الشيعى من عهد بعيد .. »

قال الأمير : « نعم .. »

قال ركن الدين : « وهل انت على ثقة من صدق مودته ؟ »  
 قال الأمير : « لم يظهر لى منه ما يوجب شكاً »  
 قال ركن الدين : « هل تظن ان الشيعة يخلصون النية في  
 مصلحة الخلفاء العباسيين ؟ »

فأطرق الأمير لحظة وقال : « لا أدرى .. »  
 قال ركن الدين : « يأذن لى مولاي أن أخاطبه بجسارة وصراحة  
 ونحن فى هذه الساعة على باب مستقبل جديد وانقلاب عظيم »  
 فاستغرب الأمير أحمد هذا التعبير وقال : « وأى انقلاب  
 تعنى .. كنا نخاف الانقلاب قبل عقد الصلح بين الخليفة وهولاكو  
 وأما الآن فلا تلبث الأمور أن تعود الى مجاريها »

فابتسم ركن الدين ابتسامة تهكم واستخفاف وقال : « ان  
 الذى بلغ مولاي الأمير ذلك مخدوع ، واذا كان ذلك المبلغ  
 سحبان نفسه فيكون قد تعمد الكذب .. لأنه يعلم يقينا ان  
 حقيقة هذا الاتفاق تخالف ظاهره .. ان الحقيقة تقشع  
 منها الأبدان وتشمئز منها النفوس ، أعوذ بالله منها . وأدعو الله  
 أن ينجى الامام أحمد من عواقبها »

فوقع هذا الكلام فى نفس الأمير وقعا شديدا ، وتهيب مما  
 سمعه وعظم أمر ركن الدين فى نفسه ، وأصبح شديد الشوق الى  
 معرفة سر الأمر ، فقال : « انى أرى الجد فى كل كلمة أسمعها  
 وفى كل حركة أراها .. قل يا أمير أفصح ، انى شديد الثقة بك »  
 قال ركن الدين : « لو ان مولاي أطاع سحبان وذهب فى

المهمة التي دعى اليها لأصبحت بغداد وليس فيها واحد من نسل العباس كرم الله وجهه « قال ذلك وأبرقت عيناه واشتد لمعائنها لاضطراب النور الواقع عليهما من المصباح ، فخيّل للأمير أحمد انه يخاطب رسولا هبط عليه من السماء وقال : « وكيف ذلك ؟ »

قال ركن الدين : « لأن ظاهر الاتفاق بين المستعصم بالله وهولاكو أن يجتمع هذا مع الخليفة وأهله للمصافاة والمصالحة ، وأما حقيقته فهي أن يغتنم هذا التتري ذلك الاجتماع ويفتك ببنى العباس ويقتلهم جميعا »

فلما سمع ذلك ارتعدت فرائصه وخفق قلبه وقال : « وهل كان سبحانه يعلم بذلك ؟ »  
قال ركن الدين : « نعم .. »

فقال الأمير : « لعنة الله على هذا الخائن .. وبارك الله فيك .. انى لا أنسى لك هذا الفضل ما حييت . ولكنى أتأسف لما سيصيب أهلى وأمتى .. هل انت على ثقة مما تقول ؟ »

قال ركن الدين : « نعم .. وفى الغد يظهر الحق ، وعسى أن أكون مخطئا فيكون ذلك الصلح صحيحا وترجع الأحوال الى مجاريها ، ولا يكون من ذلك بأس على مولاي الامام ، واذا لحقته من ذلك تبعة .. فأنا أتحمّل عنه كل تبعة ، وأفديه بروحى »  
فازداد الامام اعجابا بركن الدين ، وهان عليه أن يستسلم له فى كل ما يأمره به لأنه أنقذه من الموت ، فأخذ يثنى عليه ولا



يعرف كيف يعبر عن امتنانه . فقال ركن الدين : « لم أقل ما عندي بعد .. »

قال الأمير : « قل أيها الصديق »

قال ركن الدين : « اذا خلت بغداد من بنى العباس غدا فتكون الامامة قد انحصرت فيكم ، ولكنك لا تستطيع أن تظهر للناس ، فيجب أن تبقى مستترا كما استترت أئمتكم قبل ظهور دعوتكم على يد أبي العباس ، والمنصور في بغداد ، حتى يأذن الله بظهورها ثانية في غير بغداد . ستظهر في مصر والقاهرة التي كانت عاصمة الفاطميين العلويين الذين يطمع سبحانه هذا في ارجاع ملكهم ، وتصير عاصمة ثانية لبنى العباس »

فازداد الأمير دهشة من هذه الأفضال المتوالية ، ورأى انه قد آن له أن يكافئه على هذه الوعود بمثلها فقال : « اذا كانت ارادة المولى سبحانه وتعالى أن يتحقق ما تقول ، وتصير الخلافة الى .. فالسلطنة في مصر لا ينالها سوى الأمير ركن الدين بيبرس » ..

فجاء هذا التصريح مطابقا لما في خاطره وقال : « ان السلطنة ياسيدى ينالها الأقوى ، وأما الخلافة فانها حق موروث لا توهب ولا تباع » ..

قال : « وهل في مصر من هو أكثر جدارة للسلطنة منك ؟ » وأطرق وأخذ يفكر فيما سمعه من الأحداث الباعثة على الدهشة ، وتصور مقتل المستعصم وسائر أهله .. فشق عليه ذلك ودمعت

عيناه ، وقال : « يشق علىّ يا أمير أن يصيب بغداد ما تقوله .. »  
 فقال ركن الدين : « أظن ان مولاي لا يجهل سبب ذلك ..  
 انه يرجع الى فساد الحكم ، وضعف الخليفة ، واستسلامه للتهو  
 والاشتغال بالغناء ، فانه لم يسمع بمغنية في أطراف المملكة الا  
 بعث في استقدامها .. وأذعن للمتملقين وخاصة ابنه أبا بكر ،  
 وغير ذلك .. مما لا يليق بصاحب هذا المنصب ، فلعل الله أزال  
 هذه النعمة عنه ليخصّ بها من هو أهل لها .. »

فقال الأمير أحمد : « قد آن العشاء فلنذهب الى الصلاة  
 ريثما يعدون لنا الطعام فنأكل ثم نذهب للنوم التماسا للراحة »  
 فقال ركن الدين : « انى طوع ارادة مولاي في كل ما يريد  
 الا النوم ، فان مولاي يذهب الى فراشه متى شاء ، وأنا أمكث  
 ساهرا أراقب ما أخشاه .. ان خروج سحبان بالطريقة التي  
 خرج بها لم يعجبني .. ونحن على كل حال في اضطراب كما  
 يعلم مولاي .. »

فأعجب الأمير بيقظته وعلو همته ، وقال في نفسه : « ان مثله  
 يليق بالسيادة » ..

وقال : « بارك الله فيك يا أمير .. وما الذى أخافك من  
 سحبان ؟ .. »

قال ركن الدين : « أخافنى فشله وسكوته .. ولو انه جادلنى  
 وغنبنى على معارضته لما تملكنى الخوف مثل خوفى من كظمه ،  
 لأن الكظم يجبس العيظ ويزيد النقمة »

قال الأمير : « لا ينبغي أن تخاف منه لأنه يعد نفسه من أتباعنا وأصدقائنا » ..  
 قال ركن الدين : « لعلى مخطيء .. وعلى كل حال فانى شديد الحذر ، وان شاء مولاي فانى رفيقه فى الصلاة » فنهض الامام أحمد وذهبا للصلاة فى مصلى خاص هناك وعادا للعشاء ، وقد استحسن ركن الدين ما ظهر من تقوى ذلك الامام وتدينه وتوكله ..

### - ٧٠ -

#### حديث ذو شجون

جلسا الى المائدة ليتناولوا الطعام ، والأمير أحمد يباليغ فى إكرام ركن الدين الذى أنقذه من القتل . فقال له ركن الدين : « لم أعمل من عند نفسى ، انما كان ذلك بقضاء من الله مكافأة على حسنة من حسناتك الكثيرة »

فأطرق الامام أحمد وهو يبتسم كأنه تذكر أمرا يسر ذكره ، فتوقع ركن الدين أن يقص عليه سبب ابتسامه فسكت وأخذ يراقبه .. فقال الامام أحمد : « اعلم يا أمير انى شديد الاعتقاد بأن من يعمل خيرا يلقى خيرا .. ولعل الله بعثك الليلة لانتقادى من هذا الخطر مكافأة على حسنة وفقت الى اتيانها بقضاء من الله » فاستحسن ركن الدين تواضعه وصبر يستمع تنمة الحديث ،

فقال الامام : « أحمد الله على ذلك التوفيق فانه من نعم المولى.. وقد وفقت اليه وأنا في أشد الضنك ، واستبشرت من تلك الساعة.. وذلك انى كنت محبوسا - قبل هذا المكان - في قصر الفردوس وأنا صابر على السجن .. ولا ذنب لى سوى انى من آل عباس المرشحين للخلافة .. وكم شكوت الى الله ذلك ، وتمنيت لو انى من عامة الناس . ولكن الخليفة لم يقنع لى بالسجن ، فأراد زيادة التضييق على فأمر بنقلى الى هذا القصر فجأة ، ولم يسمح لى بالمبيت هناك .. فنقلونى ليلا فى سفينة نزلنا فيها بدجلة نحو هذا الوقت ، وكان النوتية ومن جاء معهم من الجند يكرموننى ويؤانسوننى ، لكن نفسى ضاقت وعظم على ذلك الظلم .. وانفردت فى مكان عند مقدم السفينة أتشاغل بالفرجة على سطح الماء فى الظلام ، ويقع نظرى من حين الى آخر على سفن مارة صعودا أو نزولا ، وأستأنس بنداء ملاحها أو غنائهم ، الا سفينة كانت سائرة على مقربة منا لم نسمع فيها صوتا .. ولم نعلم بوجودها الا من نور ضعيف كان معلقا فى ساريتها ، وقبل وصولنا الى هذا القصر بقليل سمعت صيحة ورأيت شبحا وقع فى الماء ، فحدثتنى نفسى بجريمة فناديت ربان سفينتنا وأمرته أن يتعقب تلك السفينة ، فلم يستطع ذلك ، لكنه عثر فى أثناء تفتيشه على غريق يتحرك ويستغيث ، فأعانه وانتشله وهو فى آخر رمق» وكان ركن الدين يسمع الحديث وشوقه يتزايد الى اتمامه حتى اذا وصل الى هنا ، ترجح له ان الغريق الذى يشير اليه هو

شوكار ، فلم يتمالك أن صاح : « وهل هي على قيد الحياة ؟ »  
 فاستغرب الامام دهشته وتسرعه وكيف عرف انها امرأة ،  
 فقال : « وكيف عرفت ان الغريق امرأة ؟ .. »  
 قال ركن الدين : « عرفتھا ياسيدى عرفتھا .. قل بالله ماذا  
 جرى ؟ .. »

قال الأمير أحمد : « فأخذ الملاحون في معالجتها حتى أفاقت ،  
 ورأينا شعرها مقصوصا .. وأردنا الاستفهام عن حالها ، فلم  
 نشأ أن تقول شيئا فلم نكرها على ذلك »  
 . فقال ركن الدين : « هي شوكار ياسيدى .. شوكار .. دعنى  
 أراها .. أليست هنا ؟ »

قال الأمير أحمد : « لا ياعزيزى لو عرفت انها تهملك  
 لاحتفظت بها .. »

فقال ركن الدين : « وأين هي الآن ؟ .. »  
 قال الأمير أحمد : « لما وصلنا بها الى هنا وارتاحت وبدئت  
 ثيابها واتعشت سألناها عن شأنها ، وعما تريد أن نساعدھا فيه ،  
 فلم تزد على أن شكرت فضلنا وأبت أن تبوح بشيء .. لكن  
 الملاحين عرفوا من شكل السفينة ان الفتاة من جوارى الخليفة  
 حكم عليها بالغرق . ولم يتجاسر أحد منا أن يقص خبر هذه  
 الفتاة على أحد . لكننى سألتها بعد بضعة أيام اذا كانت تعرف  
 أحدا من بغداد تريد أن تذهب اليه . فقالت : انها تعرف سحبان  
 وتريد من يوصلها اليه ، فتكرت بملابس الرجال ، وسهل ذلك

عليها قصر شعرها ، وأرسلنا معها أحد الخدم يوصلها الى الكاظمية الى بيت سحبان ، وكان ذلك في صباح هذا اليوم ، ولما جاءنى سحبان ورأيتة عندى لم يكن له علم بوصولها بعد « فأطرق ركن الدين وقد ثارت عواطفه وتضاربت أفكاره وسرء كثيرا لنجاة شوكار ، لكنه أسف لذهابها الى بيت سحبان ، ولا سيما بعد أن وقع ما وقع بينهما فى ذلك المساء .. وأصبح الامام أحمد فى شوق الى معرفة علاقة شوكار بركن الدين ، فسأله عن ذلك فقص عليه خلاصة تاريخ تلك العلاقة من مصر وما ارتكبته سلافة الى آخر الحديث ، فتأسف الامام أسفا شديدا لأنه بعثها الى بيت سحبان ، لكنه لم يلم نفسه لأنه لم يكن يعلم علاقتها بالأمر ركن الدين ..

- ٧١ -

### الضوضاء

وبينما هما فى ذلك اذ سمعا ضوضاء فى حديقة القصر .. فاستغرب الامام ذلك ، لكن ركن الدين لم يستغربه بل كان يتوقعه وقد استنبطاه ، فأوماً الى الامام أن يمكث مطمئنا ، ووئب كالأسد حتى وصل الى الباب ، فرأى أحد الحراس قد دخل وأغلق الباب خلفه وهو فى اضطراب شديد ، فقال له ركن الدين : « ما بالكم ؟ .. »

قال الحارس : « التتر ياسيدى .. دخلوا الحديقة وهم يطلبون القبض على مولانا الامام ، وقد غضبوا لأنه لم يأتهم من تلقاء نفسه » ..

قال ركن الدين : « اخرج وقل لهم انى خارج لهم بنفسى »  
 قال الحارس : « ولكنهم يطلبون الامام والا فانهم يهاجمونا بالقوة ويقتلون الامام وسائر من فى هذا القصر .. »  
 وسمع الامام حديثهما فهول وتوسل الى ركن الدين أن لا يعارض التتر فيما يريدون ، وانه يفضل الذهاب معهم الى الفسطاط خوفا من القتل ..

فأشار ركن الدين اليه قائلا : « كن مطمئنا يامولاي .. لا يمكن لهؤلاء أن يمسوا ظفرا من أظفرك ، قبل أن يستباح دمي .. »

قال الأمير أحمد : « وما الفائدة من اباحة دمك اذا فاز أولئك التتر علينا ، وهم فائزون لأنهم أكثر عددا وأقوى عدة »  
 قال ركن الدين : « لا تخف .. انهم لن يفوزوا باذن الله .. »  
 قال ذلك وصعد الى كوة فوق الباب وأطل منها على الحديقة ، فرآها مزدحمة بالناس بينهم حملة المشاعل للانارة ، وحملة النبايت والسيوف ، وقد علا ضجيجهم ، وتعالى غوغاؤهم ، وفى مقدمتهم رجل يظهر من هندامه انه كبيرهم وبجانبه سحبان ، فلما رأى سحبان معه تحقق ظنه منذ خرج من القصر على تلك الصورة فناده : « سحبان .. »

فرفع سحبان بصره الى ركن الدين وقال : « لا بد من تسليم  
الأمير أحمد لأن خبره وصل الى الخاقان هولوكو ولم يعد في  
الامكان اخفاؤه » ..

قال ركن الدين : « انى لا أرى حاجة الى تسليمه »  
قال سحبان : « لكن الخاقان أمر بالقبض عليه حالا ، والا  
خان الجند يهاجمون القصر ويقبضون عليه بالقوة .. »

قال ركن الدين : « انهم لا يفعلون ذلك ، ولا يخطر على بالهم  
أن يفعلوا ذلك لولا سحبان .. فارجع بهم وذلك خير لك »  
قال سحبان : « لا أعلم سبب تعرضك لهذا الأمر أيها الأمير  
وأنت فى غنى عنه .. »

قال ركن الدين : « وأنت أيضا فى غنى عن هذه الدسائس »  
قال سحبان : « فاتنى أن أخبرك ان شوكار عندى ، وأنت  
انما جئت هذا البلد من أجلها ، فانى أسلمها لك .. ودع هذا  
القصر .. »

فلما سمع قوله أحس باتقباض لأن سحبان يهدده بشوكار  
كأنه يقول له : انه اذا لم يطعه آذاه فيها ، فوقع فى حيرة فقال :  
« وماذا تعنى بذلك ؟ .. وما دخل شوكار فيما نحن فيه ؟ .. »  
قال سحبان : « لا أعلم .. والآن افتح هذا القصر والا دخله  
الجند بالقوة ، وأنت تعلم نتيجة ذلك .. ولا يفوتك أمر شوكار»  
وكان الامام أحمد واقفا بجانب ركن الدين ، وهو يحرضه  
على التسليم ولا سيما بعد أن سمع هذا التهديد فيه وفى



شوكار ، ولكن ركن الدين أبى أن يصغى لذلك التحريض ..  
ولما أبطأ ركن الدين فى الاجابة ، قال له سبحان : « لا تقل  
ان صديقك سبحان غدر بك .. فانى نصحتك مرارا وأعيد  
النصح الآن أن تسلم .. فأنت ومن فى القصر فى قبضة الجند ،  
ولن ترى شوكار أبدا .. »

واذا بصوت صاح فى وسط الضوضاء قائلاً : « لا تصدق  
أيها الأمير .. ان شوكار معنا فى أمان .. » وعرف ركن الدين  
انه صوت عابد ، فصدقه وأحس بانفراج الأزمة .. فقويت  
عزيمته ، ونظر الى سبحان وقال : « لم أكن أتوقع أن تحرض  
الجند علينا يا سبحان .. »  
فقال سبحان : « لم أحرضهم ، ولكنهم قادمون بأمر من  
الخاقان .. »

قال عابد : « كذبت .. ان الخاقان لم يأمرهم بذلك بعد أن  
أعطانى الأمان أنا وسائر أهل هذا المنزل ، وهذا علم الأمان  
انظروه .. » قال ذلك وأخرج العلم الذى كان أعطاه اياه مؤيد  
الدين ، ونشره فى النافذة فظهر جلياً للناظرين . وحالاً رآه  
الجند التترى طأطأوا رءوسهم اذعانا وتحولوا من الحديقة  
راجعين ، وسار سبحان فى أثرهم كالهارب الفاشل ، وركن الدين  
يتابعه بنظره وقلبه يرقص فرحاً بذلك الفوز ، والامام أحمد  
يضمه ويقبله شكراً له ..

فنزله ركن الدين الى صحن الدار ، ونادى عابداً وسأله عن

شوكار فقال : « هي هنا ياسيدى .. علمت بخروجها من هذا القصر من الخادم الذى أخذها الى الكاظمية ، فذهبت اليها وأتيت بها لعلمى ان وجودها هناك يسبب عراقيل كثيرة »  
 فقال ركن الدين : « بورك فيك من صديق غيور ، انك لست خادما .. وهذه الأريحية والشهامة جديرة بالصدقة » . ففرح عابد لهذا الاطراء وقال : « اذا شئت ان ترى شوكار فتفضل الى غرفتها » فمشى ركن الدين مسرعا الى تلك الغرفة ، فرأى شوكار لا تزال متتكرة بثوب أحد الخصيان .. فلما رأته لم تتمالك عن البكاء من شدة الفرح ، وترامت على ركبتيه تقبلهما .. فأنهضها وقبل رأسها وقال : « الحمد لله على سلامتكم يا حبيبتى .. نشكر الله على هذه النعمة ، والفضل الأكبر فى ذلك لمولانا الامام حفظه الله .. »

قال الامام : « الفضل كله لك أيها الأمير .. وأهنىء شوكار بهذا النصيب » ..

والتفت ركن الدين الى عابد وقال : « كيف عرفت يا عابد خبر شوكار ؟ .. »

قال عابد : « كنت جالسا فى الحديقة وصرّة الشعر معى فسألنى أحد الخدم عن خبرها ، وحالما رآها صاح : ما أشبه هذا الشعر بشعر الفتاة التى وجدناها فى دجلة .. وبعد أخذ ورد فهتت ان شوكار حملت الى منزل سحبان كطلبها ، فذهبت بأسرع من لمح البصر وأتيت بها متتكرة كما تراها .. »

فكر الشاء عليه .. فلم يعبأ بذلك ، لكنه قال : « لا ينبغي لمولاي الامام أن يبقى هنا لحظة واحدة .. »

فقال ركن الدين : « لماذا ؟ .. »

قال عابد : « لأن التتر وان عادوا الآن من هذا القصر فان سبحان لا يلبث أن يذهب بنفسه الى الخاقان أو غيره ، ويخبره بوجود الامام هنا فيبعث في طلبه .. لأنى شاهدت في طريقى من الفظائع ما لا يخطر ببال بشر .. »

فقال ركن الدين : « ماذا شاهدت ؟ .. هل نزل التتر بغداد ؟ »  
قال عابد : « نزلوا دور الخلافة ومعهم هولاءكو بنفسه فتفقد تلك القصور .. وأخرج من فيها من النساء ، وفرقهن على رجاله .. »

فقال الامام أحمد : « والخليفة .. ماذا فعلوا به ؟ .. أين هولاءكو ؟ .. »

قال عابد : « بلغنى ان مؤيد الدين الوزير حرض بنى العباس وسائر وجوه الدولة على الخروج الى الفسطاط فقتلهم التتر عن آخرهم ، ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه هناك من أبناء الخلفاء ، ومن كان منهم صغيرا أخذوه أسيرا ، والقتل الآن مستمر في بغداد .. فان باجو عبر الجسر الى الكرخ وغيرها ، وأخذ رجاله في النهب والقتل .. وبلغنى ان الكتب التى كانت في خزائن قصور الخلافة أخرجوها وألقوها في دجلة وهى شىء لا يحصى لكثرتة .. وسمعتهم يذكرون اسم

مولاي الامام وسبب تغيبه لأنهم لم يجدوه في قصر الفردوس كما كانوا يظنون ؛ ولذلك قلت لكم لا بد من السرعة في الخروج الآن .. »

فوقع الرعب في قلب الامام أحمد ، فالتفت ركن الدين الى عابد وقال : « انت من أهل هذه البلاد ، فأرشدنا الى مكان نخفى فيه مولانا حتى تستقر الحال .. »  
فأشار مطيعا ، وقال : « ذلك على .. فأمرنا بأخذ ما خف حملة وغلا ثمنه واتبعوني .. »

فاشتغل أحمد وخادمه بذلك ، فحملوا أحمالهم وركبوا قبل الفجر وعابد يمشى في مقدمتهم حتى خرجوا من بغداد ، وبلغهم في اليوم التالي ان التتر يتعقبونهم .. فلم يروا بدا من الالتجاء الى بعض قبائل العرب ، فالتجأوا الى قبيلة من قبائل العراق مكث عندها الامام ومعه عابد

أما ركن الدين فلما اطمأن باله على الامام ، أوصى عابدا عليه وسافر الى مصر ومعه شوكار .. وحالما وصل الى هناك ، كتب كتابه على شوكار ، ووجد سلطانها نور الدين بن عز الدين كما قاله له سلافة ، فحرض الأمراء على التذمر منه لأنه غلام لا يصلح للحكم .. وبايعوا بعده سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ ، لأنه من سلالة ملوك خراسان ، فصبر ركن الدين على ذلك وهو يسعى لتحقيق أمنيته ليتم له ما دبره من أمر نقل الخلافة الى مصر وفي السنة التالية زحف هولاءكو على سورية ، وبعث يهدد



« . . ثم هجموا عند الغروب على قصور الخلافة وقتلوا كل من وجدوه  
هناك من ابناء الخلفاء ، ومن كان منهم سفيرا اخذوه اسسيرا . . »

قطز فشاور الأمراء فأشاروا عليه بالحرب ، وفي مقدمتهم ركن الدين ، فجرد حملة سار ركن الدين فيها .. واضطر هولاءكو الى الرجوع لموت والده ، وأخذ معظم جيشه معه .. والتقى ما بقى من رجاله بجيش قطز في فلسطين في معركة فاز فيها المصريون وعادوا ظافرين .. فاغتنم ركن الدين فرصة في أثناء رجوعهم وقتل قطز ، وكان قد تواطأ على ذلك مع رفاقه الأمراء .. ورضوا أن يتولى هو مكانه ، فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨ هـ ، ولقب بالملك الظاهر .. وحالما استقرت قدمه ، بعث في استقدام الامام أحمد ، فجاءه في السنة التالية فبايعه خليفة ، ولقبه بالمستنصر بالله .. وصارت الخلافة العباسية بمصر منذ ذلك الحين ..



 Bibliotheca Alexandrina



**0623061**